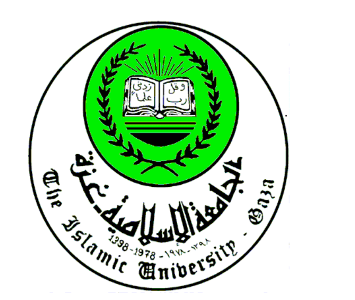
الجامعة الاسلامية غــــزة
عمادة الدراسات العليــــا
كلية أصـــــول الديــــن
قسم التفسير وعلوم القرآن



عقوبات الأمم المكذبة في الدنيا

(دراسة قرآنية موضوعية)

قدم هذا البحث استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن

إعداد الطالب

محمد بكر محمد الرياحي

إشراف الدكتور

جمال محمود محمد الهوبي

العام الجامعي

١٤٣٢هـ – ٢٠١١ م

الفصل الأول

السنة الإلهية في عقاب الأمم

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول :تعريف العقاب لغة واصطلاحاً .

المبحث الثاني :خصائص السنة الإلهية في عقاب الأمم.

المبحث الثالث: جرائم الأمم المكذبة وعقوباتها.

المبحث الأول

تعريف العقاب لغة واصطلاحاً

وفيه مطلبان:

المطلب الأول:العقاب لغة.

المطلب الثاني:العقاب اصطلاحاً.

المبحث الأول
تعريف العقاب لغة واصطلاحاً

المطلب الأول : العقاب لغة

للعين والقاف والباء أصلانِ صحيحان:

الأصل الأول: يدلُّ على تأخير شيء وإتيانِه بعد غيره ،قال الخليل: كلُّ شيء يَعقُبُ شيئاً فهو عَقيبُه، العَقيبانِ :اللَّيل والنهار ، كلُّ واحدٍ منهما عَقيبُ صاحبِه ، إذا جاء اللّيلُ ذهب النَّهارُ، فيقال عَقَّب اللّيلُ النّهارُ وعقّب النهارُ اللّيل، وحكي عن الأصمعيّ: رأيتُ عاقبةً من الطَّير، أي طيراً يَعقُب بعضها بعضاً، وقال النبيُّ صَلَّى اللّهُ عليه وسلّم :(**لي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ : مُحَمَّد ، وأَحْمَدُ والمَاحِي يَمْحُو اللّهُ بِي الكُفْرَ ، والحَاشِرُ أَحشُر النـاسَ على قَدَمِي ، والعَاقِبُ**)[1] .

قال أَبو عُبَيْد : العَاقب : آخرُ الأَنْبِيَاء. [2]

- **علاقة هذا المعنى بالمفهوم القرآني للعقاب:**

العلاقة متلازمة بين العقاب بمعنى تأخير الشيء وإتيانه بعد غيره،وبين العقاب حسب التصور القرآني ،حيث جرت سنة الله تعالى أن يتأخر العقاب ويُأجّل إلى أن يقع التكذيب من الأمم لأنبيائهم،ويمثل على هذا بقوله تعالى ﴿**كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ [آل عمران : ١١] أفادت الآية الكريمة أن العقاب وقع بعد التكذيب بالآيات والإعراض عن دعوة نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام.

وقد عمَّمَت آية أخرى هذا الأصل في تأخر العقاب حتى يقع التكذيب حيث قال تعالى: ﴿ **أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾[غافر:٢١– ٢٢]

---

[1] صحيح البخاري ، كتاب المناقب – باب ١٥(ما جاء في أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم)– (٣ / ١٢٩٩)ح (٣٣٣٩).

[2] انظر: لسان العرب ،لابن منظور – (١ / ٦١١)،معجم مقاييس اللغة،لأبي الحسين أحمد بن فارس– (٤ / ٦٢)، تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد الحسيني المشهور بالزبيدي– (٣ / ٤٠٠)، المصباح المنير ،حمد بن محمد الفيومي– (٢ / ٤٢٠).

قـال القرطبـي رحمـه الله:" والعقـاب مـأخوذ مـن العقـب ، كـأن المعاقـب يمشـي بالمجازاة له في آثار عقبه ، ..، فالعقاب والعقوبة يكونان بعقب الذنب."[1]

الأصل الثـاني: والأصل الآخَر يدلُّ على ارتفاعٍ وشدّة وصُعوبة، ومن الباب: عاقبت الرجل مُعاقَبة وعُقوبةً وعِقاباً، ويقولون: إنّها لغةُ بني أسد، وإنّما سمِّيت عقوبة لأنَّها تكون آخراً وروي عن بعضهم: المعاقِب الذي أدْرك ثأره، والعُقْبَى : جزاءُ الأَمْرِ ، وأَعْقَبَه : جازاهُ وتَعَقَّبَهُ : أَخَذَهُ بذَنْبٍ كان منه.[2]

- **علاقة هذا المعنى بالمفهوم القرآني للعقاب:**

العلاقة هنا بيِّنة واضحة فإن المراد بالعقاب في القرآن الكريم هو إنزال العذاب والنكال على المستحقين لذلك ،والعقاب هو الجزاء عن جناية وجرم تصدر من الإنسان، وهو مأخوذ – كما يقول القرطبي – من العَقِب ، كأن المعاقِب يمشي بالمجازاة للجاني في آثار عقبه ، ومنه عقبة الراكب – أي الموضع الذي يركب منه – فالعقاب والعقوبة يكونان بعقب الذنب.

ويجدر التنبيه للفرق بين العقبى والعاقبة وبين العقاب في الاستعمال القرآني ،فإن العقبى تختص بالثواب والأجر للمؤمنين،والعاقبة تعني النهاية المحمودة الحسنة المكللة بالنصر كقوله تعالى : **﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾** [القصص : ٨٣] أما العقاب فهو يختص بالعذاب ، قال الراغب في مفرداته مفرقاً بين اللفظين:"والعُقْب والعُقْبى يختصان بالثواب نحو:**﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف : ٤٤]** والعاقبة إطلاقها يختص بالثواب نحو: **﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾** [هود : ٤٩]وبالإضافة قد تستعمل في العقوبة نحو: **﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى﴾** [الروم : ١٠] وقوله تعالى: **﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ﴾** [الحشر : ١٧] يصح أن يكون ذلك استعارة من ضده كقوله: **﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾** [آل عمران : ٢١] والعقوبة والمعاقبة والعقاب يختص بالعذاب، قال (فحق عقاب – شديد العقاب – وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به – ومن عاقب بمثل ما عوقب به)"[3]

المطلب الثاني:العقاب اصطلاحاً:

لفظة العقاب من الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم في سياق الآيات التي تناولت

---

[1] الجامع لأحكام القرآن المشهور بالجامع لأحكام القرآن – (٣ / ٢٨).

[2] لسان العرب ، لابن منظور – (١ / ٦١١) ، معجم مقاييس اللغة لابن فارس– (٤ / ٦٤).

[3] مفردات غريب القرآن، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني– (١ / ٣٤٠) .

الأوامر والنواهي ؛وغالباً ما تذيل هذه الآيات المتضمنة لمصطلح العقاب بفاصلة **﴿إن الله شديد العقاب﴾** أو **﴿والله شديد العقاب﴾**،بهدف حض المخاطب على تنفيذ أمر، أو الانتهاء عن نهي ،ومن الآيات التي جمعت بين الأمر والنهي قوله تعالى:**﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾** [المائدة : ٢]
كما جاء لفظ العقاب في سياق الحديث عن الأمم المكذبة وعاقبتها كما في قوله تعالى:**﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾**[الأنفال : ٥٢]

فالعقاب إذن لفظ قرآني ،ورد في القرآن في عدة مناسبات،و من خلال البحث عن مفهومه عند الفقهاء، تبين أنهم لم يهتموا بوضع مفهوم محدد للعقاب ،لأنهم اهتموا بمصطلح آخر، وهو مصطلح " الحد"، لشيوعه في مسائلهم الفقهية الخاصة بإقامة الحدود.
أما المفسرون فقد وجد الباحث أنهم قد وضعوا لهذا المصطلح تعريفات عديدة، مختلفة في الصياغة لكنها متقاربة في المعاني.
وممن عرف العقاب من المفسرين الإمام الرازي حيث عرفه بتعريفين في تفسيره :
الأول: " العقاب هو الضرر الدائم الخالص عن شوب النفع"[1]
الثاني:" العقاب هو المضرة الخالصة المقرونة بالإذلال والإهانة"[2]

وهذان التعريفان للعقاب–مع جلال قدر المعرِّف – لم يجمعا مفهوم العقاب وعناصره، فقد اشتملا على عنصر واحد من عناصر التعريف وهو الإيلام أو الضرر الذي يقع على الجاني،ولم يشيرا إلى سبب إيقاع هذا الضرر وهو الجريمة المقترفة.

وهناك تعريف ثالث مختصر للإمام ابن عاشورً في تفسيره،ومع كونه مختصراً إلا أنه جامع لعناصر العقاب،ويرى الباحث أنه أفضل التعريفات المذكورة في هذا الباب حيث عرفه بقوله: " والعقاب هو الجزاء المؤلم عن جناية وجرم"[3]

ونلاحظ دقة هذا التعريف حيث قيد الجزاء بالإيلام في قوله"الجزاء المؤلم"؛ لأن الجزاء يكون بمعنى الإثابة على فعل خير كقوله تعالى : **﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾** [الزمر : ٣٤] ويكون بمعنى العقاب على فعل شر كما قال الله : **﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾** [يوسف : ٧٥]

وركز هذا التعريف على جوهر العقوبة، ألا وهو إيقاع الإيلام بالمجرمين الذين تجاوزوا الحد، وبالمقارنة بين مفهوم العقاب عند المفسرين وعند من تكلم في أصول العقاب من

---

[1] مفاتيح الغيب – (٢٤ / ٥١).
[2] المصدر السابق – (٢٤ / ٩٧).
[3] التحرير والتنوير،لابن عاشور – (٢ / ٢٩٣).

المعاصرين، نجد أن هناك تقاطع واضح بين المفهومين نظراً للاشتراك في سبب العقاب وهو الجريمة،فقد عرف محمود حسني العقاب بأنه:"إيلام مقصود يوقع من أجل الجريمة ويتناسب معها"(١)

وبناءً على المنظور القرآني فالمراد بالمجرمين الذين لم يؤدوا حق الله تعالى عليهم بالتوحيد والإفراد له سبحانه بالعبادة ،وتجاوزوا الحدود بالاعتداء على حقوق الناس المختلفة فهؤلاء يستحقون العقوبة المؤلمة،ويتفاوت هذا الإيلام الذي نزل وينزل بالأمم المكذبة في درجة شدته بقدر الجريمة المقترفة،وبتقدير الحكم العادل من الله تعالى ،ولا يكون العقاب دائما بالإهلاك والاستئصال العام كما يتبادر إلى الذهن عند ذكر عقاب الأمم ،وإنما قد يخفف العقاب إلى درجة أقل من ذلك كما عوقب بنو إسرائيل بتحريم الأرض المقدسة عليهم وكما عوقب أصحاب الجنة بإحراق جنتهم.

---

(١) دروس في علم الإجرام وعلم العقاب ، ص٢٢٤.

المبحث الثاني

خصائص السنة الإلهية في عقاب الأمم

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول:الثبات .

المطلب الثاني:العموم .

المطلب الثالث:العدل .

المطلب الرابع:الجزاء من جنس العمل.

المبحث الثاني

خصائص السنة الإلهية في عقاب الأمم

المطلب الأول:الثبات

إن سنة الله تعالى في عقاب الأمم المكذبة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل على الإطلاق،وما جرى لها خرق أبداً في ماضٍ ولا حاضر ،فهي ماضية مستمرة إلى قيام الساعة،لأنها قائمة على الحكمة الإلهية في إحقاق الحق،وإقامة العدل في الأرض،وإحلال التوحيد الخالص بدل الشرك والظلم،وهذه من الثوابت التي لا تتغير ،قال تعالى ﴿**...فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا** ﴾ [فاطر : ٤٣]

" أي فهل ينتظرون إلا سنة الأولين : أي سنة الله فيهم، بأن ينزل بهؤلاء العذاب كما نزل بأولئك﴿**فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا**﴾ أي لا يقدر أحد أن يبدل سنة الله التي سنها بالأمم المكذبة من إنزال عذابه بهم بأن يضع موضعه غيره بدلاً عنه ﴿**...وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا** ﴾بأن يحوّل ما جرت به سنة الله من العذاب فيدفعه عنهم ويضعه على غيرهم" [(١)]

وهذا عين العدل ،فلا يستقيم أن يتمادى المجرم بجرمه ثم يترك دون عقاب،فالعدل يقتضي ألا يُرحم ،بل يجب أن يوقع العذاب عليه .

"أي وهذه سنة اللّه في كل مكذب ، فلا تغير ولا تبدل ، ولن يجعل الرحمة موضع العذاب ، ولن يحوّل العذاب من نفس إلى أخرى كما قال : ﴿ **وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى** ﴾ [الأنعام : ١٦٤]."[(٢)]

"وتبقى سنة الله تعالى ثابتة تعمل عملها في حركة التاريخ،والله يتخذ من الظالمين والمترفين وأهل الشرك والضلال وغيرهم من كل ذوي الفساد والانحراف أدوات ووسائل يسوق بها القرى والدول والحضارات والأمم والمجتمعات نحو الفواجع والمصائر الحالكة."[(٣)]

ولقد وعى الأنبياء هذه السنة،وأدركوا أنها ثابتة،ولذلك نجدهم في مواضع عديدة من قصص القرآن يحذرون أقوامهم بمصير من قبلهم من الأمم،ويدعونهم إلى الاتعاظ والتفكر بما حل بهم من تدمير، وتتبير، وهلاك، قال تعالى عن شعيب عليه الصلاة والسلام: ﴿**وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ** ﴾[هود : ٨٩] أى : "إذا كنتم تتعظوا بما أصاب قوم نوح من غرق ، وبما أصاب قوم هود من ريح دمرتهم ، وبما أصاب قوم صالح من صيحة أهلكتم ، فاتعظوا بما أصاب قوم

---

(١) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ،محمد بن علي الشوكاني- (٤ / ٣٥٦).

(٢) تفسير المراغى - (٢٢ / ١٤٠) .

(٣) التفسير الإسلامي للتاريخ،عماد الدين خليل، ص٢٧٦.

لوط من عذاب جعل أعلى مساكنهم أسفلها ، وهم ليسوا بعيدين عنكم لا فى الزمان ولا فى المكان ."[١]

وفي ثبات هذه السنة بشرى للمسلمين في هذا الزمن الذي تداعى فيه اليهود والنصارى على المسلمين ،واعتدوا عليهم بشتى أنواع العدوان،بدءاً باحتلال أرضهم كما في بلادنا فلسطين، وكذلك العراق، وأفغانستان ،ومروراً بقتل الآلاف من الرجال والحرائر والأطفال ،ناهيك عن سرقة مقدرات الأمة وثرواتها،ويطول الحديث عن هذه السلسلة الطويلة من الجرائم بحق الأمة الاسلامية المستضعفة،إلا أن هذا الظلم لن يدوم طويلاً بإذن الله ؛لأن السنة الإلهية في الانتقام من الأمم الظالمة ستمضي على هؤلاء الظلمة كما مضت على من كان قبلهم،لاسيما بعد حربهم العقائدية التي استهدفوا فيها عقيدة المسلمين،ونبيهم وقدوتهم محمد صلى الله عليه وسلم،من خلال نشرهم لتلك الرسومات الشيطانية المسيئة ،وكذلك حربهم على الحجاب والنقاب في بعض الدول الغربية،فاجتمع فيهم الظلم والشرك والكفر بالله والاستهزاء بسيد الأولين والآخرين،وهذه أسباب كثيرة تعجِّل من جريان سنة الله تعالى عليهم، قال تعالى﴿**وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ** ﴾ [الرعد : ٣١]

المطلب الثاني:العموم

وهو من خصائص السنة الإلهية في عقاب الأمم المكذبة ، والمراد بعموم سنة الله تعالى في عقاب الأمم المكذبة أنها سنة عامة شاملة، تجري على كل من وقع في أسبابها دون النظر إلى عرقه، أو نسبه،أو لونه ،أو لسانه،فهي سنة لا تحابي أحداً دون أحد،ولا قوماً دون قوم ،فإنها كما حكمت الزمن الماضي، تحكم الزمن الحاضر،وستحكم في الزمن المستقبلي إلى قيام الساعة،ومن الأدلة على عموم هذه السنة الآيات الكثيرة المتشابهة في لفظها،والتي تدعو إلى السير في الأرض للنظر في عاقبة المكذبين ،كقوله تعالى : ﴿**أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ [الروم : ٩] وقوله : ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا** ﴾ [محمد : ١٠]

فالآية تدعو جميع الناس للتأمل والاتعاظ بمصير السابقين،الذين لحقهم الهلاك،رغم قوتهم الجسدية والبدنية،ورغم قوتهم الاقتصادية التي يدلل عليها عمرانهم للأرض،إلا أنهم لم يشكروا الله على هذه النعم بل أعرضوا، وكذبوا ،وحاربوا دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام،

---

[١] التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، محمد سيد طنطاوى- (٧ / ٢٦٢).

وصدوا الناس عنها ،فكانت نتيجة هذا الصدود أن جاءهم العذاب ودمرهم،فالآية كانت إنذاراً لكفار مكة كي يتوقفوا عن عدوانهم بحق الدين الجديد، وهي كذلك إنذار لكل مشرك ظالم،وتنبيه له علَّه يصحو من غفلته،ويستيقظ من سكرته.

"وهي دعوة إلى التأمل في مصائر الغابرين؛ وهم ناس من الناس ، وخلق من خلق الله ، تكشف مصائرهم الماضية عن مصائر خلفائهم الآتية ، فسنة الله هي سنة الله في الجميع ، وسنة الله حق ثابت يقوم عليه هذا الوجود ، بلا محاباة لجيل من الناس ، ولا هوى يتقلب فتتقلب معه العواقب . حاشا لله رب العالمين!

وهي دعوة إلى إدراك حقيقة هذه الحياة وروابطها على مدار الزمان ، وحقيقة هذه الإنسانية الموحدة المنشأ والمصير على مدار القرون ؛ كي لا ينعزل جيل من الناس بنفسه وحياته ، وقيمه وتصوراته ، ويغفل عن الصلة الوثيقة بين أجيال البشر جميعاً ، وعن وحدة السنة التي تحكم هذه الأجيال جميعاً؛ ووحدة القيم الثابتة في حياة الأجيال جميعاً "[1]

وقد زعم اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه ،قال تعالى محدثاً عن كذبهم وافترائهم :**﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾** [المائدة : ١٨]

فأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم ويقول : فَلأيِّ شيء يعذِّبكم بذنوبكم؟ فلو كنتم أحبابه ما عذَّبكم، فالحبيب لا يعذب حبيبه ،والله لا يحب إلا من أطاعه، وقل لهم: بل أنتم خلقٌ مثلُ سائر بني آدم، إن أحسنتُم جوزيتم بإحسانكم خيراً، وإن أسَأْتُم جوزيتم بإساءتكم شرًّا،فهذه سنته الجارية،عامة في كل الناس، والله يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، وهو مالك الملك، يُصَرِّفه كما يشاء، وإليه المرجع، فيحكم بين عباده، ويجازي كلاً بما يستحق.

وفي سرد القرآن لآيات القصص نلمح عموم هذه السنة،ففي سورة القمر وبعد أن سردت السورة قصة إهلاك الأقوام المكذبة ،جاء التعقيب المخيف والمحذر لكفار قريش ،والذي يهز الكيان والأفئدة ،مبيناً عموم هذه السنة وأنها كما جرت على أولئك الأقوام فسوف تجري عليهم إن لم يؤمنوا قال تعالى: **﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ * أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾** [القمر : ٤٣ – ٤٥]

"بعد أن ذكر سبحانه قصص قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون ، وفصّل ما أصيبوا به من عذاب اللّه الذي لا مرد له –بسبب كفرهم بآياته وتكذيبهم لرسله – أعقب هذا بتنبيه كفار قريش إلى أنهم إن لم يثوبوا إلى رشدهم ويرجعوا عن غيهم فستحل بهم سنتنا ،

---

[1] في ظلال القرآن ، سيد قطب – (٥ / ٤٨١).

ويحيق بهم من البلاء مثل ما حل بأضرابهم من المكذبين من قبلهم ، ولا يجدون عنه محيصاً ولا مهرباً"[١]

وقد صدق اللّه وعده ، فانهزم المشركون، وولوا الأدبار يوم بدر، وكان هذا دليلاً من دلائل النبوة ،فالآية نزلت بمكة ولم يكن له صلّى اللّه عليه وسلّم يومئذ جيش ، بل كان أتباعه مشرّدين فى الآفاق ، يلاقون العذاب من المشركين ،ويفتنون في دينهم ، حتى لقد قال عمر رضى اللّه عنه : لما نزلت لم أعلم ما هى ؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يلبس الدرع ويقول : **(سيهزم الجمع)** فعلمته ، ثم استمر انهزامهم بعد.[٢]

وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم وهو في قبة:(**اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم)**، فأخذ أبو بكر بيده فقال :حسبك يا رسول الله فقد ألححت على ربك وهو في الدرع، فخرج وهو يقول :**﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾**"[٣].

المطلب الثالث:العدل

والمقصود بالعدل في هذه السنة أن إمضاءها على الأمم يكون بعد تحقق أسبابها،ووجود دواعيها،فإن أفعال الله تعالى وسننه وأقداره مبنية على العدل المطلق الذي لا يشوبه ذرة من ظلم أو جور كما قال تعالى: **﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[الروم : ٩]**

فالآية تبين عدل الله تعالى المطلق الذي لا يماثله عدل،فهو– سبحانه –لا يظلم أحداً،فلا راد لحكمه ولا معقب لقضائه،والتنكير في"شيئاً" يفيد الشمول فلا يقع الظلم منه سبحانه لا قليلاً ولا كثيراً، وعمل الإنسان سواء كان حسناً أو سيئاً ،وإن كان يزن مثقال حبة من خردل يأت به الله تعالى حاضراً يوم القيامة،ليحاسب الإنسان عليه،وهذا تصوير لدقة الحساب ، وعدم مغادرته لشيء من أعمال الناس ، إذ الخردل حب فى غاية الصغر والدقة .

والظلم يقع من العباد المكذبين، الذين أداروا ظهورهم لدعوة التوحيد،وجعلوا أصابعهم في آذانهم ، واستغشوا ثيابهم وأصروا على كفرهم ، مستهزئين برسل رب العالمين، وقد عاثوا في الأرض فساداً وظلماً لأنفسهم وللعباد،فإن هذا الظلم لا يرضاه الله تعالى ولا يقبل به؛لذلك

---

[١] تفسير المراغى – (٢٧ / ٩٦).

[٢] انظر: المعجم الأوسط ، سليمان بن أحمد الطبراني– (٤ / ١٤٥)،ح(٣٨٢٩).

[٣] صحيح البخاري،كتاب (الجهاد والسير)،باب ٨٨(ما قيل في درع النبي صلى الله عليه وسلم)– (٤ / ٤١)،ح (٢٩١٥) .

تتحقق سنة العقاب والإهلاك،بسبب ظلم العباد قال تعالى: **﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾** [التوبة : ٧٠]

أتتهم رسلهم بالبينات : فأعرضوا عنها وعاندوا الرسل ، فأخذهم العذاب وهو الطوفان الذي أغرق قوم نوح ، والريح العقيم التي أهلكت عادا قوم هود ، والصيحة التي أخذت ثمود ، والعذاب الذي هلك به النمرود الذي حاول إحراق إبراهيم ، والخسف الذي نزل بقرى قوم لوط وهم فيها : فما كان الله ليظلمهم ... أي : "فما كان من سنة الله ، ولا من مقتضى عدله وحكمته أن يظلمهم بما حل بهم من العذاب ، وقد أنذرهم وأعذر إليهم ليجتنبوه ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بجحودهم وعنادهم ، وعدم مبالاتهم بإنذار رسلهم ، والمراد من ضرب هذا المثل للكافرين برسالة محمد . صلى الله عليه وسلم . من المجاهرين والمنافقين ، أن سنة الله في عباده واحدة لا ظلم فيها ولا محاباة ، فلا بد أن يحل بهم من العذاب ما حل بأمثالهم من أقوام الرسل إن لم يتوبوا"[١]

وتترتب على سنة الإهلاك سنة أخرى ألا وهي سنة الاستبدال والتغيير بقوم آخرين،من صفاتهم أنهم لربهم مطيعين،ولرسلهم مجيبين،وللحق مقيمين، وللشرع مطبقين، وبهذا يتحقق العدل الذي يريده الله تعالى في الأرض،عدل في معاملة العبد لربه بتحقيق التوحيد،وعدل في معاملة العبد للآخرين بإعطاء كل ذي حق حقه.

المطلب الرابع:الجزاء من جنس العمل

الذي يتتبع الآيات القرآنية التي تحدثت عن موضوع العقاب، يجدها تدعو إلى العدل في إنزال العقاب بالمسيئين، بحيث تكون العقوبة مناسبة للذنب المقترف، وقد أكدت آيات كثيرة هذا المنهج القرآني ،حتى يكون العدل هو الأساس في حل المنازعات بين العباد، كما قال تعالى: **﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾** [الشورى : ٤٠]: وقال**﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾** [النحل : ١٢٦]

وهذا المنهج العقابي القرآني ينسحب على عقوبات الأمم المكذبة التي نحن بصدد الحديث عنها،فإن الله تعالى قد جازى كل أمة مكذبة بما تستحق عدلاً منه سبحانه وتعالى، وجعل عقابها من جنس معصيتها،التي جاهرت بها، وتباهت باقترافها.

---

(١) تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار ، محمد رشيد بن علي رضا-(١٠ / ٤٦٥) .

وسوف نذكر فيما يلي مثالين على هذه الخاصية على سبيل التمثيل لا الحصر :

١- قوم عاد :

فقد تباهوا بقوة الأجسام،وعظمة الأبدان،حتى بغوا على العباد،ظلماً،وبطشاً،وقهراً ،كما أخبر الله تعالى عنهم: **﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ *وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾** [الشعراء : ١٢٨ – ١٣١]، وقال في موضع آخر: **﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾** [فصلت : ١٥]

إنه مشهد يجسد غرور الجبابرة حينما تُعمي قوتُهم بصائرَهم ،فما يرون أحداً أشد منهم قوة،ويتحدون الله تعالى بقوتهم في جرأة عجيبة،وهو الذي خلقهم وأمدهم بهذه القوة،ولهذا لما نزل العقاب بهم ،كان مسلطاً على تلك الأجساد التي تباهوا بقوتها،حيث أرسل الله عليهم ريحاً صرصراً توالت عليهم سبع ليال وثمانية أيام،حتى صرعت الأجسام،ونثرت العظام،وجعلتهم غثاءً لا نشاط لهم ولا قيام، كل هذا بسبب عداوتهم للجبار تبارك وتعالى.

" فبارزوا الجبار بالعداوة، وجحدوا بآياته وعصوا رسوله، فلهذا قال: **﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾** ... كانت ريحا شديدة قوية؛ لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم، وكانت باردة شديدة البرد جدا، كقوله تعالى: **﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾** [الحاقة:٦]، أي: باردة شديدة، وكانت ذات صوت مزعج"[(١)]

٢- قوم لوط :

وأما قوم لوط فقد انقلبت فطرتهم،ومسخت طبيعتهم،بسبب اقترافهم تلك الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين ،قال تعالى: **﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾** [الأعراف : ٨٠ ، ٨١]

" أي واذكر لوطا حين قال لقومه موبّخا لهم : أتفعلون تلك الفعلة التي بلغت الغاية فى القبح والفحش؟**﴿ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ﴾**أي ما عملها أحد قبلكم فى أي زمان ، بل هى من مبتدعاتكم فى الفساد ، فأنتم فيها أسوة وقدوة ، فتبوءون بإثمها وإثم من اتبعكم فيها إلى يوم القيامة، وفى هذا بيان؛ لأن ما اجترحوه من السيئات مخالف لمقتضيات الفطرة ، ومن ثم لم تتطلع إليه نفوس أحد من البشر قبلهم لما فيه من مخالفة لهدى الدين"[(٢)]

---

(١) تفسير القرآن العظيم المشهور بتفسير ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي- (٧ / ١٦٩).

(٢) تفسير المراغى – (٨ / ٢٠٤).

وحين نزل العقاب على هؤلاء القوم كان من جنس تلك المعصية ،التي تمثل انتكاسة في الفطرة،حيث قلب الله تعالى قراهم رأساً على عقب كما قال تعالى: **﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾** [الحجر:٧٤]

"وهذا القلب وجعل عاليها سافلها أشبه شيء بتلك الفطرة المقلوبة الهابطة المرتكسة من قمة الإنسان إلى درك الحيوان ، بل أحط من الحيوان ، فالحيوان واقف ملتزم عند حدود فطرة الحيوان " [(١)]

ويتضح مما سبق أن العقوبات الإلهية للأمم لا تختص بنوع واحد أو صيغة واحدة من الدمار والسقوط بل جرت سنة الله تعالى بتنويع العذاب وكثرة ألوانه واختلافها بطرق عديدة كما قال تعالى:**﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ * فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [العنكبوت : ٣٩ ، ٤٠]﴾** [المدثر : ٣١]،وبحسب فساد الأمة وانحرافها يكون الهلاك والتعذيب الذي قد يجئ صاعقة،أو غرقاً،أو فيضاناً،أو ريحاً،أوخسفاً ،أو قحطاً،أو مجاعة وارتفاعاً في الأسعار،أو أمراضاً،وأوجاعاً،أو ظلماً وجوراً من الظلمة،أو اختلافاً بين الناس،أومسخاً في الصور والأشكال كما فعل ببني إسرائيل،أو ضعفاً في القلوب،ووهناً في النفوس كما هو حال الأمة الإسلامية.[(٢)]

---

(١) في ظلال القرآن ،سيد قطب– (٤ / ٢٥٧).

(٢) انظر:أسباب هلاك الأمم وسنة الله في المنحرفين والمجرمين،عبدالله التليدي،ص٤٣.

المبحث الثالث

جرائم الأمم المكذبة وعقوباتها

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول:جرائم الأمم في حق الله تعالى .

المطلب الثاني:جرائم الأمم في حق الكتب والشرائع السماوية.

المطلب الثالث :جرائم الأمم في حق الأنبياء والمصلحين .

المطلب الرابع:جرائم الأمم في حق الناس.

المبحث الثالث

جرائم الأمم المكذبة وعقوباتها

إن الله تعالى قد خلق البشر واستخلفهم في الأرض،تكريماً لهم ،حيث سخر لهم الأرض، كنوزَها وبحارَها وكل ما فيها، ولم يتركهم المولى سبحانه هملاً، ولم يكلهم إلى أنفسهم يتخبطون في ظلمات الريب؛ بل أرسل إليهم رسلاً يأخذون بأيديهم إلى الصراط المستقيم ؛كي لا يكون لهم حجة يوم القيامة على كفرهم وضلالهم، تعالى مبيناً حكمته من إرسال الرسل: **﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾** [النساء : ١٦٥]

فليس للخَلْق حجة بعد إرسال الله تعالى الرسل تترى ، لبيان أمور الدين ، وطرق الجنة والنار فمن كفر منهم بعد ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه.

وقد تعددت وظائف الرسل ومهامهم في دعوتهم لأقوامهم ، لكن تبقى الوظيفة الأولى، والمهمة الرئيسة، تتمحور حول قضية واحدة هي الدعوة إلى عبادة الله وحده حيث قال تعالى:**﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾** [الأنبياء : ٢٥]

و نجد دعوات الرسل تتعدى قضية الدعوة إلى التوحيد إلى قضايا أخرى تمس أمن الناس الاجتماعي،والأخلاقي،وتسعى إلى بناء مجتمع عفيف طاهر في عقيدته، وأخلاقه، وسلوكه. فالإسلام الذي شرعه الله ديناً لكل الناس لم يدع جانباً من جوانب الحياة إلا وتعهده بالتشريع والتوجيه، فهو- بطبيعته -شامل لكل نواحي الحياة، مادية وروحية، فردية وجماعية،والحقيقة أن تعاليم الإسلام وأحكامه في العقيدة والشريعة والأخلاق والعبادات والمعاملات، لا تؤتي أكلها إلا إذا أخذت متكاملة، فإن بعضها لازم لبعض، وهي أشبه بوصفة طبية كاملة مكوَّنة من غذاء متكامل، ودواء متنوع، وامتناع من بعض الأشياء، وممارسة لبعض التمرينات فلكي تحقق هذه الوصفة هدفها، لا بد من تنفيذها جميعا، فإنَّ تَرْك جزء منها قد يؤثر في النتيجة كلها.

فواضح أن أنبياء الله جميعاً قد أدوا الأمانة وبلغوا الرسالة، وأوصلوا الهدى إلى أقوامهم ساطعاً جلياً،بعد أن أيدهم الله بمعجزات،ليستيقن كل قوم برسالة رسولهم ،ولكن تأبى الفطر العوجاء ،والنفوس المريضة أن تستقيم على الفطرة والدين الحق،وتأبى العقول إلى العناد والاستكبار،وتجاهر وتفاخر في تحد عجيب غريب بالكفر بآيات الله كما قال تعالى: **﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا**

إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم : ٩] وحينئذ تتحقق سنة من سنن الله تعالى في هؤلاء المكذبين الضالين الذين استحقوا العقاب ووقعوا في أسبابه،وهي سنة الإهلاك والتتبير.

وفيما يلي سنقف وقفة عامة مع جرائم الأمم المختلفة التي كانت سبباً في إيقاع سنة العقاب عليهم ،وعلى كل أمة تسير على نفس الدرب الخاطئ،وإن كنا سنقف مع هذه الأسباب في سياق الحديث عن كل عقوبة من عقوبات الأمم،لكن الهدف من هذه الوقفة هو جمع الأسباب العامة المؤدية إلى إنزال العقوبات.

المطلب الأول:جرائم الأمم في حق الله تعالى:

إن أعظم جريمة يمكن أن تقترفها أمة تلك التي تكون في حق الله سبحانه وتعالى،وأعظم جريمة في حقه تعالى هي الشرك والكفر به سبحانه تصديقاً لقوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾**[النساء : ٤٨]

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا أَخِرَةُ الرَّحْلِ فَقَالَ:(يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ): قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ :(يَا مُعَاذُ) قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ:(يَا مُعَاذُ): قُلْتُ:لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ قَالَ:(هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ) :قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ:(حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: (يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ) قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ فَقَالَ :(هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوهُ) قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ:(حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ)[١]

وبين العلماء حقيقة الشرك حيث قالوا "حقيقة الشرك أن يُعبَد المخلوق كما يعبَد الله، أو يعظَّم كما يعظَّم الله، أو يصرَف له نوع من خصائص الربوبية والإلهية"[٢] وقال الدهلوي: "إن الشرك لا يتوقّف على أن يعدِل الإنسان أحداً بالله، ويساوي بينهما بلا فرق، بل إن حقيقة الشرك أن يأتي الإنسان بخلال وأعمال – خصها الله تعالى بذاته العلية، وجعلها شعاراً للعبودية – لأحد من الناس، كالسجود لأحد، والذبح باسمه، والنذر له، والاستعانة به في الشدة، والاعتقاد أنه ناظر في كل مكان، وإثبات التصرف له، كل ذلك يثبت به الشرك ويصبح به الإنسان مشركاً"[٣]

وقد بين القرآن الكريم في قصصه أن هذه الجريمة العظمى قد وقعت بها الأمم المكذبة،وإن تعددت المعبودات،واختلفت في أسمائها وأشكالها، فذكر القرآن شرك قوم نوح

---

[١] صحيح البخاري، كتاب(اللباس)، باب٩٩ (إرداف الرجل خلف الرجل)– (٥ / ٢٢٢٤) ،ح(٥٦٢٢).

[٢] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ،عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، ص٢٧٩.

[٣] رسالة التوحيد ،ص٣٦.

قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ**﴾ [المؤمنون : ٢٣ ، ٢٤]

وعن الشرك الذي وقع فيه قوم عاد ذكر القرآن قولهم: ﴿**قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ [الأعراف : ٧٠]

وعن عبادة بني إسرائيل للعجل قال تعالى:﴿**وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ**﴾ [الأعراف : ١٤٨]

فهذه صورة متأخرة من صور شرك الأمم،وهي شرك بني إسرائيل باتخاذهم عجلاً لا ينفع ولا يضر عبدوه من دون الله حيث "ينكر تعالى عليهم في ضلالهم بالعجل، وذُهُولهم عن خالق السماوات والأرض وربّ كل شيء ومليكه، أن عبدوا معه عجلا جسدًا له خُوَار لا يكلمهم، ولا يرشدهم إلى خير ،ولكن غَطَّى على أعيُن بصائرهم عَمَى الجهل والضلال"[1]

فالشرك إذن انقلاب للأوضاع السليمة،إنه يجعل الحق باطلاً،والباطل حقاً،والخالق مخلوقاً،والمخلوق خالقاً،وعلى هذا لا يقوم المجتمع على أسس متينة متماسكة،بل يقوم على مستلزمات ومقتضيات الشرك من الجشع، والطمع ،وسفك الدماء، والعدوان، والخيانة،وهذا كله ظلم لا يرضى الله تعالى به،ولا يقبله في عباده، فيسلط الله تعالى سيف انتقامه وبطشه،ويبسط سوط عذابه وجبروته على المشركين الظالمين،فيهلكهم قال تعالى : ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون**﴾[الروم : ٤١]،وقال تعالى في سورة نوح مبيناً أن الشرك هو سبب الإهلاك والإغراق لقوم نوح : ﴿**وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا * مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا**﴾ [نوح : ٢٣ – ٢٥]

﴿**مما خطيئاتهم**﴾ أي بسبب خطيئاتهم وهي الشرك بالله والظلم للناس والتكذيب والأذى لنوح عليه السلام أغرقوا بالطوفان فلم يبق منهم أحداً.

و يبقى لكل زمن معبوداته وأصنامه وآلهته الخاصة ، ويأتي زماننا هذا، زمان الاستعمار الفكري ومعه طاغوت الرأسمالية، والعولمة،والنظام العالمي الجديد،وصندوق النقد الدولي، وهي آلهة آخر الزمان وهذه المرة مصوغة في صياغات عقلانية تناسب عصر الحداثة وزمان الكمبيوتر، ولكنها نفس القوالب،التي تهدف في نهاية المطاف إلى استعباد الناس لغير ربهم ،وتوجيههم لغير دينهم،وشغلهم في ملذات الدنيا،ليصبحوا عبيداً للشهوة والمال

[1] تفسير القرآن العظيم، لابن كثير – (٣ / ٤٧٦) .

،وهذه معبودات العصر الحديث، زد عليها أصناماً من نوع آخر تتمثل في الزعامات الفكرية المنحرفة عن الجادة والتي تدعوا إلى الانحلال، والانسلاخ عن الدين،وأقصد الزعامات العلمانية التي تهدف إلى الانزواء بالدين عن كل ما له صلة بسياسة الناس وإصلاحهم،صداً عن سبيل الله وحرباً على الإسلام وأهله وهذا شأن هذه الأصنام الفكرية الجديدة كما قال سيد قطب رحمه الله: "وهكذا تلك القيادات الضالة المضللة تقيم أصناماً ، تختلف أسماؤها وأشكالها ، وفق النعرة السائدة في كل جاهلية؛ وتجمع حواليها الأتباع ، وتهيج في قلوبهم الحمية لهذه الأصنام ، كي توجههم من هذا الخطام إلى حيث تشاء ، وتبقيهم على الضلال الذي يكفل لها الطاعة والانقياد : **﴿ وقد أضلوا كثيراً ﴾** تجمع الناس حول الأصنام . . أصنام الأحجار ، وأصنام الأشخاص ، وأصنام الأفكار . . سواء!! للصد عن دعوة الله ، وتوجيه القلوب بعيداً عن الدعاة ، بالمكر الكبّار ، والكيد والإصرار!"[1]

وسنة الله تعالى ماضية ثابتة،وسوف تجري على كل من أشرك بالله وجعل له نداً من حجر أو بشر أو فكرة أو مبدأ، فسنة العقاب لا تحابي أحداً،ومصير الظالمين الخاطئين الجدد،هو ذات مصير الظالمين الخاطئين القدامى في الدنيا والآخرة جميعاً.

المطلب الثاني:جرائم الأمم في حق الكتب والشرائع السماوية:

إن جرائم الأمم المتعلقة بتحريف الكتب السماوية والشرائع تعتبر من أشد الجرائم الموجبة لإنزال العقوبات الإلهية بالأمم،لما فيها من الافتراء على الله، والتقول عليه،وهذا من عظيم الإجرام والكذب ،حيث لا يوازيه ظلم كما أخبر سبحانه وتعالى في قوله : **﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾**[هود : ١٨]

ولقد تعددت صور جرائم أهل الكتاب بحق كتبهم نذكرها فيما يلي:

١- التفريق بين أوامر الله :

وهو من فعل اليهود ،حيث طبقوا بعض ما أمرهم الله به وأعرضوا عن بعض،وذلك بسبب انجرارهم خلف أهوائهم الضالة،ونستشهد على ذلك بقوله تعالى:

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة : ٨٥]

---

[1] في ظلال القرآن،سيد قطب –(٦ / ٣٧١٦).

يقول الإمام القرطبي "هذه الآية خطاب للمواجهين لا يحتمل رده إلى الأسلاف ،نزلت في بني قينقاع، وقريظة ،والنضير من اليهود وكانت بنو قينقاع أعداء قريظة ،وكانت الأوس حلفاء بني قينقاع، والخزرج حلفاء بني قريظة ،والنضير والأوس والخزرج إخوان ،وقريظة والنضير أيضاً إخوان ،ثم افترقوا فكانوا يقتتلون ،ثم يرتفع الحرب فيفدون أساراهم فعيرهم الله بذلك " [1]

إنه تفريق فاحش بين أوامر الله تعالى،فالآيات توجب أن تصان الأنفس،ولا يعتدى عليها ،وأن يكون ولاؤهم للمؤمنين من أبناء دينهم، وأن يكونوا أذلة لهم وأعزة على الكافرين، وهذه تركوها بالكلية وأعرضوا عنها،أما إذا جاءوهم أسارى قالوا: إخوانكم في الدين، فلابد أن تفادوهم، كيف وهو محرم عليهم قتلهم وإخراجهم أصلاً ولكن هكذا يفعل الهوى بأصحابه والعياذ بالله ، وبهذا يكونون قد آمنوا ببعض الكتاب وهو بذل الفداء لتخليص الأسرى ، وكفروا ببعضه وهو تحريم سفك دماء إخوانهم وإخراجهم من ديارهم.

" والأمور الثلاثة كلها قد فرضت عليهم، ففرض عليهم أن لا يسفك بعضهم دم بعض، ولا يخرج بعضهم بعضاً، وإذا وجدوا أسيراً منهم، وجب عليهم فداؤه، فعملوا بالأخير وتركوا الأولين، فأنكر الله عليهم ذلك "[2]

ولذلك استحق اليهود العقاب في الدنيا قبل الآخرة على هذا التفريق بين أوامر الله،فعاجلهم الله تعالى بالخزي في الدنيا كما أخبرت الآية الكريمة .

ثم اختلف في الخزي الذي أخزاهم الله بما سلف من معصيتهم إياه.

١- قال بعضهم: ذلك هو حكم الله الذي أنزله إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: من أخذ القاتل بمن قتل، والقود به قصاصاً، والانتقام للمظلوم من الظالم.

٢- قال آخرون: بل ذلك، هو أخذ الجزية منهم ما أقاموا على دينهم، ذلة لهم وصغاراً.

٣- وقال آخرون: بل ذلك الخزي الذي جوزوا به في الدنيا: إخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم النضير من ديارهم لأول الحشر، وقتل مقاتلة قريظة وسبي ذراريهم، فكان ذلك خزيا في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب عظيم."[3]

وعلى كلٍ فقد وقع كل ما سبق من العقاب الدنيوي عليهم ،ومن المفارقة أن هذا العقاب الدنيوي كان مخصوصاً بسبب محدد ذكرته الآية الكريمة وهو التفريق بين أوامر الله،لتظهر الآية وتبين عظمة هذه الجريمة.

---

[1] الجامع لأحكام القرآن – (٢ / ٢٠).

[2] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان،للسعدي ، ص ٥٨.

[3] جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري – (٢ / ٣١٤).

٢- الكتمان والتعمية عما في كتب الله:

وهي صورة أخرى من صور الجرائم التي ارتكبها أهل الكتاب في حق كتب الله تعالى فأي جريمة أكبر من كتمان ما أنزل الله تعالى،ونقض الميثاق الغليظ المأخوذ عليهم من الله تعالى في تبيين الكتاب للناس وعدم كتمانه: **﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾** [آل عمران : ١٨٧]

لقد كان هؤلاء القوم يكتمون نصوص الكتاب عن الناس عند الحاجة إليها، أو السؤال عنها وكانوا يخفون أحكاماً شرعية واردة في كتبهم كرجم الزاني فعن عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما:" أَنَّ الْيَهُودَ جَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فَذَكَرُوا لَهُ أَنَّ رَجُلاً مِنْهُمْ وَامْرَأَةً زَنَيَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ فَقَالُوا: نَفْضَحُهُمْ وَيُجْلَدُونَ فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلاَمٍ: كَذَبْتُمْ إِنَّ فِيهَا الرَّجْمَ فَأَتَوْا بِالتَّوْرَاةِ فَنَشَرُوهَا، فَوَضَعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ، فَقَرَأَ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا؛ فَقَالَ لَه عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلاَمٍ: ارْفَعْ يَدكَ فَرَفَعَ يَدَهُ، فَإِذَا فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ فَقَالُوا: صَدَقَ يَا مُحَمَّدُ فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فَرُجِمَا قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ: فَرَأَيْتُ الرَّجُلَ يَجْنَأُ عَلَى الْمَرْأَةِ، يَقِيهَا الْحِجَارَةَ "[١]

يدل الحديث على إعراض اليهود عن منهج الله ،ناهيك عن تعمدهم إخفاء البشارة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم التي كانت مثبتة في كتبهم ،كل هذا ليضلوا الناس عن الهدى فلا يؤمنوا ولا يهتدوا،قال تعالى مبيناً جزاءهم وجزاء من يكتم شيئاً من كتاب الله : **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾**[البقرة : ١٥٩]

قال الإمام الألوسي:" "والكتم والكتمان ترك إظهار الشيء قصداً مع مساس الحاجة إليه، وتحقق الداعي إلى إظهاره وذلك قد يكون بمجرد ستره وإخفائه وقد يكون بإزالته ووضع شيء آخر موضعه واليهود قاتلهم الله تعالى ارتكبوا كلا الأمرين"[٢]

وكان جزاؤهم على فعلتهم القبيحة اللعن من الله تعالى أي " يبعدهم ويطردهم عن قربه ورحمته.**﴿ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ ﴾** وهم جميع الخليقة، فتقع عليهم اللعنة من جميع الخليقة، لسعيهم في غش الخلق وفساد أديانهم، وإبعادهم من رحمة الله، فجوزوا من جنس عملهم، كما أن معلم الناس الخير، يصلي الله عليه وملائكته، حتى الحوت في جوف الماء، لسعيه في

---

[١] أخرجه البخاري، كتاب (المناقب)، باب ٢٣ قول الله تعالى:﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ..﴾ -(٣ / ١٣٣٠) ،ح(٣٤٣٦)

[٢] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني- (٢ / ٧٥) .

مصلحة الخلق، وإصلاح أديانهم، وقربهم من رحمة الله، فجوزي من جنس عمله، فالكاتم لما أنزل الله، مضاد لأمر الله، مشاق لله، يبين الله الآيات للناس ويوضحها، وهذا يطمسها فهذا عليه هذا الوعيد الشديد."[1]

وإن كانت الآية قد نزلت في شأن أهل الكتاب ،بسبب كتمانهم للحق الذي بين أيديهم إلا أن وعيدها يتناول كل من كان كاتماً عمداً لعلم ينتفع به لا يجيده غيره،فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما قال جمهور العلماء .

وجاء في الحديث: عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **(من سئل عن علم فكتمه جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار)**[2]

٣- التحريف والتغيير والتبديل:

وهي من جرائم أهل الكتاب في حق الكتب السماوية،حيث حرفوا كثيراً من نصوص الكتب وغيروا فيها وبدلوا قال تعالى عن اليهود﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ...** ﴾ [المائدة : ١٣]

"ابتلوا بالتغيير والتبديل، فيجعلون للكلم الذي أراد الله معنى غير ما أراده الله ولا رسوله." [3]

والتحريف : إمالة الشيء عن موضعه ، مأخوذ من الحرف ، وهو الطرف والجانب ، وتحريف الكلم عن مواضعه يصدق بتحريف الألفاظ بالتقديم والتأخير والحذف والزيادة والنقصان ، وبتحريف المعاني بحمل الألفاظ على غير ما وضعت له ، والتحقيق الذي عليه العلماء الذين عرفوا تاريخ القوم واطلعوا على كتبهم هو أن التحريف اللفظي والمعنوي كلاهما واقع في تلك الكتب ، ما له من دافع ، وأنها كتب غير متواترة ، فالتوراة التي كتبها موسى عليه السلام ، وأخذ العهد والميثاق على بني إسرائيل بحفظها ، قد فقدت قطعاً ، باتفاق مؤرخي اليهود والنصارى ، ولم يكن عندهم نسخة سواها ، ولم يكن أحد يحفظها عن ظهر قلب ، كما حفظ المسلمون القرآن كله في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ،ومن المشهور عندهم أنها فقدت عند سبي البابليين لهم ، فأين التواتر الذي يشترط فيه نقل الجم الغفير الذين يؤمن تواطؤهم على التبديل والتغيير في كل طبقة من الطبقات ، بحيث لا ينقطع الإسناد في

---

[1] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان،للسعدي ،ص٧٧.

[2] رواه أبو داود ، كتاب(العلم)، باب ٩ (كراهية منع العلم) – (٣ / ٣٦٠) ،ح (٣٦٦٠)،قال الألباني :حسن صحيح.

[3] رواه أبو داود ، كتاب(العلم)، باب ٩ (كراهية منع العلم) – (٣ / ٣٦٠) ،ح (٣٦٦٠)،قال الألباني :حسن صحيح.

طبقة ما ؟ والمرجع عند محققي المؤرخين منهم أن هذه التوراة الموجودة كتبت بعد موسى ببضعة قرون[1]

٤- ترك الحكم بما أنزل الله تعالى:

حذر القرآن الكريم من تعطيل الحكم بما أنزل الله تعالى وشدَّد في تقريع من يترك الحكم بما أنزل الله،حيث وصفهم تارة بالكفر وتارة بالظلم وتارة بالفسق قال تعالى﴿ **وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ [المائدة : ٤٤] وقال:﴿ **وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ [المائدة : ٤٥] وقال:﴿ **وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾[المائدة : ٤٧]

"فالحكم بغير ما أنزل الله من أعمال أهل الكفر،وقد يكون كفراً ينقل عن الملة،وذلك إذا اعتقد حله وجوازه،وقد يكون كبيرة من كبائرالذنوب،ومن أعمال الكفر،وقد استحق من فعله العذاب"[1]

"وكل من رغب عن الحكم بما أنزل الله من أحكام الحق والعدل ، فلم يحكم بها لمخالفتها لهواه أو لمنفعته الدنيوية ، فأولئك هم الكافرون بهذه الآيات؛ لأن الإيمان الصحيح يستلزم الإذعان ، والإذعان يستلزم العمل وينافي الاستقباح والترك "[2]

المطلب الثالث:جرائم الأمم في حق الأنبياء والمصلحين:

تعددت جرائم الأمم السابقة بحق الأنبياء والمصلحين ما بين تكذيب وعناد،وإيذاء وقتل وتهديد،واتهام لهم بما هم منه براء،وسوف نقف فيما يلي مع كل جريمة من جرائمهم كما صورها القرآن الكريم:

١- التكذيب والعناد:

وهذه الجريمة تمثل سمة بارزة من سمات المشركين أظهرها القرآن الكريم،وهي اتهام الأنبياء بالكذب والافتراء،وهي طريقة كثير من الأقوام التي أرسل إليها الرسل ،حيث كانوا يقابلون أنبيائهم الناصحين المشفقين بالتكذيب والإعراض قال تعالى مسلياً نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بعدما كذبه كفار قريش : ﴿**فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ**﴾ [آل عمران : ١٨٤]

إنه منطق عجيب أن يتهم النبي بالكذب ،وهو الذي كان في قومه قبل بعثته معروفاً بالصدق والرشاد ،كما اعترف بهذه الحقيقة بعض الأقوام، كقوم ثمود حيث أثنوا على نبيهم صالح قبل بعثته،قال تعالى عنهم: ﴿**قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ**﴾ [هود : ٦٢]

---

[1] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان،للسعدي – (١ / ٢٣٢).

[2] تفسير المنار،محمد رشيد رضا – (٦ / ٣٣٠).

"أي قد كنت موضع رجائنا لمهمات أمورنا ، لما لك من المكانة في بيتك ،وفي صفاتك الشخصية من العقل والرأي ، قبل هذا الذي تدعونا إليه من تبديل ديننا بما تزعم من بطلانه فانقطع رجاؤنا منك"[١]

فالقوم يقرون برشاد أنبيائهم،ورجاحة عقولهم،وسداد آرائهم وأقوالهم،لكن حين يتعلق الأمر بدعوة التوحيد وما تتضمنه من معارضة أهوائهم،وانكسار نفوسهم للخالق،يأتي التكذيب والعناد،رغم ما عاينوه من المعجزات الباهرات المصدقة لدعوة الرسل.

٢- القتل والإيذاء:

إن اليهود هم الأمة التي اشتهرت بقتل الأنبياء والمصلحين،حيث ذكر القرآن اقترافهم لهذه الجريمة العظيمة التي تمثل قمة التكذيب والرفض لدعوة الأنبياء،والتي استحقوا عليها العقاب المتمثل بضرب الذل والمسكنة عليهم ،قال تعالى: **﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾** [آل عمران : ١١٢]

أنزل الله تعالى الهوان والصغار على اليهود وجعله أمرًا لازمًا لا يفارقهم، فهم أذلاء محتقرون أينما وُجِدوا، إلا بعهد من الله وعهد من الناس، يأمنون به على أنفسهم وأموالهم، ورجعوا بغضب من الله مستحقين له، وضُربت عليهم الذلَّة والمسكنة، فلا ترى اليهود إلا وعليهم الخوف والهلع من أهل الإيمان؛ بسبب كفرهم بالله، وتجاوزهم حدوده، وقَتْلهم الأنبياء ظلمًا واعتداء، وما جرَّأهم على هذا إلا ارتكابهم للمعاصي، وتجاوزهم حدود الله.

"وهم قوم أذلة إلى الأبد، ورثوا ذل النفس وضعف القلب، وهم دائمو الفقر والحاجة، لا يشبعون من مال، ولا قوة لهم وإن كانوا أغنياء، إلا بمدد مؤقت من الله ومدد من الناس، وسبب اتصافهم بهذه الصفات أنهم يكفرون بآيات الله، ويقتلون الأنبياء معتقدين أنهم على غير حق فيما يفعلون، وما جرّأهم على ذلك إلا فعل المعاصي والعدوان على قيم الآخرين وحقوقهم"[٢]

وقد نقل القرآن عن أقوام غير بني إسرائيل تهديدهم لأنبيائهم بالقتل أو الرجم أو الإخراج من الديار ،كما ذكر الله تعالى عن فرعون أنه هدد موسى عليه الصلاة والسلام بالقتل : **﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾** [غافر : ٢٦]

وقوم نوح عليه الصلاة والسلام هددوه بالرجم: **﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾** [الشعراء : ١١٦] ،وأهل القرية الذين ورد ذكرهم في سورة

---

[١] تفسير المنار ،محمد رشيد رضا- (١٢ / ١٠٢) .

[٢] التفسير الوسيط ،وهبة بن مصطفى الزحيلي - (١ / ٢٢٧) .

(يس) هددوا أنبيائهم الثلاثة بالرجم والتعذيب: ﴿**قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾[يس : ١٨]

ولم يسلم المصلحون من الدعاة من القتل كذلك ، فالذي يتجرأ على أنبياء الله تعالى، لا يتورع عن قتل من معه من المصلحين ،قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ**﴾ [آل عمران : ٢١ ، ٢٢]

وقال كذلك في ذات السورة: ﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ**﴾ [آل عمران : ١٤٦]

وفي قراءة متواترة ﴿**وكأين من نبي قُتِل معه**﴾[١]

وأخرج الطبري بسنده عن أبي عبيدة بن الجراح، رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، أي الناس أشد عذابا يوم القيامة؟ قال: "رَجلٌ قَتَلَ نَبيا أوْ مَنْ أمر بِالمَعْرُوفِ ونَهَى عَنِ المُنْكَر". ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ إلى قوله: ﴿ **وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ** ﴾ الآية، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**يا أبَا عُبَيدَةَ، قَتَلَتْ بَنُو إسْرَائِيلَ ثَلاثَةً وأرْبَعين نَبياً، من أوَّلِ النّهَارِ في ساعةٍ وَاحِدَةٍ، فَقَامَ مِائَة وسَبْعُونَ رَجُلاً مِنْ بَني إسْرائيلَ، فأمَرُوا مَنْ قَتَلَهُم بالْمَعْرُوفِ ونَهَوْهُمْ عَنِ المنكرِ، فقتلوا جَمِيعًا مِنْ آخِرِ النَّهارِ مِنْ ذَلكَ اليَوْمِ، فَهُم الذِينَ ذَكَرَ اللهُ، عَزَّ وَجَلَّ**).[٢]

"وبنو إسرائيل لا يكذبون الرسل،ويقتلونهم إلا لأنهم جاءوا بما يخالف هواهم،ويتعارض مع أنانيتهم،وشرهم،ومطامعهم الباطلة،وهكذا الأمم عندما تفسد عقولها؛وتسيطر عليها الأطماع والشهوات،ترى الحسن قبيحاً،وتحارب من يهديها إلى الرشاد،حتى لكأنه عدو لها"[٣]

ومما سبق يتضح أن طرائق المجرمين في إيذاء الرسل والمصلحين واحدة،فإنهم لا يقابلون الحجة بالحجة ؛بل يقابلونها بالقتل والتهديد والإيذاء،وهي عادة الصادين عن سبيل الله في كل زمان ومكان،فهم في زماننا هذا ما زالوا يستخدمون ذات الطرائق والأساليب في إيذاء حملة الدعوة الإسلامية الذين يحقون الحق ويبطلون الباطل،ويرفعون راية الجهاد،يستهدفونهم بالقتل والاغتيال تارة،وبالإبعاد والنفي تارة،وبالسجن والحبس تارة أخرى،لكن الله تعالى وعد جنده بالنصر ،وأعلمهم بأن العاقبة لهم قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾ [الأنبياء : ١٠٥]

---

[١] البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة،عبد الفتاح القاضي ، ص٨٧.

[٢] جامع البيان في تأويل القرآن – (٦ / ٢٨٦).

[٣] المنهج القرآني في مجادلة أهل الكتاب،سيد سلام،ص٥٥٩.

٣- الإخراج من الديار:

أخبـر القـرآن عـن أقـوام هـددوا أنبيـائهم بـالنفي والإخـراج مـن الـديار،قال تعـالى: **﴿وَقَـالَ الَّـذِينَ كَفَـرُوا لِرُسُـلِهِمْ لَنُخْـرِجَنَّكُمْ مِـنْ أَرْضِـنَا أَوْ لَتَعُـودُنَّ فِـي مِلَّتِنَـا فَـأَوْحَى إِلَـيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾** [إبراهيم : ١٣]

وقوم لوط عليه الصلاة والسلام هددوا نبيهم بالإخراج من قريتهم،كما قال تعالى: **﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾** [النمل : ٥٦]

وكفار قريش لم يكونوا أحسن حالاً ممن سبقهم،فقد هددوا النبي صلى الله عليه وسلم بالطرد من مكة كما أخبر سبحانه: **﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾** [الإسراء : ٧٦]

وقد جاء في سبب نزول الآية عدة روايات منها:

١- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : حسدت اليهود مقام النبي صلى الله عليه و سلم بالمدينة فقالوا : إن الأنبياء إنما بعثوا بالشأم، فإن كنت نبياً فالحق بها فإنك إن خرجت إليها صدقناك ،وآمنا بك، فوقع ذلك في قلبه لما يحب من إسلامهم فرحل من المدينة على مرحلة فأنزل الله هذه الآية.

٢- وقال عبد الرحمن بن غنم[١] : غزا رسول الله صلى الله عليه و سلم غزوة تبوك لا يريد إلا الشام، فلما نزل تبوك نزل : **﴿﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ ﴾** بعدما ختمت السورة وأمر بالرجوع .

٣- وقيـل : إنهـا مكيـة قـال مجاهـد[٢] وقتـادة[٣] : نزلـت فـي هـمِّ أهـل مكـة بإخراجـه، ولـو أخرجـوه لمـا أمهلـوا، ولكـن الله أمـره بـالهجرة فخـرج ،وهـذا أصـح لأن السورة مكية ولأن ما قبلها خبر عن أهل مكة ولم يجر لليهود ذكر[٤]

---

(١) كان مسلماً على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم ،ولم يره ولم يفد إليه ، ولزم معاذ بن جبل منذ بعثه رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى اليمن إلى أن مات في خلافة عمر ،ويعرف بصاحب معاذ لملازمته .انظر: الإصابة في تمييز الصحابة،لابن حجر العسقلاني- (٤ / ٣٥٠).

(٢) مجاهد بن جبر أبو الحجاج ،قرأ على ابن عباس وصحب ابن عمر مدة كثيرة وأخذ عنه ،وحدث عنه قتادة والأعمش وغيرهم قال قتادة :أعلم من بقي بالتفسير مجاهد، توفي سنة ثلاث ومائة .انظر:طبقات المفسرين ،الأدنروي – (١ / ١١).

(٣) قتادة بن دعامة السدوسي الأعمى الحافظ أبو الخطاب ،أخذ القرآن ومعانيه ،وروى عن أنس بن مالك وعن غيرهم توفي سنة سبع عشرة ومائة.انظر:طبقات المفسرين ،الأدنروي – (١ / ١٤).

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي -(١٠ / ٣٠١)،جامع البيان في تأويل القرآن،المشهور بجامع البيان في تأويل القرآن ،محمد بن جرير الطبري-(١٧ / ٥١٠) .

ولما وقع المكر من كفار قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم، واشتدوا في أذاه ،وأذى أصحابه ،وأخرجوهم من مكة، لم يلبثوا بعده إلا قليلاً حتى أوقع الله بهم بـ " بدر " وقتل صناديدهم، وفض بيضتهم، و هي سنة الله التي لا تحول ولا تبدل في جميع الأمم المكذبة ، كل أمة كذبت رسولها وأخرجته، وآذته، عاجلها الله بالعقوبة.

٤- اتهام الأنبياء بالتهم الزائفة:

وهذه جريمة أخرى من سلسلة جرائم الأمم المكذبة بحق أنبيائهم،فالمعاندون عادة ليس لديهم حجة ولا برهان، لإثبات دعواهم،فإن الباطل أقل من أن تثبت له حجة،أو ترفع له راية،لذلك يلجأ المبطلون إلى اتهام أنبيائهم بما هم منه براء من السحر، أو الجنون، أو غير ذلك من التهم الزائفة التي لا تستند إلى برهان،ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره القرآن في قصة موسى عليه الصلاة والسلام حين طلب فرعون من ملئه أن يأتوا له بأمهر السحرة ؛كي يباروا موسى ويغلبوه،فلما وقعت المباراة ،وغُلب السحرة ،وانخذل فرعون وانهزم أمام قومه جميعاً،وتيقن السحرة بمعجزة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام وخروا سجداً وآمنوا،تغير فرعون،والتهب غيظاً وأفلس من حججه ،فاتهم خبرائه السحرة وهم أعرف الناس بالسحر، بالتآمر مع موسى على هدم ملكه،واتهم موسى بأنه كبيرهم،اتهاماً لا يستند على دليل إذ السحرة المعروفون بخبرتهم لم يقولوا به،وصور القرآن مشهد إيمان السحرة ورد فرعون على ذلك، قال تعالى: **﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾** [الشعراء : ٤٦ – ٤٩]

ولقد أوضح القرآن أن هذه عادة استمرت في الأمم المكذبة لا تنفك عنهم،وكأنهم في زمن واحد وقد اتفقوا على هذه التهم، إلى أن وصل الزمان إلى كفار قريش وقاموا باتهام النبي صلى الله عليه وسلم بالسحر والجنون قال تعالى: **﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾** [الذاريات : ٥٢ ، ٥٣]

"ذكر أن قومه ليسوا بدعاً فى الأمم ، فكما كذبت قريش نبيها فعلت الأمم التي كذبت رسلها ، فأحل اللّه بهم نقمته كقوم نوح، وعاد، وثمود ، ثم عجّب من حالهم وقال : أتواصى بعضهم مع بعض بذلك ؟ ثم قال : لا بل هم قوم طغاة متعدّون حدود اللّه"[١]

وهذا الاتهام في واقع الأمر متناقض،يوحي بأن القوم إنما أرادوا الاتهام والتكذيب فقط ،فإن السحر يحتاج إلى تعلم ودراسة ،وممارسته تحتاج إلى عقل وفكر ،كي يمارس الساحر سحره ،وهذا لا يكون من إنسان مجنون لا عقل له ولا فكر، وبهذا نجد أن العناد والكفر يودي بصاحبه إلى عدم التعقل فيما يقول،وعدم الوعي لما

[١] تفسير المراغى – (٢٧ / ١٢).

يصدر منه، وصدق الله حين قال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف : ١٧٩]

المطلب الرابع:جرائم الأمم في حق الناس:

إن جرائم المكذبين في حق الناس نتيجة طبيعية للشرك بالله ،والتخلي عن منهجه ،لأن غير المسلم لا يكون مضبوطاً بمنهج يردعه عن ظلم الناس،وليس مقيداً بشرع يسير عليه،فهو يتخبط دون وازع من ضمير ،يقوده هواه إلى ظلم الناس وسفك دمائهم، وأكل أموالهم ،فهو عبد لمصالحه وذاته وشهواته.

وقد نقل القرآن الكريم جملة من جرائم الأمم المكذبة في حق الناس نستعرضها فيما يلي:

١- **الصد عن سبيل الله** :ومنع الناس من إجابة دعوة الرسل،وهو ديدن رؤساء الكفر وزعماء الضلال، ومن حولهم من الملأ بأوصافهم الاستعلائية وأخلاقهم الدونية التي أوضحها القرآن ،فهؤلاء موجودون في كل زمان ومكان،نجدهم يقفون ليصدوا عن سبيل الله تعالى،ويقفوا في وجه دعوة الرسل والمصلحين يدفعهم حبهم للزعامة والرياسة،واستعلاءهم على الناس وخوفهم أن تسلبهم هذه الدعوة المباركة مجدهم وزعامتهم ومكانتهم.

وقد نبه المفسرون إلى أن الملأ والأشراف يبقون معارضين وممالئين للدعوة الإصلاحية على الدوام، جاء في تفسير ابن كثير بصدد قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأعراف : ٦٠] "وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾[المطففين:٣٢] "[١] وقال أيضاً في

مكان آخر من تفسيره: "ثم الواقع غالباً أن من يتبع الحق ضعفاء الناس، والغالب على الإشراف والكبراء مخالفته كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾[الزخرف: ٢٣]."[٢]

٢- **البطش والإجرام** : والعدوان على الغير بغير وجه حق،وهذه سمة المستكبرين في الأرض ،المتعالين على الناس،كحال قوم عاد الذين بلغوا مبلغاً عظيماً من الكبر والغرور بالقوة ،فكان من نتيجة استعلائهم هذا ،أنهم كانوا يبطشون ويعتدون على الناس بغير حق،وهذا ناتج عن انسلاخهم عن ضابط الإيمان،قال تعالى عنهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء : ١٢٨ - ١٣١]

---

[١] تفسير القرآن العظيم - (٣ / ٤٣٢).

[٢] المصدر السابق - (٤ / ٣١٦).

"وكان الله تعالى قد أعطاهم قوة عظيمة، وكان الواجب عليهم أن يستعينوا بقوتهم على طاعة الله، ولكنهم فخروا، واستكبروا، وقالوا: ﴿**مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً**﴾ [فصلت : ١٥] ،واستعملوا قوتهم في معاصي الله، وفي العبث والسفه، فلذلك نهاهم نبيهم عن ذلك." [١]

٣- وهناك جرائم أخرى من نوع آخر ارتكبتها بعض الأمم المكذبة،وكانت سبباً في إهلاكهم ألا وهي الجرائم الاقتصادية والمالية ذكر منها القرآن أكل الربا كما كان حال طائفة من اليهود، وكذلك تطفيف الميزان وبخس الناس أشياءهم وأيضاً أخذ أموال الناس بغير حق كحال كثير من علماء أهل الكتاب حيث كانوا يأخذون الرشوة ليفتوا الناس بغير ما أنزل اللّه.

---

[١] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان،للسعدي،ص٥٩٥.

الفصل الثاني

عقوبات الأمم الإنذارية

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول:أنواع العقوبات الإلهية للأمم.

المبحث الثاني:عقوبات الإنذار الحسية(لليهود).

المبحث الثالث:عقوبات الإنذار الحسية لفرعون وقومه.

المبحث الرابع: نقص الموارد الغذائية والتشتت في البلاد.

المبحث الخامس: عقوبات الإنذار المعنوية.

المبحث الأول

أنواع العقوبات الإلهية للأمم

المطلب الأول:العقوبات الإنذارية:

أولاً:تعريف الإنذار:

قال ابن فارس:" النون والذال والراء كلمةٌ تدل على تخويف أو تخوُّف، منه الإنذار: الإبلاغ؛ ولا يكاد يكون إلاَّ في التَّخويف، وتناذَرُوا: خَوَّفَ بعضُهم بعضاً، ومنه النَّذْر، وهو أنّه يَخافُ إذا أخلَفَ والنّذِير: المُنْذِر، والجمع النُّذُر... "[1]

الإنذار إذن حسب التعريف اللغوي هو وسيلة من وسائل التخويف من خطر قادم،أو خطب داهم،فالسحاب نذير المطر،والدخان نذير النار،والشيب نذير قرب الأجل،وهكذا جرت سنة الله تعالى في خلقه أن يجعل لكل خطر محتمل أو خطب آتٍ،من ينذر به ويخوف منه قبل قدومه.

وأخطر شيء على أي أمة أن تجانب كتاب ربها،أو تشرك به ما لم ينزل به سلطاناً،لأن هذا سبب لهلاكها في الدنيا والآخرة،ومدعاة لحلول غضب الله عليها،لذلك أرسل الله تعالى الرسل وجعلهم مبشرين ومنذرين كما أخبر المولى سبحانه: **﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾** [الأنعام : ٤٨]

أرسل الله الرسل ليبشروا من يؤمن بالخير والثواب ، ويحذروا من يكفر ويشرك من العذاب ، فمن آمن بدعوتهم وعمل صالحاً ، فلا خوف عليهم من شر يصيبهم ، ولا يحزنون على خير يفوتهم

وهذا ما يسمى عند العلماء بأسلوب الترغيب والترهيب ،ترغيب بثواب الله،وترهيب وتحذير من عذابه وبطشه،وكل الأنبياء أنذروا قومهم من عذاب الله تعالى،بل سمَّى الله أنبياءه نذراً كما قال سبحانه: **﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴾**[القمر : ٢٣] ،وقال : **﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴾**[القمر : ٤١]

ثانياً:أقسام الإنذار:

وينقسم الإنذار الذي جاء على لسان الرسل إلى قسمين:

أ.الإنذارٌ البياني:

وهذا الإنذار يصل إلى الأقوام عن طريق الرسل والأنبياء،بحيث يحذر النبي قومه من بطش الله وانتقامه،وعظيم عذابه،ويبين لهم أن الاستمرار على العناد والكفر مدعاة لنزول

---

[1] معجم مقاييس اللغة – (٥ / ٣٣١).

عذاب الله وانتقامه، كما قال تعالى في شأن هود عليه السلام حين أنذر قومه:**﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾** [الأحقاف : ٢١]

والمعنى:" أي واذكر أيها الرسول لقومك المكذبين ما جئتهم به من الحق – هوداً أخا عاد ، فقد كذبه قومه بالأحقاف حين أنذرهم بأس اللّه، وشديد عذابه ، وقد مضت رسل من قبله ومن بعده منذرة أممها ألا تشركوا مع اللّه شيئا فى عبادتكم إياه ، بل أخلصوا له العبادة ، وأفردوا له الألوهية ، وقد كانوا أهل أوثان يعبدونها من دون اللّه ، فقال لهم ناصحاً : إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم الهول "(١)

والله تعالى أمر نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأن ينذر الناس في آيات كثيرة من القرآن، كقوله تعالى :**﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ ﴾** [يونس : ٢] ،وأنذرهم من عذاب شبيه بعذاب من قبلهم من الأمم كما قال تعالى: **﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾** [فصلت : ١٣]

ب.الإنذار بالعقوبة:

وهي مرحلة متقدمة أشد حزماً،وأكثر صرامة في التعامل مع الأمم التي تتمادى في التكذيب،ولا تصدع لأنبيائها،بل تكذب وتعرض،وتستمر في محاربة دعوة النبي،فإن بعض النفوس لا يجدي معها الكلام ،ولا ينفع معها النصح،بل تحتاج إلى وخز وتنبيه قاسٍ؛كي تستيقظ من غفلتها وتصحو من سكرتها،وتعلم أن لها إلهاً يأخذ بالذنب،ومن هؤلاء اليهود الذين أعرضوا عن دعوة نبيهم موسى عليه الصلاة والسلام،ولم ينتفعوا بنصحه المتكرر لهم؛لذلك استحقوا بعض العقوبات الانذارية، مثل عقوبة الصاعقة التي أخذت بعضهم ثم بعثهم الله بعدها،وعقوبة قتل بعضهم بعضاً تكفيراً عن عبادة العجل وغير ذلك من العقوبات

والعقوبات الإنذارية تختلف عن عقوبات الاستئصال في الهدف ،فإن العقاب الاستئصالي هدفه إهلاك الأمة المكذبة وإفنائها وذلك بعد انعدام خيريتها،واستبعاد إيمان أحد منها،بسبق علم الله تعالى لذلك، كما أخبر الله تعالى في قصة نوح عليه الصلاة والسلام:

﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [هود : ٣٦ ، ٣٧]

---

(١) تفسير المراغى – (٢٦ / ٣٢)

فهذه الآية تمثل كما قال الألوسي رحمه الله :"إقناط له عليه السلام من إيمانهم وإعلام بأنه لم يبق فيهم من يتوقع إيمانه" [1] لذلك انصب عذاب الله تعالى على قوم نوح،فكانوا مغرقين "أي محكوم عليهم بالاغراق؛ وقد جرى به القضاء وجف القلم فلا سبيل إلى كفه ، والظاهر أن المراد من الموصول[الذين] من لم يؤمن من قومه مطلقاً "[2]

أما العقوبة الإنذارية فإنها تنبيه للأمة الغافلة،التي فيها بقية من خير وصلاح،كي ترجع إلى الصراط المستقيم،وتسلك الدرب القويم،وقد وجد الباحث أن أكثر هذه العقوبات الإنذارية في القرآن الكريم قد وقعت على بني إسرائيل،وسبب ذلك:أن بني إسرائيل هم أكثر الأقوام الذين عاندوا الرسل، ،وتجاوزوا حدود الله تعالى،لجهلهم وحمقهم،واتباعهم لخطوات الشيطان،ورغم ذلك كان فيهم مؤمنون وأناس صالحون مصلحون.

ومن خلال الاستقراء والتأمل في هذا النوع من العقوبات وجد الباحث أنها تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول:عقوبات إنذارية حسية:

وهي "العقوبات المادية الملموسة التي تدرك بالحواس،ويدركها القوم وتلامس واقعهم."

القسم الثاني:عقوبات إنذارية معنوية:

وهي على العكس من العقوبات الحسية،فلا تدرك بالحواس ويغيب إدراكها على كثير من الناس لخفائها ،وكونها غير مادية .

المطلب الأول:العقوبات الاستئصالية:

أولاً: تعريف الاستئصال :

أ.الاستئصال لغة:

من مادة "أصل" ،والأصل هو أسفل كل شيء، يقال : "قعد في أصل الجبل ،وأصل الحائط ، وقلع أصل الشجر ، ثم كثر حتى قيل : أصل كل شيء : ما يستند وجود ذلك الشيء إليه ، فالأب أصل للولد ، والنهر أصل للجدول" .[3]

فإذا أضيف للفعل الألف والسين والتاء،اتجه المعنى إلى الإهلاك والقطع، يقال:" استأصل بني فلان إذا لم يدع لهم أصلاً، واستأصله أي قلعه من أصله، وفي حديث الأضحية أنه نهى عن المستأصلة هي التي أخذ قرنها من أصله، وقيل هو من الأصيلة بمعنى الهلاك ،واستأصل القوم قطع أصلهم ،وأصل الشيء قتله"(٤)

والأصيل كأمير : الهلاك والموت ،كالأصيلة فيهما قال قيل :

---

[1] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني – (١٢ / ٤٨)

[2] المرجع السابق – (٨ / ٢٣٠)

[3] تاج العروس،للزبيدي – (٢٧ / ٤٤٧).

[4] لسان العرب ، لابن منظور – (١١ / ١٦)، المصباح المنير ،للفيومي – (١ / ١٦).

خافوا الأصيلة واعتلت ملوكهم ...وحملوا من أذى غرم بأثقال[1]

فمعنى الاستئصال في لغة العرب يدور حول معاني الإهلاك، والقتل، والقطع،وهذا المعنى ينسجم مع تعبير العلماء عن عقوبات الإهلاك العام التي حلت بالأمم السابقة،حيث عبروا عنها في تفاسيرهم بمصطلح الاستئصال ،وهو مصطلح دقيق جداً وُفق العلماء إلى اختياره،حيث يعبر عن قوة العقاب الذي وقع ببعض الأمم كعاد وثمود وغيرهم من الأمم التي أبيدت وأُفنيت ،ولم يبق لها وجود إلا في بطون الكتب وذاكرة الناس،أو بض آثارهم هنا وهناك،ولعل هذا المصطلح قد درج في كتب التفسير بعدما ورد عن بعض الصحابة تفسيرهم لأنواع هلاك بعض الأمم "بالاستئصال" ففي قوله تعالى : **﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾**[الحجر : ٦٦] يروي الإمام الطبري بسنده قال: "قال ابن عباس رضي الله عنهما، قوله:**﴿أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾** يعني: استئصال هلاكهم مصبحين"[2] حيث عبر ابن عباس عن هلاك قوم لوط وفنائهم بالاستئصال.

ب.مفهوم عقاب الاستئصال:

عرف العلماء السابقين مفهوم العقاب على وجه العموم،وقد تعرضت لتعريفاتهم المختلفة في الفصل التمهيدي ورجحت تعريف الإمام الطاهر ابن عاشور وبينت سبب الترجيح ،أما عن مفهوم عقوبات الاستئصال كمصطلح دقيق فلم أقف على تعريفه،وقد اجتهدت في وضع تعريف محدد لهذا النوع من العقوبات،حيث يمكن تعريفه بأنه:

(العقوبة الحاسمة التي تقضي على من نزلت بهم بحيث لا تبقي أحداً منهم ولا تذر)

ونلاحظ من خلال التعريف السابق أنه يقصر هذا النوع من العقاب على الأمم التي وقع عليها الهلاك العام الذي يحل بالمكذبين من الأمة دون استثناء،،لأن الله تعالى أراده عذاباً شاملاً عاماً ،يقضي على الأمة التي كذبت بعثة رسولها،وهذا المصطلح رغم استعمال المفسرين له إلا أنه ليس مصطلحاً قرآنياً،فلم يرد في القرآن لفظ الاستئصال،وإنما عبر القرآن عنه بألفاظ مختلفة، في سياق الحديث عن عقوبات الأمم المكذبة،ويحسن هنا أن نقف على هذه التعبيرات القرآنية لعذاب الاستئصال :

١- وصفه بالعذاب الأليم: كما قال تعالى عن نوح عليه الصلاة والسلام في وعظه لقومه: **﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾** [هود : ٢٦] حيث وصف الله تعالى اليوم الذي وقع فيه استئصال قوم نوح بالطوفان بـ"العذاب الأليم" على أحد قولي المفسرين في معنى الآية السابقة قال الإمام الشوكاني :" واليوم الأليم : هو يوم القيامة أو يوم

---

[1] تاج العروس،للزبيدي – (٢٧ / ٤٤٨).

[2] جامع البيان في تأويل القرآن – (١٧ / ١١٧).

الطوفان "[1] ،وكذلك وصف القرآن عذاب قوم صالح عليه الصلاة والسلام بالعذاب الأليم ،حيث قال تعالى : **﴿..هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾** [الأعراف : ٧٣]

٢- وصفه بالعذاب العظيم : وهذا الوصف أيضاً في عذاب قوم نوح عليه الصلاة والسلام حيث قال تعالى عن نوح : **﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾** [الأعراف : ٥٩] وصفه بالعظيم على أحد قولي العلماء في المراد باليوم العظيم، قال الشوكاني :" أي إن لم تعبدوه فإني أخاف عليكم عذاب يوم القيامة أو عذاب يوم الطوفان" [2]

وعلى هذا يكون ما قاله نوح لقومه في وصف عذاب يوم الاستئصال جامعاً لمعنى الألم كما في آية هود السابقة ،ومعنى العظمة كما في آية الأعراف،وهذا من باب التخويف والتحذير من شدة العذاب في ذلك اليوم.

٣- وصفه بالعذاب الغليظ :وذلك في عقاب قوم هود،قال تعالى مبيناً نجاة هود عليه الصلاة والسلام ومن معه من المؤمنين من ذلك العذاب : **﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾**[هود : ٥٨]

٤- العذاب المحيط : وهو وصف قرآني لعذاب الاستئصال الذي حذر شعيب عليه الصلاة والسلام قومه منه ،قال تعالى : **﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾** [هود : ٨٤]

ونلاحظ من الأوصاف السابقة لطبيعة عقاب الاستئصال،بوصفه بالعظمة والألم والغلظة والإحاطة ،بأنها أوصاف شديدة الوقع والتأثير في النفس،قوية في مدلولها،وقد جاء أغلبها على صيغة المبالغة فتأمل وصف عذاب قوم عاد بأنه "عذاب غليظ"!أي عذاب ضخم شديد مضاعف حَوَّل هؤلاء الطغاة المتجبرين، إلى صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية .

ووصْف العذاب بأنه غليظ ، بهذا التصوير المحسوس ، يتناسب كل التناسب مع جو هذه القصة ، ومع ما عرف عن قوم هود من ضخامة فى الأجسام ، ومن تفاخر بالقوة،وهذا على ما قرره الباحث في خصائص المنهج القرآني في عقاب الأمم من أن العقاب من جنس العمل.

ثانياً:رفع عذاب الاستئصال عن الأمة المحمدية:

ذهب أهل العلم من المفسرين والفقهاء إلى أن عذاب الاستئصال العام الذي حل بالأقوام السابقين لبعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم،قد رفع عن أمته ، وذلك رأفة بهذه الأمة، ورحمة بها ،وكرامة لنبيها،ولكونها الأمة الوارثة لفريضة الدعوة إلى الله،والأمر بالمعروف

---

[1] فتح القدير ، للشوكاني- (٢ / ٤٩٣).

[2] المرجع السابق - (٢ / ٣١٤).

والنهي عن المنكر ،إذ إن النبوات قد ختمت ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم،واستدل أهل العلم بأدلة كثيرة على رفع عذاب الاستئصال عن الأمة الإسلامية وسأذكر ما استطاع الباحث أن يصل إليه من هذه الأدلة :

١- قوله تعالى : **﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾**[الأنعام : ٦٥]

جاء عن جابر رضي الله عنه قال :لما نزلت هذه الآية :**﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أعوذ بوجهك) قال: ﴿ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: (أعوذ بوجهك) ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(هذا أهون أو هذا أيسر)**[١]

ووجه الاستدلال من الآية والحديث،أن العذاب العام لن يقع على أمة الإسلام ،لا من جهة السماء والعلو كالصيحة والحجارة،ولا من جهة السفل كالرجفة والخسف كما حل بالأمم السابقة.

٢- قوله تعالى :**﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾** [هود : ١١٠]

والمراد بالكلمة التي سبقت :تأخير العذاب عن قوم موسى أو عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة،وعدم إهلاكهم بعذاب الاستئصال،وهذا جارٍ إلى قيام الساعة.[٢]

٣- قوله تعالى : **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾** [القصص : ٤٣]

والمعنى أن الله تعالى قضى بحكمته ألا يهلك أمة هلاكاً عاماً بعدما أنزل التوراة على موسى عليه الصلاة والسلام،والشاهد من الآية هو قوله تعالى: **﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى ﴾**،وكان آخر المستأصلين هم فرعون وجنوده،فيدخل في طوق النجاة من عذاب الاستئصال، أمة محمد صلى الله عليه وسلم،فالاستثناء من هذا العذاب ليس محصوراً على أمة موسى في زمانه بل هو ممتد إلى قيام الساعة،ويفسر هذه الآية ويقطع بمقصودها حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :**(ما أهلك الله قوماً ولا قرناً ولا أمة ولا أهل قرية منذ أنزل التوراة على وجه الأرض بعذاب من السماء**

---

[١] صحيح البخاري ،كتاب (التفسير)،باب١٢٥(قل هو القادر على أن يبعث عليكم)- (٦ / ٥٦)،ح (٤٢٦٢)

[٢] انظر: فتح القدير ، للشوكاني – (٢ / ٥٢٩)

غير أهل القرية التي مسخت قردة ألم تر إلى قوله تعالى : ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون﴾"[١]

٤- عن ثوبان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (.. **وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم ،وإن ربي قال يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة ،وأن لا أسلط عليهم عدواً ،من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها أو قال من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضا**)[٢] ، قال ابن تيمية رحمه الله "هذا الدعاء استجيب له في جملة الأمة ولا يلزم من ذلك ثبوته لكل فرد وكلا الأمرين صحيح ؛ فإن ثبوت هذا المطلوب لجملة الأمة حاصل ولولا ذلك لأهلكوا بعذاب الاستئصال كما أهلكت الأمم قبلهم" [٣]

وسوف يتناول الباحث عقوبات الاستئصال في فصل مستقل نفصل فيه هذه العقوبات ، وفي المبحث التالى يفصل الباحث الكلام في العقوبات الحسية التي أنزلها الله تعالى باليهود،وذكرها القرآن الكريم،لتكون عبرة وعظة لأمة الإسلام حتى لا يقعوا في أسبابها ودواعيها.

---

[١] أخرجه الحاكم في المستدرك – (٢ / ٤٠٩) وقال :صحيح.

[٢] صحيح مسلم،كتاب الفتن وأشراط الساعة،باب(هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض) – (٤ / ٢٢١٥)، ح ٥١٤٤

(٣) مجموع الفتاوى – (١٤ / ١٥٠).

المبحث الثاني

عقوبات الإنذار الحسية (لليهود)

وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول:تحريم الأرض المقدسة عليهم وتيههم أربعين سنة:

المطلب الثاني: قتل بعضهم بعضاً.

المطلب الثالث: الصاعقة والرجفة.

المطلب الرابع : العذاب السماوي .

المطلب الخامس:المسخ قردة وخنازير.

المطلب السادس: تسليط جند الله عليهم إلى يوم القيامة.

المطلب السابع: تحريم بعض الطيبات.

المبحث الثاني
عقوبات الإنذار الحسية (لليهود)

توالت العقوبات الإنذارية على اليهود،بسبب توالي صدودهم عن الحق،وقسوة قلوبهم،وعدم انتفاعهم بالمواعظ والعظات ،والتنكر لنعم الله تعالى،فاليهود لم يكونوا من ذلك النوع من البشر الذين يقابلون الإحسان بالإحسان،والحسنة بمثلها،بل كانوا على العكس تماماً من ذلك،فهم نمط غريب شاذ من البشر،قد انتكست فطرتهم،وخربت عقولهم،لا يؤمنون إلا بالمحسوس المادي المشاهد،يقف الإنسان مذهولاً أمام تصرفاتهم الجنونية،ولنقف مع مشهد من مشاهد عنادهم وصلفهم، فبعد أن أنجاهم الله تعالى من فرعون وجنوده ،وجاوز بهم البحر ،وأطبقه على عدوهم،ونصرهم نصراً مؤزراً ،لم يطلبوا من موسى أن يعلمهم كيف يشكروا الله تعالى على هذه النجاة وذلك النصر ،بل طلبوا منه طلباً عجيباً،طلبوا منه أن يجعل لهم إلهاً يعبدونه من دون الله...!! ويا له من طلب مقيت ،قال تعالى مخبراً عن ذلك :**﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾** [الأعراف : ١٣٨ - ١٤٠]

إنها مفارقة عجيبة،يطلبون من موسى أن يجعل لهم إلها!! وأن يكون هو سادن هذا الإله!! وكأنهم بغير إله!! ثم هم يطلبون هذا الطلب العجيب بعد أن جاوزوا البحر منذ زمن يسير[١] ،ومازال أثر الماء على أقدامهم،يذكرهم بَرْده بالمعجزة الإلهية الخارقة،التي أنجتهم من فرعون وجنوده!! إنه جحود فوق التصور ،وعناد فوق الخيال، إنهم يحسدون الناس على أي شيء يملكونه حتى ولو كان بلاءً وشرَّاً، ورد عليهم موسى عليه الصلاة والسلام وقد تفاجأ من هول طلبهم ذاك**﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** "أي إنكم تجهلون مقام التوحيد ، وما يجب من تخصيص الله بالعبادة بلا واسطة ولا مظهر من المظاهر كالأصنام والتماثيل والعجل .. فالله قد كرم البشر وجعلهم أهلا لمعرفته ودعائه ومناجاته بلا واسطة تقربه إليهم فإنه أقرب إليهم من حبل الوريد....إن هؤلاء القوم الذين يعكفون على هذه الأصنام مقضى على ما هم فيه بالتبار بما سيظهر من التوحيد الحق فى

---

[١] ويدلل على ذلك العطف بحرف الفاء في قوله "فأتوا" وهو يفيد التعقيب مع السرعة.

هذه الديار ، وزائل ما كانوا يعملون من عبادة غير الله ذى الجلال ، فإنما بقاء الباطل فى ترك الحق له وبعده عنه. "[1]

وبعد أن وبخهم موسى بهذا الكلام،وذكرهم بالله تعالى،انصاعوا وأذعنوا،لكن لم تشر الآيات إلى صوت تائب أو مستغفر منهم،أو نادم يصرح بتوبته "مما يدل على أن سكوتهم كان سكوت الجاهل الضال،كمثل الحمار ينقاد،إذا قاده صاحبه،ولو كان كارهاً له،إذ لا ملجأ له إلا هو "[2]

ولقد تكرر هذا الموقف مع الفارق بين الثرى والثريا مع المسلمين على عهد النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى خيبر حيث مر بشجرة للمشركين يقال لها ذات أنواط يعلقون عليها أسلحتهم فقالوا: يا رسول الله أجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال النبي صلى الله عليه و سلم:**(سبحان الله هذا كما قال قوم موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة والذي نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم)**[3] فتلك شيء من بقايا الجاهلية قضى عليها النبي صلى الله عليه وسلم،لم تكرر بعدُ بفضل الله.

وقد آثرت أن أقدم بهذه المقدمة كي نتعرف على طبيعة العقيدة اليهودية المتأرجحة المتشككة بوجود الله تعالى، فضلا عن الثقة بوعد الله وبنصره،وهذا يفسر ما سنراه من جبن شديد ، وعزيمة خوارة ، وضعف شديد وإيثار للذلة مع الراحة على العزة مع الجهاد.

ولنقف في المطالب التالية على مجموعة من العقوبات الإنذارية الحسية التي عاقب الله تعالى بها اليهود مع الوقوف على أسبابها،لعلَّ الله تعالى أن يعصمنا من الوقوع فيها.

المطلب الأول:تحريم الأرض المقدسة عليهم وتيههم أربعين سنة:

يتناول الباحث هنا عقوبة حسية أوقعها الله تعالى على اليهود،وهي عقوبة تحريم الأرض المقدسة عليهم،وعقوبة أخرى مرتبطة بها وهي الحكم عليهم بالتيه .

يذكر المفسرون أن موسى عليه الصلاة والسلام سار بقومه بعد النجاة من فرعون وجنوده نحو الشام ،وتحديداً صوب بيت المقدس،والتي كانت محتلة من قبل المشركين،حيث كان دخولها واستملاكها مستحيلاً إلا بالجهاد والقتال،وكان أولئك المحتلون أولى قوة وبئس شديد في القتال،فاستحث موسى قومه لقتالهم لكي يدخلوا تلك الأرض التي كتبها الله لهم،وحكى لنا القرآن القصة كاملة من دعوة موسى لهم للجهاد وما كان منهم من نكوص وخَوَر وإدبار عن الجهاد في سبيل الله قال تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ**

---

[1] تفسير المراغى – (٩ / ٥٢– ٥٣).

[2] القصص القرآني،حامد أحمد البسيوني–(ص ٣٢٠)

[3] سنن الترمذي ،كتاب الفتن – باب (ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم) –(٤ / ٤٧٥) ح رقم (٢١٨٠) ،قال الألباني : صحيح

اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ * يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ *قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ *قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ* قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ *قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة : ٢٠ – ٢٦]

هذا التفصيل لقصة إباء بني إسرائيل دخول الأرض المقدسة،وتمردهم على نبيهم وصاحب الفضل عليهم ،هو عبارة عن تبيين للنبي صلى الله عليه وسلم ،وللمسلمين جميعاً إلى قيام الساعة بطبيعة النفسية اليهودية المعاندة للأنبياء،الموغلة في دركات الاستكبار على أوامر الله يقول الطبري رحمه الله "وهذا أيضا من الله تعريفٌ لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم قديمَ تمادي هؤلاء اليهود في الغيّ، وبعدِهم عن الحق، وسوء اختيارهم لأنفسهم، وشدة خلافهم لأنبيائهم، وبطء إنابتهم إلى الرشاد، مع كثرة نعم الله عندهم، وتتابع أياديه وآلائه عليهم،مسلِّيًا بذلك نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم عما يحلّ به من علاجهم، وينزل به من مقاساتهم في ذات الله، يقول الله له صلى الله عليه وسلم: لا تأسَ على ما أصابك منهم، فإن الذهابَ عن الله، والبعد من الحق، وما فيه لهم الحظ في الدنيا والآخرة، من عاداتهم وعادات أسلافهم وأوائلهم، وتعزَّ بما لاقى منهم أخوك موسى صلى الله عليه وسلم"[1]

أسباب هذه العقوبة الإلهية:

وأريد أن أركز في هذه القصة على قضية العقوبة الإلهية،المتمثلة في تحريم الأرض المقدسة عليهم ،والحكم عليهم بالتيه،ونبدأ بذكر الأسباب التي أدت لهذه العقوبة،وذلك ليعتبر المسلمون في هذا الزمان بمصير القوم،ولا يقعوا بما وقعوا فيه من أسباب هذه العقوبة،وليتعرفوا على النفسية اليهودية الخوَّارة الجبانة،التي تنهار إذا ما دعيت لقتال أو حرب ،فمن الحكمة الاعتبار بمصير من سبق،والتفكر بعاقبة من مضى،ولنقف مع الأسباب الموضوعية لهذه العقوبة:

السبب الأول:التخلف عن الجهاد في سبيل الله:

أمر موسى عليه الصلاة والسلام بني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة،واعداً إياهم بالنصر المؤكد على أعدائهم الجبارين،ومحذراً إياهم من عاقبة الخسران الذي ينتظرهم إذا

---

[1] جامع البيان في تأويل القرآن – (١٠ / ١٥٩)

جَبُنوا وولوُا الأدبار قال تعالى مبيناً أمر موسى لقومه بالجهاد : ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾

ومن الملاحظ أن موسى لم يطلب منهم القتال والجهاد بلفظ "قاتلوا" أو "جاهدوا" بل أمرهم بدخول الأرض المقدسة ،وهذا يفيد بأن الله تعالى سوف ييسر لهم فتحها ،ويسهل عليهم دخولها،إذا همَّوا بذلك، كما بشرهم موسى بأنها الأرض قد كتبها الله لهم،وهذا فيه تحريض شديد لهم على الاستجابة لأمره ، وإغراء لهم بالنصر والظفر ، لأن الذي كتب لهم أن يدخلوها إذا آمنوا وأطاعوا هو الله الذي لا مانع لحكمه ،ولا راد لقضائه، ومعنى كتابة الأرض لهم أن الله قدر لهم سكناها ، ووعدهم إياها متى آمنوا وأطاعوا أنبياءهم ، أما عن الأرض المقدسة فقد اختلف المفسرون حول المراد بها:

١- عن مجاهد:"الأرض المقدسة" الطور وما حوله.

عن قتادة في قوله:"الأرض المقدسة" قال: هي الشأم.

٢- عن ابن زيد [١] في قوله:"ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم" قال: أريحا.

٣- وقيل: إن"الأرض المقدسة" دمشق وفلسطين وبعض الأرْدُنّ.

ورجح الطبري عدم تحديد مكان بعينه، فقال:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: هي الأرض المقدّسة، كما قال نبي الله موسى صلى الله عليه وسلم، لأن القول في ذلك بأنها أرض دون أرض، لا تُدرك حقيقةُ صحته إلا بالخبر، ولا خبر بذلك يجوز قطع الشهادة به، غير أنها لن تخرج من أن تكون من الأرض التي ما بين الفرات وعريش مصر، لإجماع جميع أهل التأويل والسِّير والعلماء بالأخبار على ذلك."[٢]

ورجح الإمام ابن عاشور أنها أرض فلسطين حيث قال :"وهذه الأرض هي أرض فلسطين ، وهي الواقعة بين البحر الأبيض المتوسّط وبين نهر الأردن والبحر الميت فتنتهي إلى (حماة) شمالاً وإلى (غَزّة وحبرون) جنوباً "[٣]

وعلى كل حال ،فإن المتأمل في مشهد تقاعس بني إسرائيل عن القتال ،يقف موقف المستغرب المستعجب من هؤلاء القوم ،كيف لهم أن يتخلفوا عن أمر الله تعالى بدخول تلك الأرض التي وصفها الله تعالى بأنها مقدسة مطهرة، وكانت موطناً لكثير من الأنبياء ،منهم إبراهيم، ويعقوب وإسحاق ،ويوسف ،وغيرهم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ،فضلاً عن أن الله تعالى قد وعدهم على لسان موسى وعداً مؤكداً بالنصر، إذا ما تحركوا للقتال،وجاء الوعد

---

[١] هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم المدني، أخذ معاني القرآن، وروى عن والده وابن المنكدر توفي سنة اثنتين ومائة توفي سنة اثنتين ومائة. طبقات المفسرين، الأدنروي - (١ / ١١).

[٢] جامع البيان في تأويل القرآن - (١٠ /١٦٧ -١٦٨).

[٣] التحرير والتنوير - (٦ / ١٦٢).

كذلك على لسان الرجلين الذين أنعم الله عليهما، حينما قالا متيقنين بوعد الله **﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾** وهذا فيه "مبالغة في الوعد بالنصر والظفر ، كأنه قال : متى دخلتم باب بلدهم انهزموا ولا يبقى منهم نافخ نار، ولا ساكن دار ، فلا تخافوهم."[1] لكنَّ هؤلاء قد ضعف يقينهم،ووهنت عقيدتهم و "انزوى إيمانهم في قلوبهم،وضاعت شجاعتهم ورجولتهم وسط جبنهم وذلتهم،وبرز الجبن والذل والخوف والهلع ورفض أية محاولة لتشجيعهم وبث الحماسة في نفوسهم" [2]

إنهم فهموا الإيمان بموسى تجارة يجنون من ورائها المنافع،فإذا لم يكن هناك منفعة فلا إيمان ولا تصديق ولا خروج للجهاد لذلك ردوا بكل وقاحة وجرأة: **﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾**

"هكذا كان ردهم على تلك الدعوة الكريمة المترفقة ، المحمّلة بالخير والأمن .. إنهم . وذلك دأبهم أبدا. يأخذون دون أن يعطوا ، ويجنون ما لم يزرعوا .. يأكلون ثمرة الزارعين ، ويسرقون جهد العاملين، فلا يريدون أن يدخلوا الأرض المقدسة إلا أن يخليها لهم أصحابها ، ويهتفوا بهم : أن أقبلوا .. ولو وقع هذا لوقع فى أنفسهم أن يطلبوا إلى موسى أن يهيىء لهم مراكب سماوية تقلهم إلى حيث هم ذاهبون!! إنها طبائع أطفال ، وتعلّات صبيان ، وأمانىّ جبناء."[3]

السبب الثاني:التنكر لنعم الله

إن تخلف بني إسرائيل عن دخول الأرض المقدسة هو تنكر لنعم الله الكثيرة عليهم،ولقد ذكَّرهم موسى عليه الصلاة والسلام ببعض هذه النعم،في ثنايا أمره لهم ؛لكي يؤدوا شكر الله عليها : **﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾**

وفي الآية تذكير بثلاث نعم أسبغها الله عليهم :

النعمة الأولى : هي كثرة الأنبياء المبعوثين **﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ ﴾** ومعنى كثرة الأنبياء مستفاد من تنكير لفظ (أَنْبِيَآءَ) فهو يفيد التكثير أي :" تذكروا يا بني إسرائيل نعم الله عليكم ، وأحسنوا شكرها ، حيث جعل فيكم أنبياء كثيرين يهدونكم إلى الرشد كموسى وهارون ، واسحق ، ويعقوب ، ويوسف ، – عليهم الصلاة و السلام – . وقد أرسل الله – تعالى – هؤلاء الأنبياء وغيرهم في بني إسرائيل، لكي يخرجوهم من ظلمات الكفر والفسوق والعصيان ، إلى نور الهداية والطاعة والإيمان"[4].

---

[1] مفاتيح الغيب، للرازى – (١ / ١٦٤٠).

[2] الشخصية اليهودية من خلال القرآن،صلاح الخالدي–ص ٢٦٧.

[3] التفسير القرآني للقرآن ،عبد الكريم الخطيب – (٣ / ١٠٦٩) .

[4] التفسير الوسيط،لسيد طنطاوي– (٣ / ١٣).

قال الزمخشري : " لم يبعث الله في أمة ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء "[1].

النعمة الثانية : ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾[2] أي : "جعلكم أحراراً تملكون أمر أنفسكم بعد أن كنتم مملوكين لفرعون وقومه ، الذين كانوا يسومونكم سوء العذاب أي : جعلكم تملكون المساكن وتستعملون الخدم ، بعد أن كنتم لا تملكون شيئاً من ذلك وأنتم تحت سيطرة فرعون وقومه ."[3]وقيل في معناها "جعل لكم أزواجاً، وخدماً، وبيوتاً، وبنين ،ويقال من استغنى عن غيره فهو ملك"[4]

وأما النعمة الثالثة :"فهي أن الله تعالى آتاهم من ألوان الإكرام والمنن ،ما لم يؤت أحدا من عالمي زمانهم ، فقد فلق لهم البحر، فساروا في طريق يابس حتى نجوا وغرق عدوهم ، وأنزل عليهم المن والسلوى ليأكلوا من الطيبات ، وفجر لهم من الحجر اثنتي عشرة عينا حتى يعلم كل أناس مشربهم ، إلى غير ذلك من ألوان النعم التي حباهم الله – تعالى – بها ، والتي كانت تستلزم منهم المبادرة إلى امتثال أوامره ، واجتناب نواهيه"[5] .

السبب الثالث:سوء الأدب مع الله تعالى

ظهر سوء أدبهم مع الله تعالى بعدما تكرر عليهم الطلب بدخول الأرض المقدسة، من الرجلين الذين أنعم الله عليهما بالتقوى والطاعة: **﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾** لكن تكرار الطلب والإلحاح فيه، أمر يزعج نفوسهم المريضة،ويخرج رواسب الجاهلية من قلوبهم، كوخز الإبر كلما اشتد ضاقت النفس،وصدر منها ما ليس متوقعاً،فكان ردهم وقحاً أيما وقاحة: **﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾**

إنها كلمات تتزلزل لهولها الجبال،وتنشق لها الأرض،تعبر عن مدى بُعد القوم عن فهم معاني الإيمان،واحترام مقام الألوهية،وكم هم موغلون في وحل الكفر والإلحاد.

---

[1] الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل – (١ / ٦٥٣).

[2] (وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً) عطف على (جعل فيكم) وغير الأسلوب فيه لأنه لكثرة الملوك فيهم أو منهم صاروا كلهم كأنهم ملوك لسلوكهم مسلكهم في السعة والترفه ، فلذا تجوز في إسناد الملك إلى الجميع بخلاف النبوة= = فإنها وإن كثرت لا يسلك أحد مسلك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأنها أمر إلهي يخص الله تعالى به من يشاء ، فلذا لم يتجوز في إسنادها .انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي – (٦ / ١٠٥).

[3] التفسير الوسيط،لسيد طنطاوي– (٣ / ٥٠).

[4] بحر العلوم، للسمرقندي– (١ / ٤٠٥).

[5] المرجع السابق نفس الصفحة.

" ﴿ **فاذهب أنت وربك** ﴾ ! . . فليس بربهم إذا كانت ربوبيته ستكلفهم القتال! ﴿ **إنا ها هنا قاعدون** . . ﴾لا نريد ملكاً ، ولا نريد عزاً ، ولا نريد أرض الميعاد . . ودونها لقاء الجبارين! هذه هي نهاية المطاف بموسى عليه السلام ، نهاية الجهد الجهيد ، والسفر الطويل ، واحتمال الرذالات ،والانحرافات، والالتواءات من بني إسرائيل! نعم ها هي ذي نهاية المطاف . . نكوصاً عن الأرض المقدسة ، وهو معهم على أبوابها ،ونكولاً عن ميثاق الله وهو مرتبط معهم بالميثاق . . فماذا يصنع؟ وبمن يستجير؟"[1]

إنها وقاحة ما بعدها وقاحة،وكأنهم يخاطبون بشراً مثلهم،إنهم لم يقدروا عظمة الله الذي تفضل عليهم "فيا لله،ما أوقحهم،وما أرذلهم،كأنه ربه وليس بربهم،وكأن الرسالة له لا لهم،لقد أسفروا عن وجههم القبيح دون موارية أو محاولة لتجميل هذه الصورة القبيحة،كأنهم يعلنون تخليهم عن التوحيد والعبودية لله إذا كلفهم ذلك ولو مجرد دخول باب بهم الغلبة إن عبروه،فاختاروا القعود وصرحوا به"[2]

لكن الصورة المشرقة لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يوم بدر على خلاف هذه الصورة المظلمة الكنود لبني إسرائيل،ففي يوم بدر قال ابن مسعود رضي الله عنه : (لقد شهدت عن المقداد مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلي مما أعدل به،أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يدعو على المشركين فقال : يا رسول الله إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ **فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون** ﴾، ولكن امض ونحن معك ، فكأنه سري عن رسول الله صلى الله عليه و سلم)[3]

فشتان بين الثرى والثريا،وبين من يسطر بدمه معاني الجهاد والتضحية،وبين من يسطر بعناده سطور الكفر تقطر عفناً وقبحاً.

حلول العقوبة الإلهية ببني إسرائيل

لأجل الأسباب السابقة الدالة على طغيان اليهود،وتماديهم في الضلال والسفه،بتخلفهم عن دخول الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم،وتنكرهم لآلاء الله ونعمه الكثيرة عليهم،فضلاً عن سوء أدبهم مع الخالق جل جلاله،قضى الله تعالى عليهم العقاب،وذلك بعد أن أُسقط في يد موسى عليه الصلاة والسلام ،وهو يرى قعود قومه عن طاعة ربهم،فتألم لذلك ألماً شديداً،بثه في صورة دعوات دعاها على قومه القاعدين،حيث دعا ربه أن يفصل ويقضي بينه وبينهم قال تعالى: ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ**﴾[المائدة : ٢٥]

---

[1] في ظلال القرآن ،سيد قطب- (٢ / ٣٤٥).

[2] القصص القرآني،حامد البسيوني-(ص٣٢٢).

[3] صحيح البخاري، كتاب (التفسير)، باب ١٠٨ (تفسير سورة المائدة) ،ح(٤٣٣٣) - (٤ / ١٦٨٤).

فكانت الإجابة أن قضى الله عليهم بعقوبتين : **﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾** [المائدة : ٢٦]

أما العقوبة الأولى فهي التيه مدة أربعين عاماً،والثانية حرمانهم من دخول الأرض المقدسة هذه المدة، ونلمح من هاتين العقوبتين أنهما تتناسبان وتتلائمان مع المعصية التي ارتكبوها،وهذه خاصية من خصائص العقوبات الإلهية كما أوضحنا سابقاً[١]، فإنهم لما قعدوا عن دخول الأرض المقدسة مع علمهم أنها كُتِبت لهم، عاقبهم الله تعالى بتحريمها عليهم،لأنهم ليسوا بأهلٍ لها،ولا يستحقون ملكها،ولما قعدوا عن الجهاد عاقبهم الله بما يشبه القعود ،حيث حكم عليهم بالتيه في أرض سيناء أربعين عاماً كاملة،يذهبون فيها ويجيئون حيارى لا يعرفون لهم وجهة،ولا يهتدون سبيلاً، عن مجاهد قال:" وحكمة ابتلائهم بالتيه أنهم لما قالوا : إنَّا هاهنا قاعدون عوقبوا بما يشبه القعود"[٢]

رابعاً:العناية الإلهية أثناء العقوبة:

رغم الكبائر التي ارتكبها بنو إسرائيل،والعظائم التي اجترحوها،لم يتخل الله تعالى عنهم،ولم يضيعهم،بل استمر بالإنعام عليهم وهم في التيه،وظهرت الآيات الدالة على قدرته،لكي يتوبوا ويعودوا إليه،قال تعالى ذاكراً النعم التي أنعمها عليهم في فترة التيه:

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ٥٧]

ذكر المفسرون أنهم جاؤوا لموسى وسألوه الطعام فأنزل الله عليهم المن والسلوى،وسألوه الوقاية من حر الشمس ،فظلل عليهم الغمام، وسألوه الماء، فأمر الله موسى بضرب العصا في الحجر فانفجر الماء[٣]

والغمام "جمع غمامة ، سمي بذلك لأنه يَغُمّ السماء، أي: يواريها ويسترها، وهو السحاب الأبيض"[٤]وجاء في وصف هذا النوع الخاص من السحاب آثار تبين أفضلية هذا السحاب على غيره عن ابن عباس قال: "غمام أبرد من هذا وأطيب، وهو الذي يأتي الله فيه في قوله: **﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ ﴾**[البقرة : ٢١٠] وهو الذي جاءت فيه الملائكة يوم بدر، قال ابن عباس: وكان معهم في التيه."[٥]

---

[١] انظر: الفصل التمهيدي ص ١٢

[٢] روح المعاني ، للألوسي – (٦ / ١٠٩).

[٣] انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي – (١ / ٤٠٦).

[٤] التبيان تفسير غريب القرآن، أحمد بن محمد المصري – (١ / ٨٦).

[٥] جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري – (٢ / ٩٠).

فالغمام ليس كأي سحاب بل هو سحاب أبيض يلطف حر الشمس، ويروح عن النفوس،وهو الذي اختاره لنفسه أن يأتي به –كيف شاء–،وهو الذي جاءت به الملائكة في بدر،وهو كذلك صاف رقيق فعن مجاهد قال:" الغمام أبرد من السحاب وأرق وأصفى"[1]

والنعمة الثانية التي أنعمها الله عليهم في التيه هي "المنّ والسلوى" ، طعاماً لا يتكلفون لـه عمـلاً ، فـالمنّ مـادة عسلية تفرزهـا بعض الأشـجار ، والسـلوى طيـور طيبـة الطعـام هـى السّمانى.[2] وعاش هذا الجيل في ظل هذه النعم الإلهية التي لا لم تكلفهم جهداً ولا عناءً. وفي مدة التيه فني ذلك الجيل الذي أُشرب الذل والجبن وترعرع عليه،ومـــات تائهاً في الصـحراء ؛لينشأ جيلٌ آخر جديد،نشأ على الشدة والقوة،وقسوة العيش في ظل الصـحراء المقفرة،التـي أحيت فيـه معـاني الرجولـة ،والهمـة العاليـة والإقدام،حيث تمكن هذا الجيل من فتح الأرض المقدسة بعد ذلك بقيادة يوشع بن نون، قال ابن خلدون في مقدمته "ويظهرمن مساق الآية ومفهومها أن حكمة ذلك التيه مقصودة وهي فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل والقهر والقوة، وتخلقوا به وأفسدوا من عصبيتهم، حتى نشأ في ذلك التيه جيل آخر عزيز لا يعرف الأحكام والقهر، ولا يسام بالمذلة، فنشأت لهم ذلك عصبية أخرى اقتدروا بها علي المطالبة والتغلب، ويظهر لك من ذلك أن الأربعين سنة أقل ما يأتي فيها فناء جيل ونشأة جيل آخر.."[3]

والواجب على الأمة اليوم الاعتبار بهذه الأمثال التي ضربها الله لنا،والعلم بأن القيام بواجب الجهاد في سبيل الله ضد أعداء الإسلام من الصـهاينة والأمريكان وغيرهم،بحاجة إلى جيل قوي في عقيدته ،نقي في فكره،لكن الواقع يحكي أن هذا الجيل من المسلمين–إلا من رحم الله– قد نشأ على نعومة العيش،ورغادة الحياة،ودناءة الهمة،وصبغ فكره بأفكار شرقية وغربية بعيدة عن مفاهيم الإسلام، بسبب الغزو الفكري الذي يهدف إلى نشر الفساد والرذيلة ،وتفريغ المسلمين من كل القيم والأخلاق الإسلامية، حتى ينشأ الجيل على نمط لا يهتم إلا بشهواته وغرائزه ؛لذلك من الواجب على الأمة،على اختلاف مستوياتها،من حاكم ومحكوم أن تواجه هذا السيل الجارف من ثقافة التغريب،بتحصين هذا الجيل الجديد بالعقيدة الراسخة،والفكر الواعي ،لينشأ قوياً في عقيدته،مستقلاً في فكره،عاملاً بأحكام دينه،مبتعداً عن مغريات الدنيا ومتاعها وزخرفها،حاملاً لهمِّ دينه،قادراً على مواجهة عدوه،وهذا يحتاج إلى تكاتف وتعاون من جميع المحاضن التربوية،الأسرة والمسجد والمدرسة والمجتمع.

---

[1] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي – (١ / ١٢٩).

[2] انظر:روح المعاني ، للألوسي – (١٦ / ٢٣٩).

[3] المقدمة – (١ / ٦٩).

خامساً:وقفة مع دعوى الحق الديني لليهود بأرض فلسطين:

طالما ادعى اليهود وعلى رأسهم الحركة الصهيونية بأحقيتهم الدينية بامتلاك أرض فلسطين،وقدموا لإثبات دعواهم حججاً واهية،استمدوها من كتابهم المقدس المحرف،وقد أعلنوا عن زعمهم هذا قديماً،حيث يقول هرتزل زعيم الحركة الصهيونية:"إن هدف الحركة الصهيونية هو تنفيذ النص الوارد في الكتاب المقدس،بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين"[١]

ويقول بن غوريون وهو أحد مؤسسي الدولة الصهيونية "قد لا تكون فلسطين لنا من طريق الحق السياسي أو القانوني،ولكنها حق لنا على أساس ديني،فهي الأرض التي وعدنا الله،وأعطانا إياها من الفرات إلى النيل"[٢]

إلى غير ذلك من الأقوال الكثيرة التي يتشدق بها الصهاينة،ويزعمون فيها بحقهم وحدهم دون غيرهم بفلسطين،وقد رد العلماء والمفكرون على مزاعمهم هذه،بردود كثيرة ،ومن هذه الردود ما جاء في كتابهم المقدس الذي حرفوه ،حيث جاء في سفر التكوين:"فأقام أبرام في أرض كنعان..وقال الرب لأبرام:ارفع طرفك،وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالا وجنوباً وشرقاً وغرباً إن جميع الأرض التي تراها؛لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد ...قم فامش في الأرض طولها وعرضها؛فإني لك أعطيها"[٣] من خلال هذا النص وغيره يظهر أن الوعد أعطي لإبراهيم عليه الصلاة والسلام،ولنسله من بعده،فالزعم الذي يتغنى به اليهود أنهم وحدهم الورثة لهذه الوعود لا يتفق مع مدلول النصوص،بل هو تحريف للنص!!إذ إن نسل إبراهيم عليه الصلاة والسلام يشمل بالضرورة جميع المنحدرين من نسله،فكما أن إبراهيم أب لإسحاق فهو أب لإسماعيل كذلك ،عليهم جميعاً الصلاة والسلام،ولا يفهم من هذا أحقية اليهود بجزء من فلسطين، فحقهم سقط بسبب كفرهم بالإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم[٤]

وحتى هذا الوعد –إن صح–بمنح هذه الأرض لهم،هو وعد ليس مطلق بل وعد مشروط،بأن ينفذوا التعاليم،ويحفظوا العهد،ويصونوا أوامر الرب ونواهيه[٥]،وهذا هو المعقول والملائم للعدالة الإلهية والحكمة الربانية،فإن الله لا يعامل الناس بأنسابهم،بل بأعمالهم[٦]

السؤال هنا هل اليهود الآن، وبوضعهم الديني والأخلاقي أهل لوراثة الأرض المقدسة؟ الجواب لا، لأن اليهود لم يعودوا عباداً لله بل عبيداً للشيطان و تحولوا إلى طريق الضلال والكفر والفجور لا يجادل بذلك إلا مكابر .

---

[١] إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة،أبكار السقاف،ص١٢٦

[٢] عقيدة اليهود في تملك فلسطين،عابد توفيق الهاشمي،ص ٢٩

[٣] سفر التكوين (١٧:١٤).

[٤]انظر:عقيدة اليهود في الوعد بفلسطين،محمد بن علي آل عمر،ص٢١٧

[٥] انظر:سفر التثنية (١٨:٦).

[٦] القدس قضية كل مسلم،يوسف القرضاوي،ص٨٥

ومن المناسب الوقوف على معنى الآية التي مرت معنا سابقاً،وهي قوله تعالى: **﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾**

إذ يجدر التعرف على المعنى الدقيق لهذه الآية،وما هو المراد بكتابة الأرض المقدسة، وإنما أردت الوقوف على معنى هذه الآية لسببين،أما السبب الأول فلأن بعض المفكرين الصهاينة قد استدلوا بهذه الآية في كتبهم عن أحقيتهم بفلسطين،وقالوا إن حقنا بفلسطين قد أكده القرآن في آياته!! والسبب الثاني أنه قد يشكل على بعض الناس الفهم الصحيح لهذه الآية، إذ إن ظاهرها يوحي بأن الله تعالى قد كتب أرض فلسطين لبني إسرائيل دون غيرهم، وحتى نفهم هذه الآية فهماً جيداً ينبغي الوقوف على معنى قوله تعالى :**﴿كتب لكم﴾** فما هو المقصود بالكتابة في الآية..؟ اختلف المفسرون في معناها على قولين:

القول الأول: أي أمركم بدخولها،وفرض ذلك عليكم، فيكون من باب قوله تعالى:**﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾** [البقرة : ١٨٣] أي فرضه عليكم .

وعن السدي في معنى **﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾**:" التي أمركم الله بها"[١] وقال القرطبي " أي فرض دخولها عليكم"[٢] وعلى هذا فإن الكتابة على هذا القول تكليفية،أي أن الله تعالى أمرهم بدخولها على لسان موسى عليه الصلاة والسلام،أمراً تكليفياً،لكنهم وقتها قعدوا عن القتال،واثّاقلوا إلى الأرض،فاستحقوا العقوبة الإلهية بتحريمها عليهم أربعين عاماً يتيهون في الأرض.

القول الثاني:أن معنى **﴿كتب الله لكم﴾** قدرها لكم موطناً ومسكناً،دون الجبارين، كما قال الطبري:" التي أثبت في اللوح المحفوظ أنها لكم مساكن ومنازل دون الجبابرة التي فيها."[٣]

والقضاء لهم بالأرض المقدسة على هذا الرأي ليس مطلقاً،بل هو مشروط بالانقياد لأوامر الله تعالى،وفي مقدمتها الجهاد في سبيله، قال الإمام الرازي :"إن الوعد بقوله**﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾** مشروط بقيد الطاعة،فلما لم يوجد الشرط لا جرم لم يوجد المشروط ."[٤]

فإن الحق في وراثة الأرض المقدسة،وأي أرض غيرها،يرجع إلى التمسك بدين الله تعالى،والثبات عليه،لذلك حينما سكن بنو إسرائيل تلك الأرض في عهد داود وسليمان عليهما السلام،كانوا أحق بها من الوثنيين،لأنهم كانوا قائمين على دينهم،لكن لما تجردوا من الدين بعد ذلك،سُلبت منهم الأرض حتى فتحها الله تعالى للمسلمين في عهد عمر بن الخطاب رضي الله

---

[١] جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري – (١٠ / ١٦٩).
[٢] الجامع لأحكام القرآن – (٦ / ١٢٥).
[٣] جامع البيان في تأويل القرآن– (١٠ / ١٦٩).
[٤] مفاتيح الغيب – (١ / ١٦٣٩).

عنه،وقد بينت آيات عديدة هذه السنة الإلهية في وراثة الأرض حيث يقول تعالى:﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ** ﴾ [الأنبياء : ١٠٥]

وتفيد الآية أن الله تعالى ذكر هذه السنة الإلهية وهي وراثة الصالحين للأرض في سائر الكتب السماوية التي نزلت على الرسل[١]، تنبيهاً للأمم أن الإيمان هو شرط التمكين في الأرض،والاستخلاف فيها،وقد نبه الله تعالى أمة الإسلام إلى هذه السنة كسائر الأمم قال تعالى:﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [النور : ٥٥]

المطلب الثاني: قتل بعضهم بعضاً:

أولاً:سبب العقوبة:

حكم الله تعالى على بني إسرائيل في فترة من الفترات،بحكم قد يبدو في ظاهره شديداً،وهو أن يقتل بعضهم بعضاً،وقد ذكر القرآن الكريم هذا الحكم في قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾ [البقرة : ٥٤]

وقصة العجل الذي اتخذه بنو إسرائيل إلهاً من دون الله كانت بعد ذهاب موسى عليه الصلاة والسلام لميقات ربه، حيث أعطاه الله تعالى التوراة، واستغل السامري غياب موسى عليه الصلاة والسلام عن القوم،فاستخف عقولهم،وصنع لهم عجلاً ،عبدوه من دون الله ﴿ **وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ**﴾ [البقرة : ٥١]

"وهذا التذكير يحمل في طياته التعجيب من حالهم،لأنهم قابلوا نعم الله بأقبح أنواع الكفر والجهالة ، حيث عبدوا في غيبة نبيهم ما هو مثال في الغباوة والبلادة وهو العجل ،وفي اختيار حرف العطف (ثمَّ) المفيد للتراخي الرتبى في جملة(اتخذتم العجل) إشعار بأنهم انحدروا إلى دركات سحيقة من الجحود والجهل ، وأن ما ارتكبوه هو من عظائم الأمور في القبح والمعصية وحذف المفعول الثاني لاتخذتم وهو(إلهاً أو معبوداً) لشناعة ذكره "[٢].

ثانياً:عقوبة عبادة العجل:

وتُبرز الروايات المفسرة للمقتلة التي حدثت فيهم،مدى شدة العقوبة الإلهية التي نزلت بهم،حيث ذكر الإمام الطبري بعض الروايات الموضحة لتلك المقتلة الرهيبة:

---

[١] الزبور :هو الكتاب المزبور، والمراد: الكتب المنزلة، كالتوراة ونحوها وقد رجح هذ الطبري والسعدي. وغيرهما ،انظر :جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري – (١٨ / ٥٤٨)،تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان،للسعدي ،ص٥٣١.

[٢] التفسير الوسيط،لسيد طنطاوي– (١ / ١٦٢).

١- عن ابن عباس قال:أمر موسى قومه -عن أمر ربه- عز وجل - أن يقتلوا أنفسهم ، قال: فاحتبى الذين عكفوا على العجل فجلسوا ، وقام الذين لم يعكفوا على العجل، وأخذوا الخناجر بأيديهم، وأصابتهم ظلمة شديدة ، فجعل يقتل بعضهم بعضاً، فانجلت الظلمة عنهم وقد أجلوا عن سبعين ألف قتيل، كل من قتل منهم كانت له توبة ، وكل من بقي كانت له توبة.

٢- عن مجاهد قال: كان موسى أمر قومه - عن أمر ربه - أن يقتل بعضهم بعضاً بالخناجر، فجعل الرجل يقتل أباه ويقتل ولده ، فتاب الله عليهم.

٣- عن أبي العالية[١]في قوله: **﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم﴾**الآية ، قال: فصاروا صفين، فجعل يقتل بعضهم بعضا، فبلغ القتلى ما شاء الله ، ثم قيل لهم: قد تيب على القاتل والمقتول.[٢]

ثالثاً:الإختلاف في حقيقة القتل:

والآية صريحة في أن القتل وقع على الحقيقة وهذا هو ظاهر النص،لكن بعض مفسري الصوفية ذهب إلى أن القتل هنا مجازي وليس حقيقي ،حيث فسروه بتذليل النفوس بالطاعات وكفها عن الشهوات،وهذا على خلاف الصواب،لأن المعنى المجازي لا يصار إليه إلا بقرينة صارفة،وبالنظر في الآية لا نجد تلكم القرينة ،فيبقى المعنى على حقيقته وقد أكد الإمام القرطبي ما سبق حيث قال ناقلاً عن بعض الصوفية في تفسير هذه الآية :" قال أرباب الخواطر : ذللوها بالطاعات وكفوها عن الشهوات"[٣]وردَّ على هذا الرأي بقوله" والصحيح أنه قتل على الحقيقة "[٤]

وقد يندهش البعض من قسوة العقوبة التي نزلت ببني إسرائيل،ولكن بالتتبع للسياق القرآني الذي وردت فيه تلك العقوبة،نجد أنها وقعت لأسباب متعددة،تدور حول محور واحد وهو الكفر العجيب بالله تعالى، بعبادة العجل من دونه،بعد جملة من النعم التي أنعم الله بها على القوم، وقد أجمل القرآن تلك النعم في قوله تعالى : **﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ .. ﴾**

---

[١] هو رفيع بن مهران البصري أبو العالية الرياحي التابعي ذكره الذهبي في طبقاته كان إماما في القرآن والتفسير والعلم والعمل وأخذ القراءة عرضاً عن أبي وزيد بن ثابت وابن عباس مات سنة تسعين،انظر: طبقات المفسرين، الأدنروي - (١ / ٩). وقد تم جمع مروياته من كتب التفسير مع دراستها وتوثيقها في رسالة دكتوراة للأستاذ الدكتور عبد السلام حمدان اللوح.

[٢] انظر: جميع الروايات في جامع البيان في تأويل القرآن - (٢ / ٧٣- ٧٩).

[٣] الجامع لأحكام القرآن - (١ / ٤٠١).

[٤] المصدر السابق،نفس الصفحة.

وبدأ التفصيل بعد ذلك بذكر عشر نعم أنعم الله بها عليهم نذكر أربعاً منها هنا ،لأن القرآن رتب العقوبة على كفرها ،ونرجئ الباقيات للمباحث التالية،لنرى من خلال استعراض هذه النعم كيف استحق القوم تلك العقوبة الشديدة بعد كفرهم لها:

١- إنزال التوراة الفارقة بين الحق والباطل:

حيث أنزل الله تعالى على نبيه موسى عليه الصلاة والسلام التوراة التي فرقت بين الحق والباطل ،وبين والحلال والحرام ، ليسير بنو إسرائيل وفقها ويعملوا بما فيها،قال تعالى: **﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾** [البقرة : ٥٣]

وهذا تذكير لبني إسرائيل بنعمة التوراة ، وما فيها من الشرائع والأحكام ، لكي يهتدوا بها إلى طريق الفلاح والرشاد في الدنيا ، وإلى الفوز بالسعادة في الآخرة .

والفرقان مأخوذ من الفرق وهو الفصل ، استعير لتمييز الحق من الباطل؛ وقد يطلق لفظ الفرقان على الكتاب السماوي المنزل من عند الله كما في قوله تعالى : **﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ ﴾** [الفرقان : ١] كما يطلق على المعجزة كما في قوله تعالى **﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى وَهَارُونَ الفرقان ﴾** أي المعجزات لأن هارون لم يؤت وحياً ، والمراد بالفرقان هنا التوراة نفسها ويكون المراد بالعطف التفسير .[1]

٢- نعمة التفضيل على الأمم:

حيث إن الله – تعالى – فضل بني إسرائيل على الأمم السابقة لهم ، قال تعالى: **﴿يا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾**[البقرة : ٤٧]

وهنا إشارة لطيفة تضمنتها الآية وهي عطف "التفضيل على العالمين" على قوله: (نِعْمَتِيَ) فهو من عطف الخاص على العام ، ويسمى هذا النوع من العطف بالتجريد كأنه جرد المعطوف من الجملة ، وأفرد بالذكر اعتناءاً به ، والكلام على حذف مضاف أي فضلت آباءكم وهم الذين كانوا قبل التغيير ، أو باعتبار أن نعمة الآباء نعمة عليهم[2]

٣- إنجاؤهم من فرعون:

فإنه كان يذبح الأبناء الذكور، ويترك البنات أحياء، ويذيقهم العذاب الشديد،قال تعالى: **﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾** [البقرة : ٤٩] والمعنى : "اذكروا يا بني إسرائيل وقت أن نجيناكم من آل فرعون الذين كانوا يعذبونكم أشق العذاب وأصعبه ، ويبغونكم ما فيه إذلال لكم واستئصال لأعقابكم ، وامتهان لكرامتكم حيث كانوا يزهقون أرواح ذكوركم ، ويسْتَبْقُون نفوس

---

(١) التفسير الوسيط، لسيد طنطاوي – (١ / ٨٧).

(٢) انظر: روح المعاني ، للألوسي – (١ / ٢٥٠).

نسائكم ، وفي ذلك العذاب ، وفي النجاة منه امتحان لكم بالسراء لتشكروا ، ولتقلعوا عن السيئات التي تؤدي بكم إلى الإذلال في الدنيا ، والعذاب في الأخرى"[١] .

وقد خوطب بهذه النعمة اليهود في عهد النبي صلى الله عليه وسلم مع كون هذا الإنجاء لمن قبلهم ، لأن في نجاة أسلافهم نجاة لهم ،فلو قدر الله استمرار العذاب في الآباء،لأبيدوا وانقطع نسلهم ؛فلذلك كانت نعمة التنجية في الواقع نعمتين، نعمة على السلف لتخليصهم مما كانوا فيه من عذاب، ونعمة على الخلف لتمتعهم بالحياة بسببها ، فكان من الواجب على الجميع أن يقدروا هذه النعمة قدرها ، وأن يخلصوا العبادة لخالقهم الذي أنجاهم من عدوهم.

٤- عبورهم البحر سالمين :

بعد تهيئة طريق يابس سلكوه، ثم إغراق فرعون وجنوده قال تعالى: **﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾** [البقرة : ٥٠] وهي نعمة عظيمة عليهم، فإن الله تعالى لما أغرق فرعون وآله ،تخلصوا من العذاب ، واستقر لهم الأمن والاطمئنان ، وهذه نعمة عظمى؛لأنهم لو نجوا دون هلاك فرعون، لبقي الخوف فيهم على حاله ، فقد يعود لتعذيبهم مستقبلاً ، لأنهم لا يأمنون شره ، فلما تم الغرق تم الأمان والاطمئنان لبني إسرائيل . كذلك فإن شهود تلك المعجزة الباهرة،كان كفيلاً بإزالة الشكوك والشبهات عن قلوبهم،لأن دلالة مثل هذه المعجزة على وجود الصانع الحكيم وعلى صدق موسى ، تقترب من العلم الضروري[٢].

وفي الآية دقة بيانية متناهية في استعمال الحروف المناسبة في مكانها،حيث عبر القرآن بالباء دون اللام في تعدية الفعل"فرقنا" في قوله: فرقنا بكم)، لأن العرب على ما نقله الدامغاني تقول : "غضبت لزيد" إذا غضبت من أجله وهو حي، و"غضبت بزيد" إذا غضبت من أجله وهو ميت ففيه تلويح إلى أن الفرْق كان من أجل أسلاف المخاطبين الذين ماتوا [٣]،وهذا لا يعني عدم تعدي النعمة لتشمل خلفهم كما ذكرت آنفاً.

والحاصل أن الله تعالى قد أغدق على القوم نعماً كثيرة،من تفضيل على الأمم،وإنجاء من جور فرعون وجنده، بل وإهلاك لهم، ومشاهدة المعجزة رأي العين ليستيقنوا ويزدادوا إيماناً" ولكن تأبى طباعهم النكدة أن تعلو إلى مشارف هذا النور ، بل هى رابضة على التراب ، ترعى مع البهائم ، وتهيم فى أودية الضلال .. فيتخذون من العجل إلها معبوداً من دون اللّه! ويتلقّى هؤلاء المناكيد العقاب الطبيعي من اللّه ، فيأمرهم أن يقتلوا أنفسهم ، فتلك نفوس لا حرمة لها ، بعد أن نزلت إلى هذا المستوي الحيواني ، بل ونزلت عن هذا المستوي ، فوضعت

---

[١] التفسير الوسيط،لسيد طنطاوي- (١ / ١٥٣).

[٢] انظر :مفاتيح الغيب،للرازي - (٣ / ٦٧).

[٣] انظر : روح المعاني ، للألوسي - (١ / ٢٥٥).

جباهها تحت أقدام الحيوان ، تعفّر جبينها بالتراب عابدة ساجدة له، ويتسلط القوم بعضهم على بعض ، ويضرب بعضهم رءوس بعض ، كما تتناطح الوعول ، أو كما تتناهش العقارب "[١]

وفي هذه العقوبة عبرة وعظة لمن يتخذ من دون الله أنداداً يعبدها من دون الله،ويقدم محبتها على محبة الله من مال، أو زوجة، أو منصب، أو فكرة،فالتوحيد والعبادة حق خالص لله تعالى،ومن أشرك مع الله تعالى أحداً فقد باء بالخسران في الدنيا والآخرة.

المطلب الثالث:أخذهم بالصاعقة والرجفة:

تواصل الآيات القرآنية في ذكر العقوبات الشديدة التي نزلت ببني إسرائيل، فبعد العقوبة السابقة المتمثلة بقتل بعضهم بعضاً، تتنزل عقوبة ثانية،لكن هذه المرة ليست على العامة من بني إسرائيل وإنما على الخاصة المنتقاة،والصفوة المختارة، التي عاينت المعجزات،وتقلبت في النعم،ورأت المقتلة العظيمة الذي وقعت فيهم، حيث رحمهم اللّه من هذه المحنة ونجاهم من القتل،إلا إنهم لا يزالون فى ريبة مظلمة ، وفى شك مقيت بوجود ربهم ، فيهرولون إلى موسى بطلب عجيب : **﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾** [البقرة : ٥٥]

"وهم بهذا يكشفون عن بلادة حسّهم ، وطفولة مداركهم ، بحيث لا يتعاملون مع الحياة إلا بما يلامس حواسّهم ، ويجبه أبصارهم ، أمّا ما يستشفه الوجدان ، ويتمثله الحدس والخيال فليس لهم حظ منه ، ولا تجاوب معه .. إنهم لم يستطيعوا أن يروا اللّه فى آياته التي تبدو فى ظاهر الموجودات وباطنها ، أو أن يشهدوه فيما يجريه اللّه تعالى على يد موسى عليه السلام ، من معجزات ناطقة بقدرة اللّه ، وبسلطانه المتمكن فى كل ذرة من ذرات الوجود ."[٢] لقد طلبوا أن يروا الله جهرة أي عياناً دون حاجز أو مانع،وجعلوا هذا شرطاً لإيمانهم به، وخاطبوا نبيهم بسوء أدب وتبجح،فلم يقولوا: يارسول الله أو يا نبي الله ،بل قالوا: **﴿ياموسى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾**أي لا نصدقك فيما تقول،ولا نعترف بك نبياً حتى نرى الله جهرة!

والغريب أن هذا الكفر قد صدر وهم في موضع اعتذار وتوبة لله تعالى من عبادة العجل كما قال السُّدِّي: "إن الله أمر موسى أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل، يعتذرون إليه من عبادة العجل، ووعدهم موعداً، فاختار موسى قومه سبعين رجلاً على عينه، ثم ذهب بهم ليعتذروا، فلما أتوا ذلك المكان قالوا: لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة، فإنك قد كلمته، فأرناه، فأخذتهم الصاعقة فماتوا"[٣]

---

[١] التفسير القرآني للقرآن،عبد الكريم الخطيب- (١ / ٨٤).

[٢] المصدر السابق- (١ / ٨٥).

[٣] تفسير القرآن العظيم،لابن كثير - (٣ / ٤٨٠).

إنه كفر فوق الخيال،صدر منهم في موضع تضرع لله تعالى،وحاجة إليه،وهم صفوة القوم وخاصتهم وعلمائهم،فكيف بعامتهم وغوغائهم؟

ولم تمر هذه الحادثة دون عقاب، فقد فاجأتهم الصاعقة بعد وقت قصير من مطالبهم المتعنتة يستفاد ذلك من الفاء التي تفيد التعقيب في قوله **﴿ فَأَخَذَتْكُمُ الصاعقة﴾**.

وأصل الصاعقة في اللغة يدلُّ على "شدة صوت،من ذلك الصعق، وهو الصوت الشديد، يقال حمار صَعِق الصوت، إذا كان شديده، ومنه الصاعقة، وهي الوقع الشديد من الرعد، ويقال إن الصعاق الصوت الشديد، ومنه قولهم: صعق، إذا مات، كأنه أصابته صاعقة،وهي كل أمر هائل رآه المرء ،أوعاينه ،أو أصابه،حتى يصير من هوله،وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب، وإلى ذهاب عقل وغمور فَهْم ، .. والصاعقة أيضا هي كل عذاب مهلك ،والصاعقة أيضا الموت بلغة عمان ، الصعق أصله الغشي من صوت شديد يسمعه ، وربما مات منه ، ثم استعمل في الموت كثيراً [1]

نخرج من المعاني اللغوية السابقة أن الصاعقة تطلق على:

١- الصوت الشديد.

٢- الموت.

٣- كل عذاب مهلك.

٤- كل أمر هائل رآه المرء أو عاينه.

فاللفظة تطلق على عدة معانٍ، ؛لذلك اختلف المفسرون في تفسيرها على أقوال:

١- قالوا :الصاعقة هي نار من السماء أحرقتهم ،عن السدي :الصاعقة نار.

٢- ذهب بعضهم أنها صيحة سماوية خروا لها صعقين ميتين يوماً وليلة، وهو قول قتادة[2]

٣- وقيل:هي جند سماوي سمعوا حسهم فماتوا[3].

ويرى الباحث أنه لا يوجد مانع من الجمع بين هذه الأقوال، فيقال إن الصاعقة التي أصابتهم هي نار محرقة نزلت عليهم من السماء ،وصاحبها صوت شديد صاعق،ماتوا على إثره ،وهذا ما يحدث فعلاً عند نزول الصواعق المحرقة من السماء إلى الأرض، حيث يصاحبها صوت مدوٍ مرتفع والله أعلم.

ودلالة جملة **﴿ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ ﴾** أنها تفيد نزول العقوبة عليهم وهم يشاهدونها، وفي مشاهدتها رعب وخوف أخذ بمجامع قلوبهم ، قبل أن يأخذ العذاب أجسادهم ، وإن أصابتهم

---

[1] روح البيان ،إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي – (١٠٣/٨).

[2] انظر:روح المعاني ، للألوسي – (١ / ٢٦٢) ،وجامع البيان في تأويل القرآن، للطبري – (٢ / ٨٢).

[3] انظر: روح المعاني – (١ / ٢٦٢).

بهذه العقوبة كان في حالة إساءتهم وتمردهم وطمعهم في أن ينالوا ما ليس من حقهم[1].

وقوله تعالى ﴿ **ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ**﴾ هو الدال على النعمة والمنة ،حيث أمهلهم الله مرة أخرى ،ولم يقبضهم على المعصية والضلال ،بل أحياهم وأعطاهم فرصة جديدة للتوبة والاستقامة.

وعبرت سورة الأعراف عن الصاعقة التي أصابتهم بالرجفة على اعتبار الرأي القائل بأن المذكورين في البقرة هم ذاتهم المذكورون في الأعراف– وسيأتي تفصيل الآراء لاحقاً– حيث قال تعالى:﴿ **وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ** ﴾ [الأعراف : ١٥٥]

وهذه الآية تضيف في طبيعة العذاب الذي نزل بالقوم،حيث عبرت عنه بالرجفة، والمقصود بالرجفة الزلزلة.[2] أي الارتعاد والحركة الشديدة.

وفي ضوء الآيتين الكريمتين–آية البقرة وآية الأعراف– نستطيع أن نجمل العقوبة التي نزلت بهم، وهي أن الله تعالى أنزل عليهم عذاباً هالهم وأفزعهم، كان عبارة عن نار محرقة نزلت عليهم من السماء ،صاحبها صوت شديد صاعق،ماتوا على إثره وصاحب ذلك ارتعاد الأرض وزلزلتها من تحت أرجلهم، وهذا مستفاد من قوله: ﴿**أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ**﴾ ،والله أعلم.

وتبقى مسألة قد أثارها المفسرون في هذا السياق،تتعلق بالذين قالوا (لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى نَرَى الله جَهْرَةً هل هم السبعون الذين اختارهم موسى لميقات ربه أم لا؟

١– قيل : إن الذين طلبوا من موسى رؤية الله جهرة ،لم يكونوا السبعين وحدهم بل هم عامة بني إسرائيل بدون حصر العدد ،قال القرطبي:" وقيل : هؤلاء السبعون غير من قالوا أرنا الله جهرة"[3]

واستدلوا ببعض الآثار عن التابعين[4]،وهو رأي ضعيف.

---

[1] انظر: التفسير الوسيط،لسيد طنطاوي– (١ / ١٧٤).

(٢) معاني القرآن، للفراء – (١ / ٣٨٤).

(٣) الجامع لأحكام القرآن – (٧ / ٢٩٥).

(٤) ومن هذه الآثار ما روى عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه قال في تفسير هذه الآية " قال لهم موسى لما رجع من عند ربه بالألواح قد كتب فيها التوراة،فوجدهم يعبدون العجل ،فأمرهم بقتل أنفسهم ، ففعلوا فتاب الله عليهم ، فقال لهم موسى : (إن هذه الألواح فيها كتاب الله فيه أمركم الذي أمركم به ، ونهيكم الذي نهاكم عنه ، فقالوا : ومن يأخذ بقولك أنت؟ لا والله حتى نرى الله جهرة ، حتى يطلع الله علينا فيقول : هذا كتابي فخذوه ، فما له لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى؟! وقرأ قول الله تعالى : ﴿ **لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى نَرَى الله جَهْرَةً** ﴾ ؛ قال : فجاءت غضبة من الله تعالى ، فجاءتهم صاعقة بعد التوبة ، فصعقتهم فماتوا جميعاً =

٢- يرى جمهور المفسرين أنهم السبعون الذين اختارهم موسى لصحبته إلى ميقات ربه ، وقد وردت آثار تؤيد هذا الرأي :

من ذلك ما أخرجه ابن جرير عن بعض التابعين في قوله تعالى : **﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصاعقة ﴾**: هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه ، وقالوا : اطلب لنا ربك لنسمع كلامه ، قال : سمعوا كلاماً ، فقالوا : **﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى نَرَى الله جَهْرَةً ﴾** قال : فسمعوا صوتاً فصعقوا يقول : ماتوا ، فذلك قوله : **﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾**فبعثوا من بعد موتهم ، لأن موتهم ذلك عقوبة لهم ، فبعثوا لبقية آجالهم .[١]

وقال ابن كثير : الذين قالوا لموسى : **﴿ أَرِنَا الله جَهْرَةً ﴾** المراد بهم السبعون المختارون منهم ولم يحك كثير من المفسرين سواه .[٢]

وقد وجدت اختلافاً بين المفسرين في المراد بالموت والبعث في الآية السابقة:

١- ذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد بموتهم الموت على الحقيقة ،والمراد ببعثهم : إحياؤهم من بعد موتهم ، وهو معجزة لموسى – عليه الصلاة السلام – واستجابة لدعائه ،قال الإمام الألوسي رحمه الله مرجحاً هذا الرأي "والموت هنا ظاهر في مفارقة الروح الجسد ، وقيد البعث به لأنه قد يكون عن نوم كما هو في شأن أصحاب الكهف ، وقد يكون بمعنى إرسال الشخص وهو في القرآن كثير "[٣] ذهب لهذا الرأي الطبري[٤]،وابن كثير[٥]،والقرطبي[٦]،والألوسي[٧]،والسمرقندي[٨]

ويرى الباحث أن هذا الرأي هو الراجح لدلالة الآية الكريمة عليه، ومن الناس من قال :" كان هذا الموت غشياناً وهموداً لا موتاً حقيقة "[٩] وهو ضعيف ولا دليل عليه.

٣- ذكر القرطبي رأياً لبعض المفسرين أن المراد بقوله : **﴿ بعثناكم من بعد موتكم ﴾**

= قال : ثم أحياهم الله من بعد موتهم ، وقرأ قوله تعالى : **﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾** جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري – (٢ / ٨٨).

[١] جامع البيان في تأويل القرآن – (٢ / ٨٩).

[٢] تفسير القرآن العظيم – (١ / ٢٦٥).

[٣] روح المعاني – (١ / ٢٦٢).

[٤] جامع البيان في تأويل القرآن – (٢ / ٨٤).

[٥] تفسير القرآن العظيم – (١ / ٢٦٦).

[٦] الجامع لأحكام القرآن – (١ / ٤٠٤).

[٧] روح المعاني – (١ / ٢٦٢).

[٨] بحر العلوم – (١ / ٨١).

[٩] روح المعاني – (١ / ٢٦٢).

٤- علمناكم من بعد جهلكم [١]ورد القرطبي هذا الرأي حيث قال:" قلت : والأول أصح لأن لأن الأصل الحقيقة، وكان موت عقوبة"[٢] فهذا رأي غير معتبر لأنه يصرف اللفظ إلى المجاز ولا قرينة صارفة.

٣- ذهب الشيخ عبد الكريم الخطيب من المحدثين أن الموت الوارد في الآية هو موت حقيقي ، والبعث بعث حقيقي أيضاً ، أي بعث الآخرة!! واستشهد لرأيه بعدة أمور نذكرها ونرد عليها:

أ-العطف بثم ، فى قوله ﴿ **ثم بعثناكم من بعد موتكم** ﴾،ويقول الباحث: إن العطف بـ"ثم" لا يلزم منه أن يكون المراد تأخير البعث إلى اليوم الآخر،بل غاية ما فيه أن الله تعالى أخر البعث والإحياء فترة معينة لحكمة يريدها،وهذا الجزء من الآية يرد على قوله لأن التعبير عن البعث جاء بالفعل الماضي الذي يدل على وقوع الشئ وانتهائه،ولو أراد البعث الأخروي لقال(يبعثكم) لأنه لم يقع بعد.

ب- واستدل بما جاء على لسان موسى فى قوله تعالى: ﴿ **لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ** ﴾ قال :فلو أنهم عادوا إلى الحياة مرة أخرى ، لما كان لموسى أن يسأل ربه ما سأل.

ويُرد على هذا الاحتجاج أن موسى تمنى أن لو سبقت مشيئة الله إهلاكهم قبل خروجهم معه ،وأن يهلكه معهم،حتى لا يقع فى حرج شديد مع بنى إسرائيل ، لأنهم سيقولون : قد ذهبت بخيارنا لإهلاكهم ، ولكن هذه الأمنية التي طلبها موسى من ربه سبحانه وتعالى صدرت منه بعد أن رأى مشهد القوم وهم صرعى، بعد تلك الصاعقة الشديدة بدليل الآية ذاتها ﴿ **فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ** ﴾ أي لما أخذتهم وصعقوا قال هذه المقالة وتمنى الأمنية،ثم أحياهم الله تعالى بعد ذلك بقدرته.

ج- قال إن الذي حمل المفسّرين على القول بإحياء القوم بعد أن أخذتهم الرجفة ، حتى أعيدوا إلى الحياة الدنيا مرة أخرى هو قوله تعالى فى خاتمة الآية : ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ كأنّ استحقاق الشكر لا يكون إلا عن البعث الدنيوي ، وكأن البعث الأخروى ليس بالنعمة المستأهلة للحمد والشكر ، وهذا غير صحيح ، فالحياة على أية حال من الأحوال خير من العدم .

ويرى الباحث:أن هذا الاحتجاج فيه نظر لأن الله تعالى لو لم يبعثهم في تلك اللحظات،وأخر بعثهم إلى يوم القيامة مع باقي الأمم ،لبعثوا على الكفر لأن آخر قولهم كان﴿**لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة**﴾ وهذا عين التكذيب للمرسلين،ولهذا لا يتصور أن يشكروا الله على البعث يوم القيامة وهم كفار والله تعالى يقول عن الكافر: ﴿ **وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا** ﴾ [النبأ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي – (١ / ٤٠٤)

(٢) المرجع السابق،نفس الصفحة.

: ٤٠]،لذلك لزم القول بأن المراد من البعث في الآية هو الإحياء في الدنيا،والشكر المرجو منهم في الدنيا والله أعلم. [١]

المطلب الرابع : إنزال الرجز السماوي عليهم:

قال تعالى:﴿ **وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** ﴾ [البقرة : ٥٨ - ٥٩] وقال في سورة الأعراف:﴿**وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ *فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ**﴾ [الأعراف : ١٦١ ، ١٦٢]

تأتي هذه الآيات الكريمة على نسق الآيات السابقة، حيث ذكَّرت اليهود المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم،بسلوك أجدادهم المنحرفين عن جادة الإيمان إلى الكفر والطغيان،والاستهزاء بأوامر الله،وتحريف ما أمرهم به، وتذكرهم أيضاً بما أصابهم بسبب ذلك من عقوبات إلهية شديدة.

والظاهر أن الأمر الرباني لهم بدخول تلك القرية كان بعد انقضاء عقوبة التيه أربعين عاماً،ونشوء جيل جديد من بني إسرائيل،أكثر شجاعة من آبائه، قال الإمام ابن كثير رحمه الله : " وهذا كان[أي الأمر بدخول القرية] لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون عليه السلام ،وفتحها الله عليهم عشية جمعة ، وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلاً حتى أمكن الفتح[٢] " [٣]

---

[١] انظر :رأيه وأدلته من تفسيره (التفسيرالقرآني للقرآن) - (١ / ٨٦-٨٧).

[٢] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم :(غزا نبي من الأنبياء فقال لقومه لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولما يبن بها ولا أحد بنى بيوتا ولم يرفع سقوفها ولا أحد اشترى غنما أو خلفات وهو ينتظر ولادها فغزا فدنا من القرية صلاة العصر أو قريبا من ذلك فقال للشمس إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها علينا فحبست حتى فتح الله عليه فجمع الغنائم فجاءت - يعني النار - لتأكلها فلم تطعمها فقال إن فيكم غلولا فليبايعني من كل قبيلة رجل فلزقت يد رجل بيده فقال فيكم الغلول فلتبايعني قبيلتك فلزقت يد رجلين أو ثلاثة بيده فقال فيكم الغلول فجاؤوا برأس مثل رأس بقرة من الذهب فوضعوها فجاءت النار فأكلتها ثم أحل الله لنا الغنائم رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا). صحيح البخاري كتاب (الخمس) ، باب ٨(قول النبي صلى الله عليه و سلم (أحلت لكم الغنائم)- (٣ / ١١٣٦)،ح(٢٩٥٦).

[٣] تفسير القرآن العظيم - (١ / ٢٧٤).

لكن رغم أن هذا الجيل عاش في الصحراء،وتربى على الخشونة والقوة،إلا أنه ورث صفات آبائه في مقابلة النعمة بالجحود والنكران، فإن الله تعالى حينما أمرهم بدخول تلك القرية ،أرد لهم الخير ،ورغد العيش،في تلك الأرض المباركة ،كثيرة الخيرات،بعد ما لاقوه من بأس العيش في الصحراء المقفرة فترة التيه، وأكرمهم الله بفتح تلك القرية ،وأمرهم أن يدخلوا من بابها راكعين خاضعين ،شكراً لله تعالى ،مستغفرين بأن يقولوا "حطّة" أي أن يحط عنهم خطاياهم بسؤالهم إياه المغفرة، فإن فعلوا ذلك العمل اليسير، وقالوا هذا القول القليل غفر لهم ذنوبهم، وزاد المحسن منهم جزاء إحسانه،لكن القوم كعادتهم في تبديل أوامر الله وتحريفها.

والمراد بتلك القرية قولان:

أحدهما: أنها بيت المقدس قاله ابن مسعود وابن عباس وقتادة والسدي ،وروي عن ابن عباس أنها أريحا قال السدي وأريحا هي أرض بين المقدس.

والثاني: أنها قرية من أداني قرى الشام قاله وهب،وذهب كثيرمن المفسرين إلى أنها بيت المقدس ومما يقوى هذا الرأي ، أن بابها المأمور بدخوله في هذه الآية قد ورد في قوله تعالى :**﴿قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبابَ ، فَإِذا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غالِبُونَ﴾**[1]

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ وهذا بيان لسبب نزول العذاب بهم ، وتقريع لهم على مخالفتهم أمر الله تعالى ، فإنهم بدلوا الكلام الذي كان من الواجب عليهم قوله ليغفر الله لهم ذنوبهم بكلام سخيف،يشير إلى سخفهم،وتفاهة عقولهم،وبدل أن يدخلوا القرية خاضعين لله شاكرين له على منته عليهم ،دخلوها يزحفون على أدبارهم مستهزئين ساخرين،قاتلهم الله **!!**

عن أبي هريرة رضي الله عنه : عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : **قيل لبني إسرائيل: ﴿ ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة ﴾ ، فدخلوا يزحفون على أستاههم فبدلوا وقالوا حطة حبة في شعرة)**[2]

قال ابن كثير:" وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق ، أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل ، فأمروا أن يدخلوا الباب سجداً ، فدخلوا يزحفون على أستاهم رافعين رؤسهم ، وأمروا أن يقولوا : حطة ، أي احطط عنا ذنوبنا وخطايانا فاستهزءوا وقالوا : حطنة في شعيرة ، وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة ، ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم وهو خروجهم عن طاعته " [3].

---

[1] انظر: زاد المسير،لابن الجوزي- (١ / ٨٤)، التفسير القرآني للقرآن،عبد الكريم الخطيب- (١ / ٨٨).

[2] صحيح البخاري،كتاب (التفسير) ،باب (٧) ﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية.. ﴾- (٤ / ١٦٢٧)،ح(٤٢٠٩).

[3] تفسير القرآن العظيم - (١ / ٢٧٧).

"إنهم لم يستطيعوا أن يحملوا أمانة الكلمة،فحرفوها وسخروا منها، فكيف بأمانة العمل،والتزام العهد ؟ ولهذا كانت الصفة الغالبة عليهم : نقض المواثيق ، والتحلل من العهود والعقود .. وكان ذلك هو الوصف الملازم لهم فى القرآن الكريم"[1]

▪وقفات مهمة مع عقوبة الرجز:

يجدر أن نقف مع طبيعة هذا العقاب الرباني لهم، في وقفات متفحصة متأملة من خلال تحليل نص الآيات الكريمة من سورة البقرة والأعراف التي تناولت ذكر العقاب :

١- قوله **﴿فأنزلنا﴾** فيه إشارة إلى أن الرجز قد هوى عليهم من جهة السماء،وإذا كان كذلك فإنه من القوة بحيث لا يستطيع أحد أن يدفعه عنهم أو يصرفه عن الوقوع بهم،وعبر عن الإنزال في الأعراف بالإرسال ﴿**فأرسلنا**﴾ ،ومعناهما متقارب ، ويفيد العطف بحرف الفاء التعقيب والسرعة إذ إن العذاب السماوي قد نزل بهم سريعاً بعد صدور العصيان منهم .

٢- صرحت الآية أن العقاب لم يشمل الجميع،وإنما نزل على الفئة التي خالفت أمر الله تعالى،وهذا من عدل الله تعالى ،فالعقاب يحل على المسيء دون المصلح قال تعالى: **﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾** [الأنعام : ١٦٤] .

٣- تكرر وصف الفئة العاصية بالظلم بقوله تعالى:**﴿فأنزلنا على الذين ظلموا﴾**،مع إمكان الإيجاز بالضمير بأن يقول:(فأنزلنا عليهم)؛تأكيداً لوصفهم بأقبح الأوصاف وهو الظلم،وللمبالغة في توبيخهم ،وتقريعهم قال أبو السعود:" وإنما وضع الموصول موضع الضمير العائد إلى الموصول الأول؛ للتعليل والمبالغة في الذم والتقريع ،وللتصريح بأنهم بما فعلوا قد ظلموا أنفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى"[2]

٤- التنوين في قوله "رجزاً" ، للتهويل والتفخيم،وهذا يدل على عظمته وإيلامه.

٥- عبر القرآن عن العذاب الذي نزل عليهم "بالرِّجز" ، وأصله في لغة العرب الاضطراب، ومنه قيل :رجز البعير رجزاً فهو أرجز، وناقة رَجْزَاء إذا تقارب خطوها واضطرب، لضعف فيها[3]

و "الرُّجز" [بكسر الراء وضمها] معناهما واحد ،وفسر بالأوثان ،وسميت الأوثان رجزاً، لأنها سبب العذاب، ورجز الشيطان: تخويفه وما يدعو إليه من الكفر ،وورد في قوله تعالى:**﴿ويذهب عنكم رجز الشيطان﴾**[4]

---

[1] التفسير القرآني للقرآن،عبد الكريم الخطيب- (١ / ٨٩).

[2] إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم - (١ / ١٠٥).

[3] انظر: مفردات غريب القرآن ،للأصفهاني- (١ / ١٨٧).

[4] انظر: التبيان تفسير غريب القرآن، شهاب الدين أحمد بن محمد المصري - (١ / ٢١٧) .

أما معنى "الرجز" في الآية التي معنا فقد اختلفت آراء المفسرين فيه:

١- عن ابن عباس في قوله:(رجزاً): كل شيء في كتاب الله من " الرِّجز " يعني به العذاب.

٢- وفسره بعضهم بالطاعون ،قال ابن زيد: لما قيل لبني إسرائيل:**﴿ ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة﴾ ﴿فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم﴾** بعث الله جل وعز عليهم الطاعون ، فلم يبق منهم أحدا،وقرأ:**﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون﴾** وقيل في الرجز :هو الطاعون[١]، ولعل هذا الفريق استدل بالحديث الذي أخرجه الطبري بسنده عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم:**(إن الطاعون رجز أنزل على من كان قبلكم - أو على بني إسرائيل)**[٢].

٣- وقال أبو العالية: الرجز الغضب.

٤- وقال الشعبي[٣]: الرجز إما الطاعون، وإما البرد.

وقد ذهب الإمام الطبري رحمه الله تعالى،إلى رأي ابن عباس رضي اله عنهما وهو أن المراد "بالرجز" العذاب، دون تحديد نوعه أو شكله ،وإن كان يميل إلى قول ابن زيد السابق، وهو تفسير الرجز بالطاعون،إلا أنه لم يجزم بأن الرجز الذي نزل على بني إسرائيل الذين قالوا"حطة" كان طاعوناً،لعدم ثبوت ذلك بالخبر الصحيح، قال رحمه الله:" وقد دللنا على أن تأويل " الرِّجز" العذاب ، وعذاب الله جل ثناؤه أصناف مختلفة ، وقد أخبر الله جل ثناؤه أنه أنزل على الذين وصفنا أمرهم الرجز من السماء، وجائز أن يكون ذلك طاعوناً ، وجائز أن يكون غيره ، ولا دلالة في ظاهر القرآن ولا في أثر عن الرسول ثابت، أي أصناف ذلك كان ، فالصواب من القول في ذلك أن يقال كما قال الله عز وجل: فأنزلنا عليهم رجزا من السماء بفسقهم، غير أنه يغلب على النفس صحة ما قاله ابن زيد، للخبر الذي ذكرت عن رسول الله صلى الله عليه و سلم في إخباره عن الطاعون أنه رجز ، وأنه عذب به قوم قبلنا ، وإن كنت لا أقول إن ذلك كذلك يقيناً، لأن الخبر عن رسول الله صلى الله عليه و سلم لا بيان فيه أي أمة عذبت بذلك ، وقد يجوز أن يكون الذين عذبوا به، كانوا غير الذين وصف الله صفتهم في قوله:**﴿فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم﴾**."[٤]

---

[١] انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري - (٢ / ١١٦-١١٧) تفسير القرآن العظيم،لابن كثير - (١ / ٢٧٧)، التبيان تفسير غريب القرآن، شهاب الدين أحمد بن محمد المصري - (١ / ٢١٧).

[٢] جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري - (٢ / ١١٧) ،قال أحمد شاكر: صحيح.

[٣] هو عامر بن شراحيل الكوفى من شعب كان إماما حافظا فقيها متفننا ثبتا متقنا ،ولي قضاء الكوفة قال أبو بكر بن عياش عن أبي حصين قال: ما رأيت أحدا قط أفقه من الشعبي و قال بن عيينة العلماء ثلاثة بن عباس في زمانه والشعبي في زمانه والثوري في زمانه. انظر :تذكرة الحفاظ للذهبي - (١ / ٦٣).

[٤] جامع البيان في تأويل القرآن - (٢ / ١١٨).

ويرى الباحث أن قول الطبري رحمه الله هو أسلم الأقوال ،فالأولى السكوت عن تحديد وتعيين ما سكت عنه الوحي،بل إن عدم تحديد شكل العذاب الذي نزل بهم فيه فائدة عظيمة،وهي تهويل هذا العذاب وتفخيمه و ذهاب النفس كل مذهب في تخيُّله وتصوره،كما أفاده كذلك التنوين والتنكير في لفظ**﴿رجزاً﴾** فإن فيه من التهويل والتفخيم لأمر العذاب ما لا يخفى.

من الدروس المأخوذة من هذه العقوبة الإلهية،عظمة جريمة من استهزئ بأوامر الله تعالى،فإن ظلمة بني إسرائيل إنما استحقوا العذاب،لاستهزائهم الصارخ بما أمر الله به،وبكلامه وتوجيهاته،وما أكثر المستهزئين والساخرين بالدين و أحكامه في عصرنا،من الذين انخدعوا ببريق الحضارة الغربية الأرضية،وأعرضوا عن شرع ربهم،وأخذوا يشككون الناس بواقعية الأحكام الشرعية ،ونراهم بين الحين والآخر على وسائل الإعلام وفي المؤتمرات يعرفون أنفسهم على أنهم دعاة فكر أو تنوير،إلا أنهم في الحقيقة لصوص عقيدة،وأجراء جهات مشبوهة ،يبتغون تشكيك المسلمين بدينهم وعقيدتهم ، فتارة يستهزؤون بأحكام الحدود وينسفونها،مستدلين بأدلة عقلية ساذجة،بعيدة عن روح الشريعة، ، وتارة يسخرون بأحكام الميراث،ويصفونها بأنها قد ظلمت المرأة،وفي كثير من الأحيان يردون الأحاديث الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم،دون علم أو بينة أو دليل،بل بمجرد الهوى،وللأسف تتاح أمامهم الفرص في وسائل الإعلام لإبداء آرائهم القذرة،وأفكارهم المسمومة،يلوثون بها عقول المسلمين ،ويسمح لهم بافتتاح الجمعيات والمراكز ،التي يستهزؤون من خلالها بأحكام الدين ،لذلك من الواجب على حراس العقيدة من العلماء أن يقفوا في وجه هؤلاء العابثين،ويردوا عليهم شبهاتهم ،لقطع الطريق عليهم من أن ينالوا من دين المسلمين،كما يجب على المسؤولين أن يأخذوا على أيديهم،ويمنعوهم من نشاطاتهم الخبيثة النجسة، كما يجب على هؤلاء المستهزئين بأحكام رب العالمين،أن يتعظوا بمصير من سبقهم في المعصية،وليعلموا أن سنة الله تعالى لا تحابي أحداً،وأن عذاب الله تعالى سيقع بهم إن استمروا على نهجهم المستهزئ بأحكام الله ،كما وقع مع من استهزأ بأحكام الله من بني إسرائيل.

المطلب الخامس:المسخ قردة وخنازير:

قصة مسخ اليهود من القصص المؤثرة التي وردت في عدة مواضع من القرآن، وجعلها الله عز وجل موعظة للمتقين، كما قال سبحانه وتعالى: :**﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾** [البقرة : ٦٥– ٦٦] ، فكل من اتقى الله عز وجل وتأمل هذه القصة، فسوف ينتفع بها وينتصح، ويعلم أهميتها في حياة المسلمين عموماً وخصوصاً.

وهذه القصة وإن وقعت في جماعة من بني إسرائيل، وزمانها غير زماننا، إلا أنها تثَبِّت المؤمن على إيمانه،وتردع المسيء عن إساءته،وتوقظ الغافل من غفلته ،كما أخبر الله تعالى:**﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾** [هود : ١٢٠] كما أنها عبرة وعظة لأصحاب العقول ،والقلوب الحيَّة: **﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾** [يوسف: ١١١]، فلا بد أن نتعلم من هذه القصص، ونستفيد منها دروساً نطبقها في واقعنا وحياتنا، لا أن نجعلها حكايات للتسلية.

ويجدر بداية أن نتعرف على معنى المسخ في لغة العرب،لكي يسهل علينا تصور هذه العقوبة الإلهية التي أوقعها الله على بني إسرائيل.

أولاً:تعريف المسخ:

الميم والسين والخاء يدلُّ على تشويهٍ وقِلّة طَعْم الشَّيء، ومَسَخَه الله: شوَّهَ خَلْقَه من صورةٍ حسنةٍ إلى قبيحة.. وقيل :المَسْخُ تحويلُ خَلْقٍ إلى صُورَةٍ أخرى ،والمسيخُ من الناسِ : الذي لا مَلاَحةَ له ، ومِنَ الطعامِ : الذي لا مِلْحَ فيه ، ومن الْفَوَاكِهِ ، مَالاَ طَعْمَ لهُ ،و من ذلك قولهم:" مسخه الله قرداً " يمسخه ، فهو مسخ ومسيخ و"المسيخ" ، فعيل بمعنى مفعول وهو (المشوه الخلق) قيل : ومنه المسيخ الدجال ، لتشويهه وعور عينه.[١]

وقال الراغب في مفرداته:" قال بعض الحكماء: المسخ ضربان: مسخ خاص .. وهو مسخ الخَلْق، ومسخ قد يحصل في كل زمان وهو مسخ الخُلُق، وذلك أن يصير الإنسان متخلقاً بخلق ذميم من أخلاق بعض الحيوانات ،نحو أن يصير في شدة الحرص كالكلب، وفى الشره كالخنزير، وفى الغمارة كالثور.. "[٢]

ثانياً:شدة عقوبة المسخ:

فالمسخ في لغة العرب يفيد تحويل الخَلْق من صورة حسنة إلى صورة قبيحة،وهو إحدى العقوبات الإلهية الحسية التي عذب الله بها اليهود،وهي في الحقيقة شديدة الوقع على النفس؛لأنها تهبط بالإنسان من كائن مكرم، وصاحب عقل يفكر فيه، ويميز به ،إلى حيوان لا عقل له ،ولا تدبير ،واليهود قد أوصلوا أنفسهم إلى هذه الدرجة السحيقة ، حينما تنازلوا عن آدميتهم وكرامتهم،واستحوذ عليهم حب الدنيا والرغبة فيها، والطمع بمتاعها الزائل فتحايلوا على أوامر الله بصورة ماكرة خبيثة،زينتها لهم أنفسهم المريضة.

وحينما يتبع الإنسان هوى نفسه،وينساق ورائه،ويلهث خلف شهواته وملذاته،دون دين يردعه،أو ضمير يوجعه،يصبح دون مرتبة الحيوان،كما وصف الله تعالى المتبع لهواه :

---

[١] انظر: تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري – (٧ / ٩١)، لسان العرب ، لابن منظور (٣ / ٥٥)، معجم مقاييس اللغة ،لابن فارس– (٥ / ٣٢٣)، تاج العروس، للزبيدي – (٧ / ٣٤٣).

[٢] مفردات غريب القرآن – (١ / ٤٦٨).

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان : ٤٣– ٤٤]

فهذا تعجيب للنبي صلى الله عليه وسلم من جهل هؤلاء الذين اتخذوا هوى النفس إلهاً يعبدونه ،وينساقون ورائه ،فحالهم حال الأنعام في أن لها سمعاً ،وبصراً ،حسيين ،لكن ليس لها إدراك وإحساس روحيّ ، بل إنهم أضل من البهائم؛لأنها لم تكلف ولم تعص خالقها ، وأما هؤلاء فقوم عندهم القدرة على إدراك الخير ، والقوة لمعرفة الحق ، ولكنهم قوم ضلوا وأضلوا ، ولهم النار وبئس القرار.

وقصة المسخ تنبيه لكل من اتبع هواه بغير هدى من الله، وانحرف عن شرع الله تعالى،وتحايل على أوامره،خاصة ونحن في هذا الواقع الذي كثرت فيه الفتن،وأصبحت كقطع الليل المظلم،وكثر فيه الضالون المضلون، ممن يدعون العلم،ويسهلون للناس التحايل على أوامر الله،ويصدرون الفتاوى المائعة الماكرة،التي تحل ما حرم الله تعالى ،من غير وازع من دين أو شرع،لذلك على المسلم أن يتقى الله في نفسه،وأن يستفتيها قبل أن يستفتي العلماء،فإن الحق تستريح إليه النفس،ويطمئن إليه القلب،أما اتباع الباطل فإنه يورث قلقاً وحزناً ما بعده حزن.

ثالثاً:تفصيل عقوبة المسخ

وحديثنا هنا في عقوبة المسخ عن قوم من اليهود قص القرآن لنا خبر تعَدِّيهم على حدود الله،وانتهاكهم لمحارمه، و القصة معروفة لدى اليهود الذين عاصروا النبي صلى الله عليه وسلم،ممن ناصبوه العداء،لذلك أمر الله نبيه أن يذكرهم ويذكر كل من يصلح للذكرى بعاقبة أولئك النفر الذين انحرفوا عن شريعتهم وعقيدتهم،وتحايلوا على أوامر الله تعالى فصبَّ الله عليهم من عنده سوط عذاب، قال تعالى:﴿ **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ** ﴾ [البقرة : ٦٥]

"يقول تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ** ﴾ يا معشر اليهود، ما حل من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله،وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت ،والقيام بأمره، .. فتحيلوا على اصطياد الحيتان في يوم السبت، بما وضعوا لها من الشصوص[١] والحبائل والبرك قبل يوم السبت، فلما جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة نشبت بتلك الحبائل والحيل، فلم تخلص منها يومها ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت، فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة القردة"[٢]

---

[١] جمع شص ، والشص شيء يصاد به السمك،انظر : لسان العرب ، لابن منظور – (٧ / ٤٧).
[٢] تفسير القرآن العظيم،لابن كثير – (١ / ٢٨٨).

وسورة البقرة قد أوجزت في الحديث عن قصة المسخ،لكن سورة الأعراف ذكرت القصة مبسوطة ،حيث قال تعالى في تفصيل هذه القصة:**﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ *وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾** [الأعراف : ١٦٣ - ١٦٦]

والخطاب في الآيات للنبى صلى الله عليه وسلم والضمير الغائب يعود للمعاصرين له من اليهود ، أى : سل يا محمد هؤلاء اليهود المعاصرين لك كيف كان حال أسلافهم الذين تحايلوا بأفكارهم الشيطانية الملتوية على أوامر الله، والمقصود من سؤالهم هو توبيخهم على عنادهم، ومحاربتهم للدعوة الإسلامية ، لعلهم يتوبوا ويرجعوا إلى الحق ، ولا يعرضوا أنفسهم للعقوبات

التي نزلت بأسلافهم المراوغين،وهو أيضاً دليل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه قد أخبرهم بها دون أن يقرأ كتبهم،ودون أن تكون القصة معروفة عند العرب .

قال القرطبي رحمه الله" أي واسأل اليهود الذين هم جيرانك عن أخبار أسلافهم، وما مسخ الله منهم قردة وخنازير، هذا سؤال تقرير وتوبيخ، وكان ذلك علامة لصدق النبي صلى الله عليه وسلم ؛ إذ أطلعه الله على تلك الأمور من غير تعلم. "[١]

وملخص قصة اعتداء بني إسرائيل في يوم السبت بعبارة أوضح ، أن الله تعالى قد أخذ عليهم عهداً وميثاقاً بأن يتفرغوا لعبادته يوم السبت ، وحرم عليهم الاصطياد فيه دون سائر الأيام ، وقد أراد – سبحانه – أن يختبر استعدادهم للوفاء بعودهم ، فابتلاهم بتكاثر الحيتان في يوم السبت دون غيره ، فكانت تتراءى لهم على الساحل في ذلك اليوم قريبة المأخذ ،سهلة الاصطياد فقالوا : لو حفرنا إلى جانب ذلك البحر الذي يزخر بالأسماك يوم السبت حياضاً تنساب إليها المياه في ذلك اليوم،ثم نصطادها من تلك الحياض في يوم الأحد وما بعده ، وبذلك نجمع بين احترام ما عهد إلينا في يوم السبت ، وبين ما تشتهيه أنفسنا من الحصول على تلك الأسماك ، فنصحهم فريق منهم بأن عملهم هذا إنما هو امتثال ظاهري لأمر الله ، ولكنه في حقيقته خروج عن أمره من ترك الصيد في يوم السبت ، فلم يعبأ أكثرهم بذلك ، بل نفذ تلك الحيلة ، فغضب الله عليهم ومسخهم قردة ، وجعلهم عبرة لمن عاصرهم ولمن أتى بعدهم .[٢]

والذي يفهم من الآيات الكريمة ،أن أهل القرية كانوا ثلاث فرق:

---

[١] الجامع لأحكام القرآن – (٧ / ٣٠٤)..

[٢] انظر: التفسير الوسيط،لسيد طنطاوي– (١ / ٢٢٧).

١- فرقة المعتدين في السبت المتجاوزين لحدود الله بقصد وعمد.

٢- فرقة الناصحين للفرقة الأولى بالانتهاء عن تعديهم وفسوقهم.

٣- فرقة اللائمين للناصحين،ليأسهم من صلاح الهادين في السبت.

والفرقة الثالثة هي التي عبر عنها القرآن الكريم بقوله:﴿ **وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا**﴾والمعنى :قالت فرقة من أهل القرية لإخوانهم الناصحين، الذين لم يدخروا جهداً في نصيحة المعتدين في السبت،لماذا تعظون هؤلاء القوم الذين لا فائدة من نصحهم ،ولا جدوى من تحذيرهم،لأن الله قضى باستئصالهم، وتطهير الأرض منهم،أو بتعذيبهم عذاباً شديداً،عقوبة لهم.

فكان رد الناصحين عليهم:﴿**معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون**﴾

فقد عللوا نصيحتهم بعلتين:

الأولى:القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،والاعتذار إلى الله تعالى من مغبة التقصير في واجب الدعوة.

الثانية:الأمل في صلاحهم،وانتفاعهم بالنصيحة،وتحرك التقوى في قلوبهم،فينجوا بذلك من العقوبة ويهتدوا.

وقال بعضهم : إن أهل القرية كانوا فرقتين:

١- فرقة نهت وزجرت عن السوء .

٢- وفرقة عملت بالسوء.

فعلى هذا يكون الذين قالوا ﴿**لم تعظون قوماً الله مهلكهم**﴾ هي الفرقة المعتدية ،وذلك أن الفرقة الناهية قالوا للفرقة المعتدية :انتهوا قبل أن ينزل بكم عذاب شديد إن لم تنتهوا عما أنتم فيه، فقالت لهم الفرقة المعتدية : لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ؟ والمعنى: لم تعظونا وقد علمتم أن الله مهلكنا أو منزل بنا عذابه. [١]

والذي يرجحه الباحث: ما ذهب إليه الجمهور من أنهم كانوا ثلاث فرق، لأن هذا هو الظاهر وتؤيده الضمائر في قوله ﴿**معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون**﴾ فلو كانوا فرقتين لقالت الناهية للعاصية ﴿**معذرة إلى ربكم ولعلكم تتقون**﴾ ،وبهذا يترجح القول بشكل قاطع أنهم كانوا ثلاث فرق وليس فرقتين والله أعلم.

ثم جاءت الآيات ببيان عاقبة كل من الفرقة الناهية والعاصية:﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**﴾

أي فلما تمادى الظالمون في طغيانهم،وأصموا آذانهم عن سماع الحق،أنجينا الفرقة الناصحة،وأخذنا العادين بعذاب شديد لا رحمة فيه ولا هوادة، بسبب خروجهم عن طاعة الله.

---

[١] انظر: لباب التأويل في معاني التنزيل،للخازن – (٢ / ٣٠٣).

والآية قد صرحت بنجاة الفرقة الناصحة،وبتعذيب الفرقة المعتدية،أما الفرقة الثالثة التي لامت الناهين عن السوء فقد سكتت عنها الآيات،لذلك اختلف المفسرون في مصيرها:

١- ذهب بعض المفسرين إلى أنها لم تنج،لأنها لم تنه عن المنكر،ولأنها لامت الناصحين.

٢- لكن ذهب جمهور المفسرين، أنها نجت، لأنها كانت كارهة لما فعله العادون في السبت ،ولم ترتكب شيئا مما ارتكبوه ، وإذا كانت قد سكتت عن النصيحة ، فلأنها كانت يائسة من صلاح المعتدين ، ومقتنعة بأن القوم قد أصبحوا محل سخط اللّه وعذابه ، فلا جدوى وراء وعظهم. [1]

والذي يرجحه الباحث هو رأي الجمهور ونستدل عليه بالأدلة التالية :

١- لأن النهي عن المنكر إنما يجب على الكفاية، فإذا قام به البعض سقط عن الباقين.

٢- ثم إن هذه الفرقة لم تشارك في الجريمة، ولم تُعن عليها حتى تستحق العذاب،بل إنها قالت: **﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم﴾**من شدة الغضب والحنق مما رأوه من أولئك القوم العادين من التجرأ على محارم الله،وبذلك يكونوا قد أنكروا المعصية بقلوبهم.

٣- وقوله تعالى: **﴿ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾** فيه دلالة على أن الذين سكتوا ولم يظلموا نجوا،وذلك بمفهوم المخالفة .

٤- ومن الأدلة تفصيل المراد بالعذاب البئيس "بالمسخ"[2] في الآية التي بعدها، وهو قوله تعالى:**﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾** ،وهذا يؤيد أن المسخ إنما وقع على الذين عتوا وتمردوا عما نهوا عنه، ورفضوا النصيحة ،واستمروا في المعصية،وهي فرقة المعتدين وحدهم دون غيرهم .

عن عكرمة قال: (دخلت على ابن عباس والمصحف في حجره، وهو يبكي، فقلت: ما يبكيك، جعلني الله فداءك؟ قال: فقرأ: **﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر﴾**، إلى قوله: **﴿بما كانوا يفسقون﴾**" قال ابن عباس: لا أسمع الفرقة الثالثة ذكرت، نخاف أن نكون مثلهم! فقلت: أما تسمع الله يقول: "فلما عتوا عمّا نهوا عنه"؟ فسُرِّي عنه، وكساني حُلّة)[3]

٥- أنهم سكتوا عن النهي عن المنكر، لعلمهم أن النصح لا يجدي معهم،فقد يأسوا من هدايتهم،أما الفرقة الناصحة ،فكانوا أمضى عزماً ،وأعلى مرتبة ،فلم ييئسوا من النصح والتذكير،واستمروا في ذلك.

---

[1] انظر:التفسير الوسيط للقرآن الكريم ،وهبة الزحيلي - (٥ / ٤١٠).

[2] ذهب بعض المفسرين أن العذاب البئيس غير عذاب المسخ المتأخر ذكره . انظر: مفاتيح الغيب،للرازي - (١٥ / ٣٣)

[3] جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري - (١٣ / ١٨٨)

قال الزمخشري:" فإن قلت : الأمة الذين قالوا :(لِمَ تَعِظُونَ) من أي الفريقين هم أمن فريق الناجين أم المعذبين قلت: من فريق الناجين ، لأنهم من فريق الناهين ، وما قالوا ما قالوا إلا سائلين عن علة الوعظ والغرض فيه ، حيث لم يروا فيه غرضاً صحيحاً ،لعلمهم بحال القوم . وإذا علم الناهي حال المنهي وأن النهي لا يؤثر فيه ، سقط عنه النهي ، وربما وجب الترك لدخوله في باب العبث ، ألا ترى أنك لو ذهبت إلى المكاسين القاعدين على المآصر والجلادين المرتبين للتعذيب لتعظهم وتكفهم عما هم فيه ، كان ذلك عبثاً منك ، ولم يكن إلاّ سبباً للتلهي بك ، وأما الآخرون فإنما لم يعرضوا عنهم ،إمّا لأن يأسهم لم يستحكم كما استحكم يأس الأولين ، ولم يخبروهم كما خبروهم ، أو لفرط حرصهم وجدّهم في أمرهم كما وصف الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام في قوله : ﴿ **فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ** ﴾ [الكهف : ٦]"[١]

أما عن سبب إبهام القرآن لمصيرهم فهو تهوين شأنهم،لأنهم لم يأخذوا بالأكمل،واكتفوا بالإنكار بالقلب مع القدرة على النصح .

" فأما الفرقة الثالثة – أو الأمة الثالثة – فقد سكت النص عنها ،ربما تهوينا لشأنها – وإن كانت لم تؤخذ بالعذاب – إذ إنها قعدت عن الإنكار الإيجابي ، ووقفت عند حدود الإنكار السلبي ، فاستحقت الإهمال وإن لم تستحق العذاب "[٢]

وهذا التحايل الواضح على شرع الله، يعبر عن طبيعة النفسية اليهودية الملتوية،وهي تسعى جاهدة بكل الطرق، للتملص من أوامر الله تعالى ،والهروب من قيد الشرع،والانحلال من العهود والمواثيق المأخوذة عليهم،بل استمر هذا التحايل معهم إلى وقتنا الحاضر ،فقد تحايلوا على ما في توراتهم المحرفة أصلاً من تعاليم[٣]،وهذا يدعو المسلمين عامة،ومن يلهثون خلف

---

[١] الكشاف – (٢ / ١٦٢)

[٢] في ظلال القرآن،لسيد قطب –(٣ / ١٣٨٥)

[٣] تحايل اليهود على الشريعة السماوية التي يزعمون أنها تقود "الشعب المختار على أرض الميعاد" لا يتوقف عند قصة الصيد يوم السبت ، فقد رخصت حكومة شارون في أول سابقة من نوعها في العالم للعب القمار ...داخل الطائرات المحلقة خارج المجال الجوي الصهيوني! و خلفية القرار حسب المصادر، أن القانون الصهيوني يمنع القمار داخل الدولة، و أن مشروع ما يسمى ب"الملاهي الطائرة" اقترحه رجال أعمال صهاينة و أجانب عبر شركة استثمار إيسلاندية التي تعتزم برمجة ثلاث رحلات "قمارية" يوميا ،حيث يمكن ل"الركاب" لعب الميسر لمدة أربع ساعات خارج المجال الجوي الصهيوني حتى لا يطبق عليهم القانون!

و رغم أن اللعبة محرمة قانونيا إلا أن حكومةالصهاينة لا ترى مانعا بقبول الأموال التي ستذرها الملاهي الطائرة على خزينة الدولة و المتوقع أن تصل إلى حدود ٥٠ مليون دولار سنويا حسب المصادر.جزء من مقال :(اليهود يبدعون في التحايل على أوامر دينهم)انظر: موقع مجلة العصر على الانترنت http://www.alasr.ws .

طريق التفاوض خاصة أن يتعلموا من هذه القصة القرآنية التي شخصت نفسية اليهود المتحايلة،ولقد دلت سنوات التفاوض السابقة على هذه الحقيقة القرآنية،حيث لم يتمخض عنها إلا مزيداً من التوسع في الأطماع الصهيونية بأرض فلسطين، ومزيداً من تهويد مدينة القدس ،ولذلك فمن الواجب على المتبنين لمشروع التفاوض أن يغيروا من نهجهم الاستسلامي،وأن يعودوا إلى المنهج القرآني لنصرة القضية،وتحرير الأوطان ،والذي يتمثل بالجهاد في سبيل الله.فهو ذروة سنام الإسلام ،وسبيل العزة والكرامة.

" والواقع أن الجهاد ضروري لبقاء المسلمين أمة قوية مرهوبة الجانب بعيدة عن أطماع الطامعين والحاقدين من الكافرين والمنافقين، كما أن الجهاد بنفسه دليل قاطع على ايمان المسلم ومبادرته إلى ما يحبه الله تعالى وايثاره مرضاته وما عنده، ولهذا وبخ الله تعالى من يتقاعس عن الجهاد"(١)

رابعاً:التحايل على الشرع مدعاة للعقوبة:

التحايل علي شرع الله من صفات اليهود،إلا أنها بقيت متوارثة في أشباههم ممن ينتسب إلي الإسلام انتساباً،وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من التشبه باليهود في هذه المعصية فقال: "لا تَشبَّهوا باليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل"(٢)

وخطورة التحايل على أوامر الله في كونه نفاق ،إذ إنه خداع والتواء على الأحكام،إذ يوهم المتحايل غيرَه أنه متمسك بأحكام الشرع ظاهراً،إلا أنه في الحقيقة يريد التفلت منها،فهو يظهر خلاف ما يبطن ،وهذا هو عين النفاق والعياذ بالله.

"وأصل الحيلة في شريعة الإسلام خديعة والخديعة نفاق ،والنفاق عند الله عز وجل أعظم من صراح الكفر، قال الله عز وجل: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾** وقال تبارك وتعالى: **﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾** أفلا ترى: إن المنافقين أظهروا قبول الأحكام الإسلامية، وألزموا أنفسهم التدين بها، حيلة، بذلك."(٣)

فواضح أن الله تعالى ذم أهل المخادعة والمكر من المنافقين ،لأنهم يخادعون الله لكنه خادعهم ،وأخبر بمخالفة ظواهرهم لبواطنهم، وسرائرهم لعلانيتهم ،وأقوالهم لأفعالهم، وهذا شأن

---

(١) أصول الدعوة،عبد الكريم زيدان – (١ / ٣٠٧).

(٢) أورده ابن كثير في تفسيره– (٣ / ٤٩٣) ولم أقف على تخريجه

(٣) إبطال الحيل ،لابن بطة العكبري ، ص٤٢.

أرباب الحيل المحرمة وهذه الأوصاف منطبقة عليهم فإن المخادعة هي الاحتيال والمراوغة بإظهار أمر جائز ليتوصل به إلى أمر محرم يبطنه[1]

واليهود الذين مسخوا كانوا على هذه الشاكلة ،حيث تظاهروا بتطبيق أمر الله في تحريم العمل يوم السبت،إلا أنهم في الحقيقة معتدون، بسبب حيلتهم تلك يقول ابن القيم ناقلاً عن شيخه ابن تيمية "وهؤلاء لم يكفروا بالتوراة وبموسى،وإنما فعلوا ذلك تأويلاً واحتيالاً ظاهره ظاهر الاتقاء ، وحقيقته حقيقة الاعتداء ولهذا ـ والله أعلم ـ مسخوا قردة لأن صورة القرد فيها شبه من صورة الإنسان ، وفي بعض ما يذكر من أوصافه شبه منه ... فلما مسخَ أولئك المعتدون دين الله بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين في بعض ظاهره دون حقيقته مسخهم الله قردة تشبه الإنسان في بعض ظاهره دون الحقيقة ، جزاءً وفاقا"[2]

ولقد أفتى العلماء وبشكل لا يدع مجالا للشك بحرمة التحايل في دين الله تعالى،ليقطعوا السبيل أمام كل من تدعوه نفسه للمراوغة في دين الله تعالى " فالحيلة في الدين محرمة في الكتاب والسنة، فكل حكم عمل بالحيلة في طلاق، أو خلع، أو بيع، أو شراء، فهو مردود مذموم عند العلماء الربانيين"[3]

ومن صور التحايل على أوامر الله أن بعض المسلمين يستغلون الرخص، التي شرعها الله إرفاقاً ورحمة بهم،ليأخذوا بها وقت الحاجة،وحين الضرورة،يستغلونها ليتفلتوا من أحكام الشريعة ، كرخصة الإفطار للمسافر ،وقصر الصلاة عند الخوف والسفر حيث قال تعالى:﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾[البقرة : ١٨٤] وقال في رخصة قصر الصلاة:﴿ **وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا** ﴾[النساء : ١٠١] فأباح للمسافر قصر الصلاة ،وكذلك الفطر في سفره، وفرض الحج حال الاستطاعة،لكن بعض الناس يتحايل على هذه الرخص،وقد بين العلماء بعض هذه الحيل حيث يقول الإمام العكبري" فلو أن رجلا سافر لا يريد بسفره إلا الأكل والجماع نهاراً في شهر رمضان ،حتى يقضي ذلك على مهلٍ متقطعاً في قصير الأيام على مر الأوقات، ولو أن رجلاً سافر لا يريد من سفره إلا أن يضع عن نفسه بعض صلاته، و كذلك لو وجب عليه الحج بوجوب الاستطاعة ،فوهب ماله لبعض ولده عند أوقات الحج، ثم استرجعه بعد ذلك، وكذلك لو كان له من أصناف الماشية مال كثير، تجب فيه الزكاة الكثيرة ،فباعها عند رأس الحول ،وجرى ثمنها مجرى المال المستفاد... فعند رأس الحول ابتاع به عقاراً، حتى إذا جاوز الحول

---

[1] انظر: إعلام الموقعين،لابن القيم – (٣ / ١٦٠).

[2] المصدر السابق – (٣ / ١٦٢).

[3] إبطال الحيل ، ص٥٢.

باعه،لكان هذا كله في ظاهره جائزاً في شريعة الإسلام ماضياً على أحكامها، ولو استفتى فاعله جميع الفقهاء المسلمين في جميع الأمصار فيما فعل غير مخبر لهم بنيته، ولا ما قصد له من ذلك ،لما اختلف عليه اثنان في جوازه وصحته ،ولا رأوه حرجاً في فعله، ولا آثما في مرتكبه."[١]

ومن صور الحيل في واقعنا،والتي يروجها بعض من لا يتقى الله ،تسمية الربا بغير اسمه ليضل الناس، فيسمونها استثماراً ، أو فائدة، أو عائداً أو نحو ذلك،وهو في الحقيقة ربا فكثير من الناس يتعاملون بأنواع من القروض بفائدة من البنوك ،أو صناديق الاستثمار وغيرها، ويتناسون أن كل ذلك من الربا المحرم، وإن سمي بغير اسمه، حتى ولو تذرع أحدهم بفتوى باطلة ممن ينتسب إلى أهل العلم، وهو ليس منهم ،وإن كان عند الناس يشار إليه بالبنان، فإن من أحل ما أجمع العلماء على تحريمه، وإن كان متأولاً ويزعم إنه مجتهد، فهو مبطِل، لأن الاجتهاد لا يكون في خلاف الإجماع.

ومن أنواع من الحيل في البيوع، ما يسمى بيع العينة وهو نوع من الربا ،لكن بحيلة على الربا، وذلك بأن يقول لمن يريد أن يقترض منه مائة مثلاً ،والرجل لن يقرضه مائة، إلا بمائة وعشرين، فيقول: اشترِ مني هذه السلعة بمائة، وهو يعرف ما سوف يتم، فيشتريها بمائة ويقبضها إياه، ثم يقول: أنا أشتريها منك بالتقسيط بمائة وعشرين، فرجعت له سلعته، وأصبح مديناً بمائة وعشرين، وهو قبض مائة فصارت المائة مائة وعشرين، ودخلت بينهما السلعة.
وجمهور الفقهاء: قالوا بفساد هذا البيع وعدم صحته؛ لأنه ذريعة إلى الربا، وبه يتوصل إلى إباحة ما نهى الله عنه، فلا يصح.[٢]

ومن الحيل المنتشرة نكاح التحليل، الذي يطلق امرأته ثلاثاً ثم يتفق مع رجل يحلها له،ويسمى في الشرع الإسلامي التيس المستعار ،كما سماه النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم (**ألا أخبركم بالتيس المستعار ؟) قالوا بلى يا رسول الله قال (هو المحلل ، لعن الله المحلل والمحلل له)** [٣]

"وهذا النكاح فاسد عند الجمهور (المالكية والشافعية والحنابلة والظاهرية وأبي يوسف)؛ للحديث السابق، ولأن النكاح بشرط الإحلال ،في معنى النكاح المؤقت، وشرط التوقيت في النكاح

---

[١] إبطال الحيل ، ص (٤٤-٤٥) .

(٢) انظر : الفقه الإسلامي وأدلته ،لوهبة الزحيلي – (٥ / ١٤٣).

(٣) سنن ابن ماجه ،كتاب(النكاح) ، باب٣٣ (المحلل والمحلل له) – (١ / ٦٢٣)،ح(١٩٣٦)
قال الشيخ الألباني : حسن.

يفسده، والنكاح الفاسد لا يقع به التحليل، فهو نكاح إلى مدة أو فيه شرط يمنع بقاءه فأشبه نكاح المتعة. .

ويؤيده قول عمر: والله لا أوتى بمحلل ومحلل له إلا رجمتهما. "[١]

هذه بعض صور الحيل التي لا حصر لها،التي اعتاد عليها بعض الناس،ظنوا بذلك أنهم بذلك تهربوا من شرع الله ،ولا يدرون أنهم وقعوا في إثم مضاعف،فالربا إثمها معروف لكن المحتال يجازى فوق إثم الربا إثماً آخر وهو تحايله على أمر الله تعالى!!

فليحذر من يتحايل على أوامر الله من عقوبة الله تعالى فإن هذه المعصية قد استحق عليها اليهود فيما مضى عقوبة المسخ،ولا يدري أحد ما تكون عقوبة من يقع في هذه المعصية من أمة الإسلام!!

خامساً:حقيقة المسخ الذي وقع باليهود:

اختلف المُفسرون في حقيقة المسخ الذي نزل باليهود، هل هو مسخ مادي حسيٌّ ،أو مسخ معنوي، على معنى هل تحول الذين اعتدَوْا إلى قردة تحولاً حقيقيًّا ، أم تحولت أخلاقُهم فكانت مثل أخلاق القردة ؟اختلف المفسرون في ذلك على رأيين:

الرأي الأول:ذهب الأكثرون من المفسرين إلى الأخذ بظاهر النص ،وحملوا الآية على ظاهرها وقالوا:إن المَسخ الذي وقع باليهود هو مسخ ماديٌّ حسيٌّ،على معنى أن الله تعالى حول خِلْقة اليهود من الصورة الآدمية إلى صورة القردة،فمسخوا قردة حقيقيين،وذهب إلى هذا القول الإمام الطبري حيث حكى الإجماع على هذا القول[٢] وذهب إليه كذلك الألوسي حيث قال:" وظاهر القرآن أنهم مسخوا قردة على الحقيقة، وعلى ذلك جمهور المفسرين وهو الصحيح"[٣] ،ووافقهم ابن كثير[٤]،والقرطبي[٥] ،والرازي[٦]، ،والخازن[٧]،وابن عطية[٨]والبغوي[٩]

الرأي الثاني: ذهب القلة من المفسِّرين إلى القول بالمسخ المعنوي، وهذا الرأي مرويٌّ عن مجاهد في تفسير هذه الآية أنّه إنّما مُسِخَتْ قلوبُهم فقط، وأضحت أفهامُهم كأفهامِ القردة فعن

---

(١) الفقه الإسلامي وأدلته ،وهبة الزحيلي- (٩ / ٤٤٩).

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن -(١٧٣/٢).

(٣) روح المعاني - (١ / ٢٨٣).

(٤) تفسير القرآن العظيم- (١ / ٢٨٩).

(٥) الجامع لأحكام القرآن - (٧ / ٣٠٩).

(٦) مفاتيح الغيب - (٣ / ١٠٣).

(٧) لباب التأويل في معاني التنزيل - (١ / ٦٩).

(٨) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - (١ / ١٤٠).

(٩) معالم التنزيل - (١ / ١٠٥).

مجاهد قال: (مسخت قلوبهم، ولم يمسخوا قردة، وإنما هو مثل ضربه الله لهم، كمثل الحمار يحمل أسفاراً).[١]

و قول مجاهد – رحمه الله – قول مردود، وذلك معدود من سقطه – عليه رحمة الله – فهو قول شاذ ردَّه الأئمة المفسرون، فهذا الإمام الطبري يردُّ عليه بشدة ويفنده،ويبيِّن أنه مخالف لإجماع الأمة في تفسير هذه الآية حيث قال: "وهذا القول الذي قاله مجاهد، قول لظاهر ما دل عليه كتاب الله مخالف، وذلك أن الله أخبر في كتابه أنه جعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت... هذا مع خلاف قول مجاهد قول جميع الحُجة التي لا يجوز عليها الخطأ والكذب فيما نقلته مجمعة عليه،وكفى دليلا على فساد قولٍ، إجماعها على تخطئته"[٢]

وردَّ ابن كثير أيضاً قول مجاهد رحمه الله ووصفه بالغرابة فبعد أن أورد قوله وحسن الأثر المروي عنه قال:" قول غريب خلاف الظاهر من السياق في هذا المقام وفي غيره"[٣] ،
وقال الإمام ابن الجوزي في زاد المسير:"وقول مجاهد بعيد" [٤]

ولقد أيد قول مجاهد من المحدثين الشيخ عبدالكريم الخطيب[٥]، والشيخ محمد رشيد رضا من أصحاب مدرسة التفسير بالرأي حيث قال "ولا يتم كون تلك العقوبة نكالاً للمتقدمين والمتأخرين، وموعظة للمتقين ، إلا إذا كانت جارية على السنة المطردة في تربية الأمم، وتهذيب الطباع ، وذلك ما هو معروف لأهل البصائر ، ومشهور عند عرفاء الأوائل والأواخر، وحديث المسخ والتحويل ، وأن أولئك قد تحولوا من أناس إلى قردة وخنازير، إنما

---

[١] فتح القدير ، للشوكاني – (١ / ٩٦).
[٢] جامع البيان في تأويل القرآن – (٢ / ١٧٣).
[٣] تفسير القرآن العظيم – (١ / ٢٨٩).
[٤] تفسير زاد المسير (١ / ٩٥).
(٥) التفسير القرآني للقرآن – (١ / ٩٤).
و الشيخ عفا الله عنه وقع في مغالطة كبيرة، حينما قال في سياق الحديث عن عقوبة مسخ اليهود في تفسيره (التفسير القرآني للقرآن) :" وفى ردّة القوم إلى طبائع القردة إشارة إلى النسب الذي بين الإنسان= =وبين القردة فى سلسلة التطور ، وأن القردة درجة نازله فى الخلق المتطور للإنسان .." التفسير القرآني للقرآن – (٥ / ٥٠٨).
فالشيخ هنا قد أيَّد –بدون قصد– نظرية داروين التي تنص على أن أصل الإنسان قرد،ومع كون النظرية قد ردَّها االعلم الحديث،وأثبت بطلانها بالأدلة العلمية القاطعة،فهي كذلك تصطدم مع نصوص القرآن التي تكلمت عن قصة بدء خلق الإنسان المتمثلة بقصة خلق آدم عليه الصلاة والسلام ،فأصل الجنس البشري الذي كرمه الله تعالى ، يبدأ من آدم وحواء عليهما السلام،لا من ذلك الحيوان الوضيع (القرد).

قصد به التهويل والإغراب ؛ فاختيار ما قاله مجاهد هو الأوفق بالعبرة والأجدر بتحريك الفكرة"[1].

والأولى بالإتباع هو القول الأول الذي ذهب إليه جماهير العلماء،لموافقته لظاهر النص،من جهة ،ولما يحمله قوله تعالى**﴿كونوا قردة﴾**من إرادة التحول الحقيقي،وليس المجازي،كما أن هؤلاء القوم المتحايلين على شرع الله تعالى قد مسخت قلوبهم أصلاً قبل أجسامهم،إذ لو كانت قلوبهم سويَّة ما أقدموا على التحايل على أوامر الله بهذه الجرأة،وأيضاً قوله تعالى: **﴿كونوا قردة ﴾** هو كقوله **﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾**[الإسراء : ٥٠]فالمعنى كما قال القرطبي:" أي إن عجبتم من إنشاء الله لكم عظاما ولحماً فكونوا أنتم حجارة أو حديدا إن قدرتم" فالأمر في الآيتين سواء في إرادة التحول الحقيقي وليس المجازي.

سادساً:هل سيقع مسخ في الأمة:

لقد تظاهرت الأخبار بوقوع المسخ في هذه الأمة ، بين يدي الساعة ،وهو مقيَّد في أكثر الأحاديث بأصحاب الغناء ، وشرّاب الخمر ،وكثرة الفواحش وشيوعها بين الناس ونذكر هنا بعض هذه الأحاديث:

١- عن أبي مالك الأشعري : سمع النبي . صلى الله عليه وسلم . يقول : **(ليكونن في أمتي أقوام يستحلون الحِرَ والحرير والخمر والمعازف ، ولينزلن أقوام إلى جنب علم[2] ، يروح عليهم بسارحة لهم ، يأتيهم لحاجة ، فيقولون : ارجع إلينا غداً ، فيبيِّتهم الله[3] ، ويضع العلم ، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة).** [4]

٢- و عن عائشة – رضي الله عنها – عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : **(يكون في آخر هذه الأمة خسف ومسخ وقذف " قالت : قلت : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : " نعم ، إذا ظهر الخبث)**[5]

٣- عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **(ليستحلن طائفة من أمتي الخمر يسمونها إياه)** .وفي الحديث زيادة بلفظ :

(يعزف على رؤوسهم بالمعازف والمغنيات ، يخسف الله بهم الأرض ، ويجعل منهم القردة والخنازير.)[1]

---

[1] تفسير المنار – (١ / ٢٨٥).

[2] هو الجبل العالي،انظر: فتح الباري ،ابن حجر – (١٠ / ٥٥)

[3] يهلكهم ليلاً. شرح صحيح البخارى ، لابن بطال – (٦ / ٥٢)

[4] صحيح البخاري ،كتاب (الأشربة) – باب ٥ (ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه) (٥ / ٢١٢٣) ح(٥٢٦٨).

[5] سنن الترمذي،كتاب(الفتن) ،باب ٢١ (ما جاء في الخسف) ،(٤ / ٤٧٩) ح(٢١٨٥) ،قال الشيخ الألباني:صحيح.

فمن علامات الساعة وأماراتها التي أخبر بها الرسول صلى الله عليه وسلم : كثرة الزلازل ، وظهور الخسف ، والقذف ، والمسخ ، وهذه الأحاديث السابقة فيها وعيد شديد للعصاة من أهل المعازف ،وشاربي الخمور بأن يعاقبهم الله تعالى بهذه العقوبات أو ببعضها على عصيانهم وتمردهم ،وما أكثر شيوع هذه المعاصي في زماننا،حيث أصبحت شائعة على العلن في بلاد المسلمين،حيث الحفلات الغنائية الماجنة،والمهرجانات المختلطة،غفلةً منهم،وجهلاً بعقوبتها،فالواجب على الحكومات وأولي الأمر والمصلحين من الدعاة وأهل العلم،أن يشدوا من عزمهم،ويضاعفوا من جهدهم، لمحاربة هذه الظواهر الخطيرة المرضية،وأن يخففوا من هذا الخبث النتن،حتى ننجو من هذا العقاب الذي توعد الله تعالى به من استحقه.

المطلب السادس: تسليط جند الله عليهم إلى يوم القيامة:

لقد سبق الله تعالى بعلمه أن اليهود سيستمرون إلى قيام الساعة في سلوك ذات الطريق المعوجة التي سلكها أسلافهم ،وسيواصلون الخطوَ في سبيل الانحراف والعناد والتكذيب التي خطاها آباؤهم،غير معتبرين بمصيرهم وعاقبتهم، ودون محاولة لتغيير ما بأنفسهم من الفسوق والطغيان الموروث عن أسلافهم؛ولذلك قضى الله تعالى ،وحكم بجريان العقوبات عليهم إلى يوم القيامة،جزاء تعدِّيهم على حدوده،وتجاوزهم لأوامره.

يقول تعالى:﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ [الأعراف : ١٦٧]

أولاً:وقفات مع دلالات الآية:

أ- اختلف المفسرون في معنى قوله"تأذَّن" :

١- قال ابن عباس: تأذن ربك قال ربك.

٢- وقال مجاهد: أمر ربك.

٣- وقال عطاء: حكم ربك.

٤- وقال الطبري :تأذن أي أعلم[٢]

ولا يرى الباحث تناقضاً بين هذه الأقوال،لأن اختلاف المفسرين فيها اختلاف تنوع لا تضاد،ويمكن الجمع بينها، فإذا كان الله تعالى أعلم اليهود بإمضاء عذابه لهم إلى يوم القيامة ، فهذا الإعلام يلزم منه أن يكون الله تعالى قد حكم وقضى عليهم بهذا العذاب،ويلزم من الحكم أن يأمر الله تعالى بإنفاذه في اليهود.

---

[١] سنن ابن ماجه، كتاب (الفتن)،باب ٢٢(العقوبات) - (٢ / ١٣٣٣)، ح(٤٠٢٠) قال الشيخ الألباني : صحيح.

[٢] انظر :جامع البيان في تأويل القرآن - (٥ / ٢٠٤).

وصيغة التفعل تفيد المبالغة فى الإعلام ، فيكون معنى " تأذَّن " : أعلم إعلاماً واضحاً بليغاً لا التباس معه ولا شبهة،وهذا أدعى في إقامة الحجة عليهم،حيث وصلهم البيان واضحاً غير مشتبه،وهذا كقوله تعالى : **﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾** [إبراهيم : ٧].[١]

ولذلك فإن الآية السابقة هي إعلام لليهود في عصر النبوة، تذكرهم بما قضاه الله عليهم ،وما أوجبه على نفسه،من تسليط العذاب الشديد المؤلم عليهم،وإلحاق الذل والصغار بهم، " فهو إِذْنُ الأبد الذي تحقق منذ صدروه؛ فبعث الله على اليهود في فترات من الزمان من يسومهم سوء العذاب ، والذي سيظل نافذاً في عمومه ، فيبعث الله عليهم بين آونة وأخرى من يسومهم سوء العذاب،وكلما انتعشوا وانتفشوا وطغوا في الأرض وبغوا ، جاءتهم الضربة ممن يسلطهم الله من عباده على هذه الفئة الباغية النكدة ، الناكثة العاصية ، التي لا تخرج من معصية إلا لتقع في معصية؛ ولا تثوب من انحراف حتى تجنح إلى انحراف . ."[٢]

ب- لفظ "يسومهم" مشتق من السَّوْم ،ومن أصوله اللغوية إفادة معنى الدَّوامُ ، ومنه : سائِمَةُ الغَنَم لمداومتها الرَّعْيَ ومنه قوله تعالى :**﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾** أي: ترعون أنعامكم [٣]، فعلى هذا المعنى يكون المراد بقوله تعالى "يسومهم " أي يديمونَ تعذيبهم وإهانتهم بأصناف العذاب الشديد المؤلم،واستخدام الآية لهذه اللفظة هو قمة البلاغة؛لأنها جمعت بين معنيين في آن واحد،المعنى الأول دوام العذاب عليهم واستمراره ، والمعنى الثاني إهانتهم واحتقارهم بتشبيههم بالدواب التي يسوقها الراعي إلى البريِّة ،ليطعمها وليس لها همٌّ إلا الطعام والشراب،فحال اليهود في استمراء العذاب واعتياده كحال الدواب لا تنفك ترعى في المراعي على الدوام.

كما أن اللفظة بإفادتها معنى المداومة ،وبمجيئها بصيغة المضارعة الدالة على الاستقبال ،منسجمة مع ما قبلها وهو قوله"إلى يوم القيامة"،في إفادة معنى الدوام والاستمرار ،وبهذا تتعاضد وتتناغم الألفاظ في الآية لإفادة المعنى المراد.

ج-استخدم القرآن لفظ "السَّوْم" مسنداً إلى كاف الخطاب في قوله تعالى: **﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾** [البقرة : ٤٩]

هذه الآية تبين نعمة الله على بني إسرائيل في إنجائهم من عذاب فرعون، وعبر القرآن عن هذا العذاب الشديد بقوله"يسومونكم سوء العذاب"؛لكنَّ بني إسرائيل كفروا النعمة كعادتهم

---

[١] التفسير الوسيط،لسيد طنطاوي- (٥ / ٢٤٠).

[٢] فى ظلال القرآن،لسيد قطب - (٣ / ١٣٨٦).

[٣] معجم مقاييس اللغة لابن فارس - (٣ / ١١٨) تاج العروس ،للزبيدي- (٣٢ / ٤٣٠).

،ورفضوا اتباع نبيهم موسى عليه الصلاة والسلام،فعبدوا العجل،وقالوا أرنا الله جهرة،ورفضوا دخول الأرض المقدسة،وغير ذلك من الكبائر التي اجترحوها،وعاقبهم الله عليها ،فبسبب معاصيهم المتكررة التي لم يندموا عليها ،قضى الله عليهم العذاب إلى يوم القيامة،يسومهم إياه جندٌ من جند الله،عذاباً شديداً مشابهاً في شدته واستمراره وهوله لعذاب فرعون الذي كان يسومهم إياه،جزاء وفاقاً.

ثانياً:الآية من دلائل صدق النبوة

تعتبر الآية من دلائل صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم،لأن وعيد الله تعالى لليهود قد تحقق في القرون التي سبقت وتلت نزول هذه الآية، فالإعلام قد كان لليهود القدامى، والمعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم وقد أشار الإمام الرازي إلى دلالة الآية على صدق النبوة فقال:" وهذه الآية نزلت في اليهود على أنه لا دولة ولا عز ، وأن الذل يلزمهم ، والصغار لا يفارقهم، ولما أخبر الله تعالى في زمان محمد صلى الله عليه وسلم عن هذه الواقعة، ثم شاهدنا بأن الأمر كذلك، كان هذا أخباراً صدقاً عن الغيب ، فكان معجزاً"[١]

والمتأمل للتاريخ يلمس كيف انطبقت الآية على تاريخهم السابق للبعثة النبوية أو اللاحق لها،إلى عصرنا الحالي،حيث بعث الله عليهم من يسومهم سوء العذاب،من التقتيل والتشريد في البلاد،والفناء لممالكهم ومُلكهم،ووقوعهم أسرى وعبيد في يد الشعوب الأخرى

ثالثاً:عقوبات اليهود قبل البعثة النبوية:

أولا : بعد وفاة سليمان – عليه الصلاة السلام – حوالى سنة ٩٧٥ ق.م انقسمت مملكته إلى قسمين : مملكة في الشمال ومملكة في الجنوب وهذا الانقسام بين بني إسرائيل في دولتين أدى إلى نشوء نزاعات وصراعات بينهما ، انتهت بانقضاض ملك آشور على مملكة الشمال سنة ٧٢١ق.م ، حيث قتل آلافاً من الرجال ، وأخذ البقية أسرى أذلاء ، وقضى على هذه المملكة قضاء لم تقم لها بعده قائمة .

وأما مملكة الجنوب فقد كانت نهايتها على الملك يد نبوخذ نصر البابلى، حيث فرض عليها حصاراً استمر عامين ، استسلمت على إثره ودمرت سنة ٥٨٦ق.م.

ثانيا : ما إن استعاد اليهود شيئاً من قوتهم بعد وقوعهم تحت حكم الفرس حوالى سنة ٥٣٦ ،حتى سار إليهم (بطليموس) خليفة الإسكندر ، فهدم القدس ، ودك أسوارها ، وساق منهم مائة ألف أسير إلى مصر ، بسبب ثوراتهم المتكررة .

ثالثاً : فى سنة ٢٠ق. م تقريبا وقع اليهود تحت حكم السلوقيين ، الذين رأوا من اليهود تمرداً وعصياناً ، فأنزلوا بهم أشد العقوبات فى عدة مواقع ، حيث قاموا بمهاجمة القدس ،وهدم

---

[١] مفاتيح الغيب – (١٥ / ٣٥).

أسوارها،ونهب ما فيها من أموال ،وقتل من أهلها أربعين ألفا وباع مثل ذلك العدد عبيدا منهم، ولم يفلت من يده إلا اليهود الذين هربوا في نواحي البلاد .

رابعاً : فى سنة ٦٣ق.م أغار الرومان على القدس فاحتلوها ، واستمر احتلالهم حتى سنة ٦١٤م ، وخلال احتلال الرومان لفلسطين قام اليهود بعدة ثورات ،باءت كلها بالفشل ، ولقوا بسبب تمردهم وعصيانهم من الرومان ألواناً من القتل ،والسبى، والتشريد ، كان من أشهرها ما أنزله بهم " تيطس الرومانى " سنة ٧٠م فقد اقتحم فى هذه السنة القدس فدمرها تدميراً ، وقتل الآلاف من اليهود.[1]

رابعاً:عقوبات اليهود في عهد النبوة:

بعدما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ،شقَّ على اليهود اتساع نفوذ المسلمين في المدينة ،بعدما كوَّنوا دولة وسلطة ،وامتلأت صدورهم غيظاً وحنقاً على الإسلام وأهله، فلم يتركوا وسيلة من وسائل الكيد للإسلام والمسلمين إلا دبروها ،وقد حاول النبي صلى الله عليه وسلم إصلاحهم وثنيهم عن مكائدهم، إلا أنهم لم يلتفتوا إلى ذلك ؛ فعاقب صلى الله عليه وسلم كل طائفة منهم بالعقوبة التى تتلائم مع جرمها وخيانتها ،وبهذا عاش المسلمون فى مأمن من شرورهم ومكائدهم.

ونقف مع بعض العقوبات التى أنزلها النبى صلى الله عليه وسلم باليهود في حياته:

١- **إجلاء يهود بني قينقاع:** حيث كانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم من عهود، وسبب حرب المسلمين إياهم أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق بن قينقاع وجلست الى الصائغ ،فجعلوا يريدونها على كشف وجهها ،فأبت فعمد الصائغ الى طرف ثوبها فعقده الى ظهرها ،فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا ، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ،وكان يهودياً فشدت اليهود على المسلم فقتلوه فاستغاث أهل المسلم المسلمين على اليهود ،فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع ، فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس عشرة ليلة، حتى نزلوا على حكمه،فأجلاهم النبي صلى الله عليهم عن المدينة[2]

٢- **إجلاء يهود بني النضير:**في سنة أربع من الهجرة حاصر النبي صلى الله عليه بني النضير بعدما حاولوا اغتياله، فتحصنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع النخيل ،والتحريق فيها، فقذف الله في قلوبهم الرعب، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم، ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح

---

[1] انظر: التفسير التفسير الوسيط،لسيد طنطاوي- (٤/٥١).

[2] انظر:السيرة النبوية ،لابن إسحاق - (١ / ١٠٩) السيرة النبوية،لابن هشام - (٣ / ٣١٥).

،ففعل فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل فكان الرجل منهم يهدم بيته ثم تفرقوا فمنهم الذين خرجوا الى خيبر ومنهم من سار الى الشام[1]

وقد أنزل الله تعالى في شأن هذه العقوبة قرآن حيث يقول تعالى:**﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾** [الحشر : ٢]

٣- **القضاء على بني قريظة:**وفي السنة الخامسة من الهجرة كان نقض بني قريظة لعهدهم مع النبي صلى الله عليه وسلم ،حيث تآمروا مع الأحزاب في حربهم على المدينة،وكشفوا ظهر المسلمين من ناحيتهم،لكنَّ الله رد كيدهم إلى نحورهم،وهزم الأحزاب جميعاً، فسار إليهم النبي صلى الله عليه وسلم وحاصرهم خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب ،حتى نزلوا عند حكم النبي صلى الله عليه وسلم وطلبوا منه أن يحكِّم فيهم سعد بن معاذ ،فوافق على طلبهم، فحكم سعد أن تقتل الرجال ،وتقسم الأموال، وتسبي الذراري والنساء ، فخُندقت لهم الخنادق، ثم ضربت أعناقهم في تلك الخنادق، وهم ستمائة أو سبعمائة[2] ،وقد نزل في شأن هذه العقوبة قرآناً ،حيث قال تعالى**﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا *وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾**[الأحزاب:٢٦،٢٧]

٤- **هزيمة يهود خيبر:**وفي السنة السابعة للهجرة كانت غزوة خيبر ،وهي الغزوة الفاصلة التي قضت على النفوذ اليهودي في جزيرة العرب ، حيث أيد الله تعالى فيها المسلمين ونصرهم رغم قلة عددهم، وكثرة عدوهم المدعم بعدده وعتاده ،وكانت خيبر هي وكر التآمر، ومركز إثارة الحروب، فكانت هي الجديرة بالتفات المسلمين إليها ،وسار جيش المسلمين ليلاً إلى مشارف خيبر ،وظهرت حصونها ،فعسكروا حولها، ووقف النبي صلى الله عليه وسلم أمام أصحابه يدعو الله تعالى، وفي الصباح استيقظ أهلها ليجدوا أنهم محاصرون ،ومحاطون بعسكر المسلمين، فدبَّ في نفوسهم الرعب واستعدوا للحرب، ثم نادى النبي صلى الله عليه وسلم بصوت ارتجت له حصون الكفر وقال: "الله أكبر خربت خيبر" فرددها الصحابة خلفه، فأيقن اليهود أنهم مغلوبون، ونشب القتال بين الفريقين ،واستمر أياماً حتى تداعت حصون خيبر الواحد بعد الآخر ، فلما أيقن اليهود بالهلاك ،سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يوقف الحرب، واستسلموا على أن لا يقتل منهم أحداً ،ويتخلوا عن حصونهم كلها بما فيها من أموال

---

[1] انظر:السيرة النبوية ،لابن هشام – (٤ / ١٤٤-١٤٥) .

[2] انظر: السيرة النبوية لابن هشام – (٤ / ١٩٨).

ومتاع.[1] ولقد كان من آخر الكلمات التى نطق بها الرسول صلى الله عليه وسلم قبل وفاته قوله موصياً أصحابه (**أخرجوا اليهود من جزيرة العرب لا يبقى فى جزيرة العرب دينان**)[2]

وفى عهد عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – تم إخراج جميع اليهود من جزيرة العرب ، استجابة لوصية الرسول صلى الله عليه وسلم .

العصور والأمم ، هو أن اليهود هم المسئولون عن كل اضطهاد وقع بهم ، وأنهم مستحقون لهذه العقوبات وذلك لأسباب عديدة:

أولاً: أطماعهم التى لا حدود لها،وانتهابهم لخيرات الدول التي كانوا يحلون بها، وجشعهم وأكلهم أموال الناس بالباطل،عن طريق المعاملات الربوية التي تمتص أموال الطبقة الفقيرة ظلماً وعدواناً.

٢- غرورهم وتعاليهم حيث يعتبرون أنفسهم ، شعب الله المختار ، وهم يقسمون الناس إلى قسمين : قسم إسرائيل وهم صفوة الخلق وأصحاب الحظوة عند الله،وقسم آخر يسمونه (الجوييم) أى غير اليهود ومعنى (جوييم) عندهم،وثنيون وكفرة وبهائم وأنجاس،وقد أدى هذا الغرور والتعالى باليهود إلى إهدار كل حق لغيرهم عليهم، وأن من حق اليهود أن يسرقوا من ليس يهودياً ،وأن يغشوه ويكذبوا عليه ويقتلوه إذا أمنوا اكتشاف جرائمهم ، وقد أشار القرآن الكريم إلى تلك الرذيلة التى تمكنت من اليهود بقوله:**﴿ وَمِنْ أَهْلِ الكتاب مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً ذلك بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأميين سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الكذب وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾** [آل عمران : ٧٥]

٣- اضطهادهم لغيرهم متى ملكوا القدرة الظاهرة أو الخفية لذلك ،وتاريخ اليهود أسود ملطخ بجرائم القتل والذبح،والنهب،والسلب،والغدر ،والبطش بغيرهم،وحافل بالمجازر التي قاموا بها ضد الشعوب التي كان لهم النصر عليها ، وقد ساعدهم على ذلك ما أمرتهم به كتبهم من قتل، وإذلال لغيرهم متى واتتهم الفرصة.

واليهود اليوم أصبح لهم دولة على أرض فلسطين المغتصبة،ويتمتعون بقوة غاشمة،تدعمها القوى الغربية الظالمة المنحازة ،وفي ظل هذا الواقع الذي استعلى فيه اليهود،وقويت شوكتهم ،أصبحنا نرى طبيعتهم العدوانية تطفو على السطح من جديد،هذه الطبيعة التي تظهر كلما امتلكوا القوة على العدوان والفساد، وتجسدت هذه الطبيعة في واقعنا بما ارتكبوه من جرائم منذ اللحظة التي احتلوا فيها أرضنا فلسطين يوم النكبة ، حيث ارتكبوا كثيراً من المجازر كمجزرة دير ياسين، وكفر قاسم، وصبرا وشاتيلا،والمجازر التي لا تحصى خلال الانتفاضتين الأولى والثانية،وأخيراً وليس بآخر الحرب على غزة عام ٢٠٠٨ م التي

---

[1] المصدر السابق – (٤ / ٢٩٧)

[2] مسند أحمد بن حنبل – (٦ / ٢٧٤)،ح (٢٦٣٩٥) ،قال شعيب الأرنؤوط : صحيح لغيره

ارتقى فيها آلاف الشهداء،وأصيب فيها آلاف الجرحى،وهدمت فيها البيوت ،وخربت المزارع والمنشئات،وغير ذلك من الجرائم الكبرى التي تفضح هؤلاء المحتلين،وتكشف عمَّا تُكنِّه صدورهم من حقد وبغي على البشرية عامة ،وعلى المسلمين خاصة.

وقد يبدو للبعض أن هذا الوعيد لليهود قد توقف بسبب ما نرى لهم الآن من دولة وصولة ولكن الذي نعتقده أن هذا الوعيد ما توقف مع ما لهم من دولة،فما زال المرابطون المجاهدون من أهل فلسطين قائمين على ثغر الجهاد، يواجهون هذا العدو اليهودي بكل ما أوتوا من قوة،وما زالت الضربات من المجاهدين على أرض فلسطين توجع هذا العدوّ، وتهز كيانه،وتؤلم جنوده، فهو يعيش في قلق، واضطراب، وخوف، فلا ينعم بالأمن والاستقرار، ولا يهدأ له حال، لا في الداخل ولا في الخارج،استمراراً لوعد الله تعالى في الآية الكريمة.

أما دولتهم فإنها أمر عارض مؤقت زائل بإذن اللّه، لثقتنا بوعد اللّه ،وهذه الدولة لم تقم إلا بسبب بُعد المسلمين عن إسلامهم ،وعدم أخذهم لأسباب التمكين في الأرض ،فكانت النتيجة أن أقام اليهود دولتهم فى قلب البلاد الإسلامية،وحينما يعود المسلمون إلى الأخذ التام الكامل بتعاليم دينهم ،تعود إليهم عزتهم المسلوبة وكرامتهم المغصوبة بإذن الله.

المطلب السابع: تحريم بعض الطيبات:

أولاً:أسباب عقوبة تحريم الطيبات:

أخبر الله تعالى أنه عاقب اليهود بتحريم كثير من الطيبات التي أحلها لهم،وبين أن سبب هذه العقوبة هو ظلمهم واعتداؤهم على الآخرين،وصدهم الناس عن سبيل الله،وكذلك تضليلهم وإغواؤهم بكتمان الحق والهدى عنهم،وأخذهم الربا المحرم،وأكلهم الأموال بطريق الباطل، وأخذ الرشا استغلالاً للمحتاجين،قال تعالى: **﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾** [النساء : ١٦٠ ، ١٦١]

قال السعدي" أخبر تعالى أنه حرم على أهل الكتاب كثيرا من الطيبات التي كانت حلالاً عليهم، وهذا تحريم عقوبة بسبب ظلمهم واعتدائهم، وصدهم الناس عن سبيل الله، ومنعهم إياهم من الهدى، وبأخذهم الربا وقد نهوا عنه، فمنعوا المحتاجين ممن يبايعونه عن العدل، فعاقبهم الله من جنس فعلهم فمنعهم من كثير من الطيبات التي كانوا بصدد حلها، لكونها طيبة، وأما التحريم الذي على هذه الأمة فإنه تحريم تنزيه لهم عن الخبائث التي تضرهم في دينهم ودنياهم."(١)

ثانياً:خطورة أكل الربا:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ،ص ٢١٣.

وأكل الربا يعرض صاحبه لحرب الله ورسوله،فيصير عدواً لله ورسوله،ومعرضاً لسخط الله وغضبه كما تعرض له اليهود قال الله تعالى : **﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾** [البقرة : ٢٧٩]

قيل المعنى :إن لم تنتهوا فأنتم حرب لله ولرسوله ، أي أعداء [١] ،فهي الحرب بكل صورها النفسية والجسدية ، وما الناس فيه الآن من قلق واكتئاب ،وغم وحزن ،إلا من نتاج هذه الحرب المعلنة، لكل من خالف أمر الله وأكل بالربا أو ساعد عليها ، فليجمع سلاحه إن استطاع ، وليعلم أن عقاب الله آتٍ لا محالة إن آجلاً أو عاجلاً .

ثالثاً:دلالة وصفهم بـ "الذين هادوا":

الآية فيها تعجيب من حال هؤلاء الظالمين،فإن الله تعالى قد ذكَرَهم بوصف "الذين هادوا" ،أي تابوا من عبادة العجل من دون الله،فكيف يصدر من تائب رجع إلى ربه مثل هذه الكبائر العظيمة،ووصْفهم "بالذين هادوا" أيضاً فيه تعريض بأن التوبة التي تابوها كانت توبة غير صادقة لا ندم فيها على المعصية ولا عزم على الاستقامة،بدليل أنهم عادوا إلى المعاصي العظيمة والكبائر المحرمة وأصروا عليها إصراراً،والدليل على ذلك أن الله تعالى لا يوقع عقوبة على أحد يصدق في توبته،وإنما يوقعها على من أصر على المعصية وجاهر بها وهذا كان حال أولئك اليهود الظالمين.

رابعاً:معنى التحريم الوارد في الآية:

والتحريم الوارد في الآية يحتمل أمرين[٢]:

١- **إما أن يكون تحريماً قدرياً**:أي أن الله تعالى قد قدر عليهم إزاغة قلوبهم بعد أن زاغوا، فحرفوا وبدلوا في كتبهم أشياء كانت حلالاً لهم،فحرموها على أنفسهم تضييقاً لما وسعه الله عليهم من الطيبات.

وهذا التضييق قد حرمه الإسلام ونهانا عنه الله تعالى في كثير من الآيات،وبين أنه لا يجوز أن يحرم المسلم على نفسه طيبات أحلها الله تعالى له ،قال تعالى:**﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾** [المائدة : ٨٧]،وعاتب نبيه صلى الله عليه وسلم حينما حرم على نفسه بعض أزواجه فقال تعالى:**﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** [التحريم : ١]

فأمر التحريم خاص بالله سبحانه فهو الذي يشرع الحلال والحرام،وهو أعلم بمصالح العباد،وأدرى بما ينفعهم وما يضرهم،فإن حرم المسلم شيئا أحله الله تعالى فإن هذا التحريم

---

[١] الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي - (٣ / ٣٦٣).

[٢] انظر: تفسير القرآن العظيم،لابن كثير - (٢ / ٤٦٧).

يمثل اعتداء على حدود الله، لا يقل جرماً عمن استحل حرمة من الحرمات التي حرمها الله تعالى،بمعنى أن استباحة المحرمات وتحريم الطيبات كلاهما منهي عنه لا يجوز اقترافه وتشريعه،لأن حق التشريع خالص لله تعالى.

٢- **أن يكون تحريماً شرعياً**:على معنى أن الله تعالى قد حرم عليهم في التوراة أشياء كانت حلالاً لهم قبل ذلك ،بمعنى أنه لم يتنزل فيها تحريم في التوراة، ثم نزل التحريم بعد الظلم العظيم الذي صدر منهم.

وهذا التفسير للتحريم هو الأرجح ،والأقرب لسياق الآيات،لأن الله تعالى قد أضاف التحريم إليه بقوله"حرَّمنا"،أي أنزلنا التحريم في التوراة ولو كان قدرياً لقال "حرَّموا" والله أعلم.

خامساً:تفصيل الطيبات المحرمة:

فصَّل الله تعالى وبيَّن في سورة الأنعام الطيبات المحرمة، بعد إجمالها في سورة النساء،حيث قال تعالى: **﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾** [الأنعام : ١٤٦]

عددت الآية الكريمة أصناف الطيبات التي حرمها الله على اليهود بسبب بغيهم،وبينت أن هذا التحريم كان خاصاً بهم دون غيرهم من الأمم،دليل ذلك تقديم الجار والمجرور على متعلقه في قوله**﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا﴾** وهذا يفيد الاختصاص والحصر،وهذا الاختصاص يبين أن اليهود قد تجاوزوا في معاصيهم كل الحدود،وكانوا أكثر تمرداً على أوامر الله تعالى ممن سبقهم من الأمم،فخصوا بعقوبات لم تتنزل إلا عليهم.

ونوضح فيما يلي تفسير هذه المحرمات بشيء من الاختصار:

١- "**ذي الظفر**" : العظم الذي تحت الجلد في منتهى أصابع الإنسان والحيوان والمخالب ، وهو يقابل الحافر والظلف ،ويكون للإبل والسّبع والكلب والهرّ والأرنب والوبْر ونحوها.

٢- "**والشّحوم**" : جمع شحم ، وهو المادّة الدُهنية التي تكون مع اللّحم في جسد الحيوان ، وقد أباح الله لليهود أكل لحوم البقر والغنم وحرم عليهم شحومهما إلاّ ما كان في الظهر .

٣- "**الحوايا**" معطوف على "ظهورهما" : فالمقصود العطف على المباح لا على المحرّم ، أي : أو ما حملت الحوايا ، وهي جمع حَوِيَّة ، وهي الأكياس الشَّحميّة التي تحوي الأمعاء

٤- "**ما اختلط بعظم**": هو الشّحم الذي يكون ملتفّاً على عَظْم الحيوان من السِّمَن فهو معفوٌّ عنه لعسر تجريده عن عظمه .[١]

❖ مناسبة الآية لما قبلها:

---

[١] انظر: التحرير والتنوير ، لابن عاشور – (٨ / ١٤٢).

سُبقت الآية السابقة بقوله تعالى:**﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** [الأنعام : ١٤٥]

ذكر العلماء وجوه التناسب بين الآيتين وهي وجوه يحسن ذكرها في هذا الموضع،حيث يذكر الإمام البقاعي وجهي تناسب بين الآيتين:

أحدهما: بيان اطلاعه صلى الله عليه وسلم على تفصيل ما أُوحي إلي من تقدمه ،ولم يشامم[١] أحداً من أتباعهم ،ولا دارس عالماً، ولا درس علماً قط ، فلا دليل على صدقه على الله أعظم من ذلك .

والثاني: تفضيله هذه الأمة بأنه أحل لها الخبائث عند الضرورة رحمة لهم ، وأزال عنها في تلك الحالة ضرها ولم يفعل بها كما فعل باليهود في أنه حرم عليهم طائفة من الطيبات ولم يحلها لهم في حال من الأحوال عقوبة لهم ، وفي ذلك أتم تحذير لهذه الأمة من أن يبغوا فيعاقبوا كما عوقب[٢]

---

[١] أي يقارب،يقال شامَمْتُ فلاناً إذا قارَبْتَه وتَعَرَّفْتَ ما عنده بالاخْتبار والكشف. انظر:لسان العرب ، لابن منظور – (١٢ / ٣٢٥).

[٢] انظر: نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور – (٢ / ٧٣٧).

المبحث الثالث

عقوبات الإنذار الحسية لفرعون وقومه

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول:قصة هذه العقوبات.

المطلب الثاني:العقوبات السبع والحكمة منها.

العقوبة الأولى: الأخذ بالسنين.

العقوبة الثانية: نقص الثمرات.

العقوبة الثالثة: الطوفان.

العقوبة الرابعة: الجراد.

العقوبة الخامسة : القمل.

العقوبة السادسة:الضفادع.

العقوبة السابعة: الدم.

المطلب الثالث: أسباب العقوبات السابقة.

المبحث الثالث

عقوبات الإنذار الحسية لفرعون وقومه

المطلب الأول:قصة هذه العقوبات:

عرض القرآن الكريم قصة الصراع بين موسى عليه الصلاة والسلام ،وفرعون ومن معه من الملأ المستكبرين،وقد تعددت حلقات هذا الصراع،فكان أحد حلقات هذا الصراع هو التخاصم بالحجة والبرهان الذي تميز بجرأة موسى عليه الصلاة والسلام في الصدع بالحق ،والدعوة إلى التوحيد،والإصرار على تخليص بني إسرائيل من براثن العذاب الذي كان فرعون وملؤه يسومونهم إياه،وفي المقابل ظهر بكل وضوح ضعف حجة فرعون وملئه، وميلهم إلى لهجة التهديد والوعيد ،وهي عادة المعاندين عندما تعييهم الحجة،فإنهم يركنون إلى قوتهم وسطوتهم قال تعالى: **﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ *أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ *وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ* قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ *قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ *قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ *قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ *قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ *قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾** [الشعراء : ١٦ – ٢٩]

وتأتي الحلقة الثانية من حلقات الصراع الإيماني وهي وتتمثل بالتحدي الذي وقع بين موسى عليه الصلاة والسلام وبين السحرة بإيعاز من فرعون،وعلى مرأى ومسمع من قوم فرعون، وكان الميعاد في يوم الزينة، حين احتشد الناس في مشهد مهيب،ليشهدوا الفصل بين المعسكرين،معسكر الكفر، ومعسكر الإيمان،ويروا من المنتصر في هذه المعركة العقائدية الفاصلة،ويأتي الموعد وتقع المبارزة المعروفة التفاصيل،وينتصر موسى بقدرة الله على السحرة المجتمعين ،الخبيرين بطرق السحر والشعوذة،قال تعالى: **﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ *قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ *قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ* فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ**

الْغَالِبُونَ * فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ [الشعراء : ٣٨ – ٤٦]

لكنّ فرعون وملأه لم يؤمنوا لموسى عليه الصلاة والسلام ولم يعترفوا بهزيمتهم بعد تلك المعجزة الباهرة التي آمن على إثرها علماء السحرة ، وتآمروا من جديد على موسى وبني إسرائيل،واجتمعوا على كلمة واحدة وهي مواصلة النهج السابق في سوم بني إسرائيل أشد ألوان العذاب،من تقتيل الأولاد وامتهان النساء في الخدمة،وصد الناس عن دين الله تعالى،وقد ذكر القرآن ما قرره فرعون وملؤه بعد الهزيمة النكراء التي تلقوها فقال تعالى:**﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾** [الأعراف : ١٢٧]

أى : قال الزعماء والوجهاء من قوم فرعون له ، بعد أن أصابتهم الهزيمة والخذلان فى معركة الطغيان والإيمان ، قالوا له على سبيل التهييج والإثارة : أتترك موسى وقومه أحراراً آمنين فى أرضك ، ليفسدوا فيها بإدخال الناس فى دينهم ، أو جعلهم تحت سلطانهم ورياستهم وكيف تدعهم طلقاء يفسدوا رعيتك وقومك، ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك،وتصبح أنت بلا عبادّ يعبدونك، وياللعجب ! صارت بطانة السوء تشفق من إفساد موسى وقومه! شأنها شأن كل بطانة وحاشية فاسدة تجتمع حول رأس فاسد من رؤوس الضلال،تأمره بالمنكر وتنهاه عن المعروف،وتدعي حرصها على مصلحة الرعية،وهي في الحقيقة منتفخة الجيوب على حسابها.

ولذلك فالبطانة الحسنة الناصحة هي خير ذخر للإمام المسلم، توجهه للخير،والصلاح ،والرشاد، وتحرص على ما فيه الخير للأمة،ويكون همُّها الوحيد مصلحة الناس والسعي في حوائجهم،لذلك نبَّه النبي صلى الله عليه وسلم الخلفاء والأمراء أنهم محاطون ببطانتين،بطانة خير وبطانة سوء ،فقال في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه : **(ما من وال إلا وله بطانتان بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر وبطانة لا تألوه خبالا فمن وقي شرها فقد وقي وهو من التي تغلب عليه منهما)**(١)

وهذا حال الأنبياء،فكيف بالأمراء والولاة الذين هم محط أنظار الطامعين ممن يسعون لتحقيق مصالحهم ،ومآربهم الشخصية،ويدَّعون النصح للأمام، وهم في الحقيقة لا يريدون الخير إلا لذواتهم وشخوصهم.

فأنت ترى أن ما قاله الملأ من قوم فرعون هو منطق حاشية السوء فى كل عهود

(١) سنن الترمذي ، كتاب (الزهد) ،باب ٣٩ (ما جاء في معيشة أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم) – (٤ / ٥٤٩) ح(٢٣٦٩). قال الشيخ الألباني : صحيح.

الطغيان،فهم يرون أن الدعوة إلى وحدانية الله إفساد فى الأرض ؛ لأنها ستأتى على بنيانهم من القواعد ؛ولأنها هى الدعوة إلى وحدانية الله التى ستحرر الناس من ظلمهم وجبرتهم ، وتفتح العيون على النور الذى يخشاه أولئك الفاسقون .

وترى أن ما قاله فرعون هو منطق الطغاة المستكبرين دائماً ، فهم يلجئون إلى قوتهم المادية ليحموا بها آثامهم ، وشهواتهم ، وسلطانهم القائم على الظلم ، والبطش ، والمنافع الشخصية.

لكن الله تعالى كان لفرعون وملئه له بالمرصاد ،"ولما بلغ ظلمه نهايته جاءت سنة الله وقضى الملك أن يخفض هذا الفرعون ويزول ملكه ويرفع هذه الأمة المستضعفة أمة بني إسرائيل.وإذا أراد الله أمراً هيأ له أسباباً حيث ولد موسى عليه السلام وتربى في قصر فرعون .. ولما كبر موسى عليه السلام آتاه الله العلم والحكمة كما هو شأن كل الأنبياء.

فنصح فرعون بلطف و لم ينتصح له كعادة الظالمين والمتجبرين في كل العصور،ثم جاءت النذر والانذارات لفرعون وآله فتعاقبت عليهم المجاعات والسنون ونزل عليهم الدم وأذتهم كثرة القمل والضفادع وأكل حرثهم الجراد ..وحتى أخذهم الطوفان وأغرقوا في اليم وهو مليم.ولمل تمت الحجة ولم يبق للظالمين عند الله عذر سقطت الحضارة الفرعونية وفق نفس السنن التي سقطت بها غيرها من الحضارات سقوطاً لم تنهض منه إلى الأبدوهلك فرعون وآله استئصال وتلك عاقبة الظالمين"[1]

المطلب الثاني:العقوبات السبع والحكمة منها:

بعد أن أصر فرعون على كفره وصده عن سبيل الله،وتعذيب بني إسرائيل بألوان العذابات، بدأت العقوبات الإنذارية الصارمة تتنزل على فرعون وقومه؛ردعاً لهم عن غيهم؛ورفعاً للظلم الواقع على بني إسرائيل،وآيةً لهم لعلهم يؤمنوا بالله تعالى ، حيث قال الله تعالى في شأن ذلك:

قال تعالى :﴿ **وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ** ﴾ [الأعراف : ١٣٠ – ١٣٦]

---

[1] نحن والحضارة الغربية،أبو الأعلى المودودي،ص٧٤.

وهذه العقوبات السبع المذكورة في الآية ،هي جزء من الآيات التسع المذكورة في سورة الإسراء في قوله تعالى:**﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾** [النمل : ١٢]

واختلف العلماء في تحديد هذه الآيات التسع على آراء:

١- قال ابن عباس في رواية ، ومجاهد، وعكرمة والشعبي، وقتادة: هي يده، وعصاه، والسنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.

٢- وقال ابن عباس في رواية أخرى: هذه الآيات التسع، هي: العصا، واليد، والسنون. والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات

٣- وجعل بعضهم الجبل بدل "السنين" وعليه فقد بين ذلك قوله تعالى: **﴿وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾** [الأعراف : ١٧١]

٤- وجعل الحسن البصري "السنين ونقص الثمرات" واحدة، وعنده أن التاسعة هي: تلقف العصا ما يأفكون. **﴿ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾** [الأعراف: ١٣٣][1]

هذه آراء المفسرين في تحديد الآيات،ويرى الباحث أن أرجح هذه الأقوال هو القول الأول،لأن الآيات التسع التي اعتمدها هذا الرأي قد حدثت في مشهد ومرأى من فرعون وملئه، فقد شاهدوها وعاينوها ،وهذا مقصد الآيات التي يرسلها الله تعالى للناس ،أن يروها فتقوم عليهم الحجة ،فإما أن يؤمنوا،وإما أن يصروا على كفرهم ،أما القول الثاني فقد عدَّ انفلاق البحر آية، وهو في الحقيقة عذاب وهلاك لفرعون وجنده، وآية لبني إسرائيل لا لفرعون وجنده ،والآية السابقة من سورة النمل نصَّت على كون الآيات التسع لفرعون وجنوده،فثبت أن انفلاق البحر ليس ضمن الآيات التسع،والرأي الثالث يرد عليه بمثل الرد السابق على الرأي الثاني، إذ إن نتق الجبل آية لبني إسرائيل لا لفرعون وملئه،لاسيما أنها وقعت بعد هلاك فرعون وجنوده،ورأي الحسن البصري رحمه الله بجعل تلقف العصا ما يأفكون آية فيه نظر ،لأنه مندرج تحت آية العصا ذاتها.

حددت آيات الأعراف السابقة العقوبات الإنذارية السبع التي أصابت فرعون وقومه والحكمة منها،وهي مع كونها عقوبات شديدة إلا أنها أيضاً تعتبر دلائل وعلامات على صدق نبوة موسى عليه الصلاة والسلام،فجمعت بين المعجزات والعقوبات،وهذا أدعى إلى الإيمان والتسليم، وَوَصف القرآن الآيات السبع بأنها مفصلات ،أي قد فُصِل بينها، فكان بعضها يتلو بعضًا، فعن ابن عباس قال:" فكانت آيات مفصلات بعضها في إثر بعض، ليكون لله الحجة عليهم، فأخذهم الله بذنوبهم، فأغرقهم في اليمّ."[2]

---

[1] انظر: تفسير القرآن العظيم،لابن كثير – (٥ / ١٢٤)

[2] جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري – (١٣ / ٦٩).

فلم يأت بها جل وعلا كلها مجتمعة مع بعضها البعض،لتفزعهم دفعة واحدة، وتختبرهم أيعلنون الإيمان أم لا؟ بل جاء سبحانه بكل آية مُفصلة عن الأخرى، فلا توجد آية مع آية أخرى في وقت واحد،مما يدل على موالاة الإنذارات للرغبة في أن يَذّكروا،وأن يرتدعوا،فلو اذَّكروا وارتدعوا من آية واحدة ،لكف عنهم سبحانه البأس،لكن القوم استمروا في غيهم حتى جاءهم العذاب القاصم.

ونستعرض فيما يلي هذه العقوبات السبع مع ذكر اللطائف المستفادة منها:

العقوبة الأولى: الأخذ بالسنين:

قال تعالى:**﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾**[الأعراف : ١٣٠]

والسنين تعنى الجدب ، وهذا مشهور فى اللغة ، يقال : أصابتهم سنة ، أى : جدب والتقدير : جدب سنة ، وفى الحديث (**اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف**)[١] والسَّنة هنا بمعنى الجدب،لا بمعنى الحول ، ومنه أسنت القوم ، أى أجدبوا وقحطوا .[٢]

والغالب استعمال السنة في العام الذي فيه قحط ومجاعة قال الراغب " وأكثر ما تستعمل السنة في الحول الذى فيه الجدب، يقال أسنت القوم أصابتهم السنة"[٣]

وفحوى العقوبة المرسلة أن الله تعالى سلط عليهم القحط والجدب،وضيق العيش،وقلة المطر الذي تحيى به الأراضي الزراعية،وهذه الحال هي أشبه بالمجاعة التي تصيب بعض البلدان بسبب تأخر الأمطار.

وقد أوضحت الآية بجلاء الحكمة من هذه العقوبة في قوله**﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾** أي لعلهم يثوبون إلى رشدهم،ويرجعون عن غيهم وظلمهم لبني إسرائيل،ويدركون ضعفهم وصغارهم أمام قوة خالقهم سبحانه، و المحن من شأنها أن ترقق القلوب ، وتصفى النفوس ، وترغب فى الضراعة إلى الله ، وتدعو إلى اليقظة والتفكير، ومحاسبة النفس على الخطايا اتقاء للبلاء، إلا أن قوم فرعون لم ينتفعوا بهذا الأخذ والامتحان،وإنما تمادوا في كفرهم وضلالهم حيث أخبر الله تعالى عمَّا قالوه عقب الجدب والقحط:**﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾**[الأعراف : ١٣١ ، ١٣٢]

---

[١] صحيح البخاري ،كتاب (الجهاد والسير)،باب ٩٧(الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة)-(١ / ٣٤١)،ح(٢٧٧٤).

[٢] الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي - (٧ / ٢٦٣).

[٣] مفردات غريب القرآن - (١ / ٢٤٥).

والمعنى "فإذا جاءت أمة فرعون الحسنة، أي الخصب ونماء الرزق من الثمار والمواشي قالوا: لنا هذا نستحقه بعلمنا ومعرفتنا وتفوقنا، وإن تعرّضوا لسيئة: وهي ما يسوءهم من جدب وقحط، تشاءموا بموسى ومن معه، وقالوا: هذا بسببهم وما جاؤوا به، وغفلوا عن واجب شكر نعمة اللّه ،وعن سيئاتهم وفساد أعمالهم، وشرور أنفسهم."[1]

العقوبة الثانية:نقص الثمرات

وهي العقوبة الثانية من العقوبات السبع،وهي مترتبة على الأولى،حيث كان من نتيجة القحط والجدب أن نقصت الثمار ،وقلت المحاصيل روى ابن أبي حاتم في تفسيره: "كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة"[2] وهذا بسبب نزع البركة من طعامهم وزروعهم.

العقوبةالثالثة:الطوفان:

بعد أن استمر القوم في الكفر والضلال،وبعد أن نسبوا الفضل في الإنعام والرزق لأنفسهم، لا إلى الله تعالى أنزل الله تعالى عليهم عقوبة ثالثة وهي الطوفان الذي غشيهم، وأفسد عليهم عيشهم قال تعالى:﴿ **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ** ﴾ [الأعراف : ١٣٣]

وقد اختلف المفسرون في المراد بالطوفان على أقوال:

١- أن المراد بالطوفان الماء :فعن ابن عباس قال: "لما جاء موسى بالآيات، كان أول الآيات الطوفان، فأرسل الله عليهم السماء." وعن مجاهد قال: "الطوفان"، الماء، "والطاعون"، على كل حال.

٢- الموت: جاء عن مجاهد قال: "الطوفان"، الموت.

٣- وقيل كان أمرًا من الله طاف بهم: عن ابن عباس قال: أمرُ الله الطوفان، ثم قرأ﴿ **فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ** ﴾ [القلم: ١٩].

٤- وقال بعضهم: هو كثرة المطر والريح،وهو قريب من الرأي الأول[3]

قال الألوسي:" أي ما طاف بهم وغشى أماكنهم وحروثهم من مطر أو سيل ،فهو اسم جنس من الطواف ...وقد اشتهر في طوفان الماء "[4] وقال القرطبي"أي المطر الشديد حتى عاموا فيه"[5] والظاهر والله أعلم أن الطوفان هو الماء المتناهي في الكثرة سواء كان هذا الماء بسبب الماء الغالب الذي يغشي كل شيء ،فيدمره تدميراً كما يحدث في حالات السيول الجارفة، أو فيضانات الأنهار المغرقة ،أو انصهار الجليد، أو تفجر الماء من تحت سطح

---

[1] التفسير الوسيط، للزحيلي – (١ / ٧١٢– ٧١٣).

[2] تفسير القرآن العظيم، لابن أبى حاتم – (٥ / ١٥٤٢).

[3] انظر : جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري – (١٣ / ٥٠–٥٢).

[4] روح المعاني – (٩ / ٣٣).

[5] الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي – (٧ / ٢٦٧).

الأرض ،أو طغيان البحار، وأغلب الظن هنا أن السبب في طوفان قوم فرعون كان كثرة الأمطار المغرقة، والسيول الجارفة التي أتلفت الزروع والأشجار ودمرت المساكن والمنشآت والطرقات.

ومن اللطيف ذكره أن الله تعالى قد أرسل عليهم هذا الطوفان الجارف،بعد سنين القحط التي كانوا يتمنون فيها الماء ،ليتخلصوا من الجفاف العارم الذي اجتاح البلاد، وأرسل الله تعالى إليهم الماء الذي طال انتظاره ،لكن لا لينجيهم من القحط والجدب ، وإنما ليتسبب في كارثة أخرى تنضم إلى الكوارث السابقة،ليدمر ما تبقى من ثمارهم ودورهم وبساتينهم،عقوبة لهم وزجراً لهم عن غيهم.

واليوم ونحن نرى الأعاصير، والفيضانات، وأمواج المد البحري، وغير ذلك من الكوارث المائية الضارية التي يرسلها الله تعالى وفق إرادته على من يشاء،يجب أن نقف معها وقفة المتدبر المتأمل،ونعلم بأن هذه الكوارث ليست مجرد ظواهر طبيعية لا معنى لها ولا حكمة من ورائها كما يحلو لبعض الماديين تصويرها،وإنما هي ظواهر تدل على قدرة الخالق سبحانه وتعالى،وضعف البشر أمامها .

"ولكن المكذبين الظالمين في غفلة ساهون،فلا يرون العلاقة الوثيقة بين الاعتقاد القلبي وسلوك الأفراد والجماعات،وواقع الحياة؛لأنها علاقة غيبية لا تدرك بحاسة السمع ،أو البصر، والظالمون والماديون منهم خاصة أغلظ حساً ،وأغبى خلق الله في فهم حقائق الغيب، وإن ظهرت نتائجها فهم لا يبصرونها ،فلا يفطنون إلى السنن الجارية السائرة وفقها حياة المجتمعات، بل يوعزون كل التقلبات الحضارية إلى أيام الدهر، ويعللونها تعليلات مادية ،ونحن مؤمنون فلا نفسر القضايا إلا تفسيراً إيمانياً قائماً على الحجة والإقناع ،لا على الخرافة والميتافيزيقيا أو الإجحاف والجحود"[(١)] وأن هذه المحن ورائها حكم إلهية،فهي توقظ الغافل من سكرته وغفلته ،حتى ينطرح ذليلاً صاغراًً، يتضرع إلى ربه لكي ينجيه من هول المصيبة،وهي كذلك توقف الظالم عن غيه وضلاله وظلمه،وتنبه المظلوم أن الله تعالى لا يدع الظالم ،وإنما يمهله حتى إذا أخذه لم يفلته،إلى غير ذلك من الحكم التي لا يعلمها إلا الله تعالى

العقوبة الرابعة:الجراد:

وهي العقوبة الرابعة بعد الطوفان الجارف،ويبدو أن هذه العقوبة قد جاءت بعد أن انتهى الطوفان،وبذر الناس زرعهم حتى كبر ونمى وترعرع،إلى أن جاءت النازلة والكارثة المتمثلة بالجراد،وهو جندي من جنود الله تعالى يسلطه على من يشاء من عباده كما قال في كتابه﴿**وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾ [الفتح : ٤]، وقال أيضاً:﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ** ﴾ [المدثر : ٣١]،وقد أخبر النبي صلى الله عليه

---

(١) سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها،محمد هيشور،ص٢٣٦.

وسلم أن الجراد هو جند الله الأعظم كما في الحديث:(**لا تقتلوا الجراد فإنه جند الله الأعظم**)[١] .

والجراد هو الحشرة المعروفة واحدها جرادة ، وهو اسم مستمد من الفعل(جرد) بمعني أزال وكشف، وعَرَّي ، يقال: جَرَد الجرادُ الأرضَ جرداً أي أكل جميع ما عليها من نبات حتي تجردت من غطائها الأخضر ،كما(يجرد) المرء عن ثيابه[٢]

وخلق الله تعالى الجراد خلقاً عجيباً محكماً،تتمكن من خلاله من قرض طعامها بسهولة وسرعة، ويمكِّنها كذلك من التحرك لمسافات طويلة على شكل أسراب كثيفة العدد، يقول الدكتور زغلول النجار في واصفاً الجراد وصفاً علمياً:" تتميز الحشرات فيها بالفم القارض، والأجنحة المستقيمة، وبالقدرة الفائقة للحشرة البالغة علي التجمع في أسراب كبيرة،والهجرة عبر مسافات طويلة،ويتراوح طول الحشرة البالغة من الجراد بين السنتيمتر والعشرة سنتيمترات، ويصل عدد الجراد المهاجر في السرب الواحد إلي عشرات البلايين، مما يجعله يغطي مساحة تقدر بأكثر من ألف كيلومتر مربع، بكتلة تقدر بآلاف الأطنان، ويأكل مثل

هذا السرب في اليوم الواحد قدر وزنه من المزروعات، ومن هنا كانت تسمية هذه الحشرة الخطيرة باسم غيرها"[٣]

"وحركة الجراد حركة منظمة وليست عشوائية،وذلك حتى تتمكن من استهداف أمكنة طعامها بدقة متناهية وتتحرك أسراب الجراد بانضباط شديد تحت قيادة صارمة، فتتحرك مقدمة السرب قبل مؤخرته باستمرار، وتحط قبلها حتي تحدد اتجاه السرب ،ومواقع الهبوط، ولحظات الانطلاق في كل يوم."[٤]

والعلم قد توصل إلى معرفة دورة حياة الجراد ،لكن لا يستطيع التنبؤ بهجماته على المناطق الزراعية ،رغم التقدم العلمي الحالي " وعلي الرغم من علمنا بدورة حياة الجراد إلا أن غاراته لا يمكن التنبؤ بها قبل بدئها،فقد يبقي الجراد في منابته الأصلية ويقوم بتكاثر محدود دون هجرة لفترات طويلة ودون الخروج من أسرابه المعتادة، ثم يعاود تسارع تكاثره بشكل ملحوظ وتنظيم أسرابه لمفاجأة البدء بالهجرة الجماعية، ومنابت الجراد ليست دائمة باستمرار ،

---

[١] المعجم الأوسط، للطبراني – (٩ / ١١١) ،ح(٩٢٧٧) قال الألباني:(حسن)

[٢] لسان العرب ، لابن منظور – (٣ / ١١٥) معجم مقاييس اللغة لابن فارس – (١ / ٤٠٣)
تاج العروس للزبيدي من جواهر القاموس ،للزبيدي– (٧ / ٤٨٨)

[٣] موقع أنصار السنة،مقال للدكتور زغلول النجار في تفسير قوله تعالى:﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد...﴾
http://www.ansarsunna.com

[٤] المصدر السابق،نفس المقال.

بل تتغير من فترة إلي أخري، وإن كانت هناك أحزمة معروفة لغزوات الجراد كما أن هناك أحزمة محددة تكثر فيها الهزات الأرضية."[١]

فهذه الحشرة الصغيرة في حجمها،الخطيرة في أثرها، ما هي إلا جندي من جنود الله تعالى يسخرها على من يشاء من عباده، تبصرة للمؤمنين،وعقاباً للمجرمين أمثال فرعون وقومه،وابتلاءً للصالحين.

العقوبة الخامسة :القُمَّل:

وبعد إصرار القوم على ظلمهم،وعدم خضوعهم لأوامر الله ،أرسل الله عليهم عقوبة أخرى وهي "القمَّل"،واختلف المفسرون في المراد بـ"القمَّل" الذي سلطه الله تعالى على قوم فرعون ،أهو حشرة أصابت أجساد القوم،أم آفة أتلفت الزروع والبساتين:

١- قال ابن عباس : القمَّل السوس الذي في الحنطة.

٢- وقال ابن زيد : البراغيث.

٣- وقيل : الحمنان وهو ضرب من القراد، واحدها حمنانة ،فأكلت دوابهم وزروعهم ولزمت جلودهم، كأنها الجدري عليهم ،ومنعهم النوم والقرار.

٤- وقيل : القمل الجعلان والقمل عند أهل اللغة ضرب من القردان .[٢]

وقال النحاس : "وليس هذا بناقض لما قاله أهل التفسير لأنه يجوز أن تكون هذه الأشياء كلها أرسلت عليهم ،وهي أنها كلها تجتمع في أنها تؤذيهم"[٣]

والصحيح أن القمَّل هو غير القَمْل " فالقَمْل هو الآفة التي تصيب الإنسان في بدنه وثيابه وتنشأ من قذارة الثياب ، أما القُمَّل فقيل هو السوس الذي يصيب الحبوب ، ومفردها قُمَّلَة ، وقيل هو ما نسميه بالقراد ، وقيل هو الحشرات التي تهلك النبات والحرث ، وحين نراه نفزع ونبحث عن تخليص الزرع منه باليد والمبيدات ، وكل ذلك من تنبيهات الحق للخلق ، وهي مجرد تنبيه وإرشاد ولَفْتٌ للالتفات إلى الحق ."[٤]

العقوبة السادسة: الضفادع:

ثم أرسل الله عليهم العقوبة الخامسة وهي الضفادع فملأت أوعيتهم، وأقلقتهم، وآذتهم أذية شديدة ،يضع الواحد منهم يده في شيء فيجد فيها الضفادع؛ يجدها في آنية الطعام والشراب، وفي المياه التي يشربها وعلى فراشه، ومكان اتكائه ،وفي الشوارع، والطرقات، والأماكن العامة،وهذا قد سبب لهم قلقاً نفسياً شديداً،وخروج عن العادة ،والحياة الطبيعية ،زد

---

[١] موقع أنصار السنة،مقال للدكتور زغلول النجار في تفسير قوله تعالى:﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد...﴾ http://www.ansarsunna.com

[٢] انظر : الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي - (٧ / ٢٣٧).

[٣] معاني القرآن،النحاس - (٣ / ٧٠).

[٤] تفسير الشعراوي - (١ / ٣٠٢٣).

على ذلك الأصوات المزعجة التي تسببها الضفادع ،وخاصة ذكورها،مع ما تسببه الضفادع من أمراض خطيرة تفتك بجسم الإنسان "ونقيق الضفادع من الأصوات المزعجة للإنسان لأنه يسمع عبر مسافات طويلة تقدر بالأميال والكيس الصوتي المتضخم للذكر في بعض أنواع الضفادع قد يزيد في طوله علي بقية الجسم مما يضاعف من شدة نبرات نقيقه، ليس هذا فقط بل إن بعض الضفادع قد يحمل للإنسان عددا من الفيروسات التي تصيب كلا من الكبد والكلي، ولذلك كان من الأخطار التي تهدد حياة الإنسان "[١]

العقوبة السابعة :الدم:

وهو معروف وهو آخر العقوبات الإنذارية التي حلَّت بالقوم قبل أخذهم بعذاب الاستئصال،واختلف المفسرون في الدم الذي عوقبوا به:

١- فقال بعضهم هو الرعاف قاله زيد بن أسلم[٢]

٢- وأكثر المفسرين أن ماءهم الذي كانوا يشربون انقلب دماً، فكانوا لا يشربون إلا دماً، ولا يطبخون إلا بدم.

وقد وردت عدة روايات في شأن عقوبة "الدم" –نذكرها على سبيل الاستئناس– تصور الحال التي كان عليها قوم فرعون حين ابتلوا بالدم، حيث تذكر الروايات أن الإسرائيلي والقبطيّ كانا يأتيان النيل فيستقيان، فيخرج للإسرائيليّ ماءً، ويخرج للقبطي دمًا، ويقومان إلى الحُبِّ فيه الماءُ، فيخرج للإسرائيلي في إنائه ماء، وللقبطي دم.[٣]

وكانوا إذا ما استقوا من الأنهار والآبار، وما كان في أوعيتهم، وجدوه دمًا عبيطًا[٤]، فشكوا إلى فرعون، فقالوا: إنا قد ابتلينا بالدم، وليس لنا شراب، فقال: إنه قد سحركم[٥]

وهذه الآيات المشتملة علي العقاب بالطوفان الذي يؤدي إلى الهدم والغرق، ثم بالجراد الذي يأكل الأخضر واليابس من النباتات ،والثمار ،والمحاصيل، ثم بالقمل الذي يقضي علي المخزون من الحبوب والمحاصيل ،وينقل العديد من الأمراض، ثم بالضفادع التي تزيل النوم من الجفون بنقيقها المزعج ، ثم بالدم النتن المليء بالنفايات الجسدية ،والفيروسات،والجراثيم التي تجعل الحياة مستحيلة ،هي صورة من صور العذاب الإلهي الشامل لمجموعة من الكافرين والمشركين، والغلاة المتجبرين ،والماكرين المخادعين،الذين كانوا إثر كل عقوبة تنزل

---

[١] موقع أنصار السنة،مقال للدكتور زغلول النجار في تفسير قوله تعالى:﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد...﴾ .http://www.ansarsunna.com/

[٢] انظر :جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري – (١٣ / ٦٨).

[٣] انظر :المصدر السابق – (١٣ / ٦٧).

[٤] شديد السيولة و التصيب. انظر :معجم مقاييس اللغة لابن فارس– (٤ / ١٧٢).

[٥] تفسير القرآن العظيم،لابن كثير – (٣ / ٤٦٥).

بهم، يهرعون إلى موسى، طالبين منه أن يدعو ربه ليكشف عنهم العذاب،ويقولون:إن كشفت عنا العذاب آمنا بك ،وحررنا بني إسرائيل من العذاب،لكنهم كانوا يخادعون ويمكرون،ويقولون بأفواههم غير ما في قلوبهم ،فكان موسى عليه الصلاة والسلام في كل مرة يدعو ربه أن يكشف عنهم العذاب، فيستجيب الله تعالى وتنكشف العقوبة عن قوم فرعون،لكنهم كانوا في كل مرة لا ينجزون وعدهم الذي وعدوه لموسى عليه الصلاة والسلام ،وهذه طبيعة المكابر الجاحد والكافر بآيات الله قال تعالى:**﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾** [الأعراف : ١٣٤ ، ١٣٥]

وقال في الزخرف:**﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ* وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ* فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُون ﴾** [الزخرف : ٤٨ – ٥٠]

"أي أنهم كانوا كلما نزل بهم البلاء ، وأحاط بهم الكرب ، جاءوا إلى موسى يسألونه أن يرفع عنهم هذا البلاء ، على أن يؤمنوا باللّه الذي يؤمن به هو ، ويدعوهم إليه .. وفى قوله تعالى: **﴿ يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ﴾** إشارة كاشفة عما فى نفوسهم من إصرار على الكفر ، وإن نطقت ألسنتهم بالإيمان .. فهم لا يرون فى موسى إلا ساحراً كبيراً، وأنه قادر بسحره هذا على أن يسوق إليهم البلاء ، وأن يمسكه إذا شاء،فهم بهذه الصفة يتعاملون معه،أما دعواه بأنه رسول من رب العالمين ، فهذا ادعاء لم يصحّ عندهم ، وإن قبلوه منه ، فهو إلى أن ينكشف البلاء عنهم .."[1]

وفي النهاية أهلك الله تعالى فرعون وجنوده،وأغرقهم في البحر ،بعد معجزة انفلاق البحر ،ومرور بني إسرائيل سامين عبره ،ثم انطباقه على فرعون وجنوده،فغرقوا وأزال ملكهم وقوتهم التي كانوا يتسلطون بها على بني إسرائيل،قال تعالى:

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ * وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٦ ، ١٣٧]

ومما تقدم يمكننا أن نستنبط دروساً نستفيد منها،ومن هذه الدروس أن الهوى إذا استبد بصاحبه أعماه عن الحق واتباعه،وأن الفراعنة رفضوا الإيمان خوفاً على مصالحهم،وأن الله تعالى يظهر الكفار على حقيقتهم أنهم ناكثوا العهود والمواثيق،كذابون مخادعون،والله تعالى حين يمكن لهؤلاء بعض الوقت يستدرجهم في ذلك فهو يمهل ولا يهمل،فقد أمهل فرعون

---

[1] التفسير القرآني للقرآن،عبد الكريم الخطيب– (١٣ / ١٤٢).

وأركان حكمه ولم يهملهم،ففي النهاية أهلكهم،وإن الله ينصر أولياءه،ويخذل ويهزم أعداءه،والعاقبة للمتقين[1]

المطلب الثالث:أسباب العقوبات السابقة:

ويجدر فيما يلي أن نجمل في نقطتين أسباب العقوبات السابقة التي حلت بفرعون وقومه:

١- طغيان فرعون وتجبره:

حيث استمر فرعون في النهج التعسفي،والسياسة العدوانية الطاغية تجاه بني إسرائيل،فكان يسوق أبناءهم أمام أعينهم ،ومن بين أيادي أمهاتهم ليُذبحوا ويُقتلوا،ثم لا يكفي الأم ألمها على فراق وليدها ،لتساق هي الأخرى للخدمة والأعمال الشاقة، لتوفر الراحة والرفاهية لمن قتل ابنها أمام عينيها،وهذا يمثل قمة الظلم والاستعباد لخلق الله الذين خلقوا أحراراً،والظلم لا يرضاه الله تعالى لأنه حرمه على نفسه وجعله بين عباده محرماً،لذلك نزل العقاب السريع على فرعون وملئه.

٢- استكبار فرعون وعناده:

عناد فرعون واستكباره الذي لا حدود له،وادعاؤه الألوهية من دون الله،وسخريته من دعوة موسى وتكذيبه له ﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَـهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَـهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ**﴾ [القصص : ٣٨ ، ٣٩] فالآيات تحكي التعدي من قبل فرعون على حق الألوهية الذي هو حق خالص لله تعالى وحده، وهذا التعدي مدعاة لإنزال العقوبات الإلهية، لذلك كان من الواجب على الأمة ألا تعرض نفسها لهذا السبب لئلا يحل عليها عذاب الله تعالى.

والواقع الحالي لدساتير الدول الإسلامية المعمول بها ،يحكي التجرؤ على قضية التشريع الذي هو من أخص خصائص الألوهية ،ويظهر ذلك من خلال استبدال كثير من الأحكام الشرعية في جانب المعاملات والأحوال الشخصية،والمعاملات الدولية ،وقوانين السلم والحرب، بقوانين وضعية من صناعة الغرب أو الشرق،وتصرح المواد الدستورية لبعض الدول الإسلامية باعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً رئيسياً للتشريع وهذا يعني أن غيره من المصادر معتمد في التشريع ،وإن كان مصدراً فرعياً،وتعتبر دولٌ أخرى أن الشعب هو مصدر السلطات،وهذا يعني تقديم حكم البشر القاصر عن معرفة مصالح العباد ،على حكم الله تعالى اللطيف الخبير،فالحكم لا بد أن يكون لله وحده ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّـهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ**﴾ [الأنعام : ٥٧] ،ولم تنص دساتير دول أخرى على علاقة التشريع بنظام الحكم وهذا يعني حرية الدولة في اختيار القوانين التي تراها دون ضابط أو إطار ينظم هذه القوانين، والأصل في الدولة المسلمة

---

[1] إن فرعون علا في الأرض،محمد أبو فارس،ص٨٩.

أن تحتكم في نظامها وسياستها لحكم الله تعالى ورسوله لا إلى غير ذلك من القوانين الوضعية والآراء الشخصية القاصرة،وإلا فهي في هذه الحالة معتدية على حق التشريع وبالتالي على صفة الألوهية ويخشى عليها من عذاب الله تعالى.

المبحث الرابع

نقص الموارد الغذائية والتشتت في البلاد

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول:نعم الله على أهل سبأ.

المطلب الثاني:إعراض أهل سبأ وكفرهم.

المطلب الثالث:عقوبات الله لأهل سبأ.

المبحث الرابع
نقص الموارد الغذائية والتشتت في البلاد

إن المجاعات ونقص موارد الغذاء،تعدُّ من العقوبات الإلهية التي سلطها الله تعالى على بعض الأقوام ،بسبب كفرانهم لنعم الله تعالى،وجحودهم لفضل المنعم سبحانه وتعالى،وقد قص علينا القرآن قصة أولئك القوم الذين أسبغ عليهم ربنا نعماً كثيرة،من وفرة المأكل والمشرب،وسعة الأرزاق والأقوات،بالإضافة إلى نعمة الأمن والأمان أثناء تنقلاتهم وأسفارهم،غير أنهم بسبب جهلهم،لم يقابلوا هذه النعم بالشكر والثناء بإخراج حقها من الزكاة والصدقة ،وإنما قابلوها بالنكران والجحود ،واستغلالها في المعاصي،وهؤلاء القوم هم أهل سبأ حيث ذكر القرآن قصتهم وسمى سورة من القرآن باسمهم،قال تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ * وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ *وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [سبأ : ١٥ – ٢١]

المطلب الأول:نعم الله على أهل سبأ:

وتبدأ القصة بوصف ما كان عليه أهل سبأ من سعة رزق،ورغد، ونعيم،فقد كانوا يعيشون في سعة ورغد حقيقي،فالأرض خصبة،والماء من السماء غزير، وقد ارتقوا في سلم الحضارة حتى استطاعوا التحكم في مياه الأمطار الغزيرة التي تأتيهم من كل الجهات، فأقاموا خزاناً طبيعياً بين جبلين،وجعلوا لهذا الخزان أبواباً تفتح وتغلق متى شاءوا، وخزنوا الماء بكميات كبيرة وراء السد ، وتحكموا فيها وفق حاجتهم ، فكان لهم من هذا مورد مائي عظيم ،وقد عرف باسم " سد مأرب " .

ومع وفرة الماء،وخصوبة الأرض ،وحلول البركة،صارت الأرض يانعة مخضرَّة وصفها القرآن الكريم بالجنة لروعتها ،وكثرة ثمارها ،حتى قالوا : كانت المرأة تمشى تحت أشجار تلك البساتين وعلى رأسها المكتل ، يمتلئ من أنواع الفواكه التى تتساقط فى مكتلها دون جهد منها.

وصارت هذه الجنة آية من آيات الله يرونها كل يوم تذكر بالمنعم الوهاب ،وعلامة واضحة على وحدانية الله – تعالى – وقدرته وبديع صنعه ، ووجوب شكره ، والتحرر من معصيته .

ومن نعم الله تعالى على أهل سبأ كذلك نعمة الأمن والطمأنينة ،فكانوا يسافرون ليالي وأياماً في مأمن من أخطار السفر وقطاع الطرق مطمئنين في السير هانئين .

وكم من المسلمين في عصرنا يعيشون في رغد مشابه أو يفوق بأضعاف ما عاشه أهل سبأ من ترف العيش،وأمن وطمأنينة ،خاصة في بلاد النفط ،تلك البلاد المسلمة التي يسودها الازدهار والرخاء الاقتصادي الذي لم يسبق أن مر على تلك البلاد طوال تاريخها،فهل يا ترى اعتبروا بمصير أهل سبأ..؟،وقابلوا هذه النعم الكثيرة بالشكر والتمسك بمنهج الإسلام!!

المطلب الثاني:إعراض أهل سبأ وكفرهم :

أولاً:إرسال الرسل لأهل سبأ:

أرسل الله تعالى لأهل سبأ الرسل يأمرونهم بوجوب الشكر على هذه النعم الكثيرة، **﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾**

والمعنى :وقلنا لهم على ألسنة الرسل، وعلى ألسنة الصالحين منهم ، كلوا من الأرزاق الكريمة ، والثمار الطيبة ، التي أنعم بها ربكم عليكم ، واشكروا له – سبحانه – هذا العطاء ، فإنكم إذا شكرتموه زادكم من فضله وإحسانه فهذه" سماحة في الأرض بالنعمة والرخاء ، وسماحة في السماء بالعفو والغفران ، فماذا يقعدهم عن الحمد والشكران؟ ولكنهم لم يشكروا ولم يذكروا "[(١)]

ثانياً:إعراضهم عن دعوة الرسل:

لم يستجب أهل سبأ لما دعاهم إليه أنبياؤهم والصالحون منهم بوجوب الشكر،بل أعرضوا عن ذلك،وتنكروا لفضل الله تعالى عليهم،ونسبوا الخير إلى أنفسهم،وكأن الخير الذي هم فيه حصل بذكائهم وقوتهم ،لا بتوفيق الله وفضله.

"ولقد فات هؤلاء كغيرهم من ذوي الحضارات الهالكة أن يحصنوا هذه المدنيات الزاخرة والحضارات الزاهية بالإيمان، وحبل الاعتصام بالله ،ويزينوها بالفضيلة ،ويزرعوا فيها روح الاستقامة والعدل والاستمرارية ،ومن سنة الله أن كل حضارة أو مدنية لا تحصن بهذه العوامل والقيم الكريمة ،فمصيرها الدمار والخراب العاجل وعاقبة أهلها العذاب والهلاك."[(٢)]

وتنكر أكثر الخلق عن شكر الله حقيقة أثبتها القرآن الكريم،فإن أكثر الناس لا يشكرون الله تعالى،ولا ينهضون بمقتضيات الشكر التي أوجبها الله تعالى عليهم،لذلك قال تعالى:﴿ **وَقَلِيلٌ**

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب – (٦ / ١١٦).

(٢) سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها،ص٢٤٢.

مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾[سبأ:١٣] ،وقال:﴿ ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾[الأعراف: ١٧] فقليل من الناس من يدرك نعم الله عليه،فيرعاها حق رعايتها،رجاء حفظها،وأداءً لواجبها،بل أكثر الناس ربما غفلوا عن تلك الحقيقة،فأساءوا إلى ربهم ،وأسرف بعضهم في الطغيان،وأوغلوا في العصيان ،وهذا يناقض حقيقة الشكر.

المطلب الثالث:عقوبات الله لأهل سبأ:

إن سنة الله تعالى في عقاب من يكفر نِعمَه لا تحابي أحداً مهما كان،لذلك فإن العقاب قد نزل على أهل سبأ ،لاستحقاقهم له،فبدل أن يشكروا خالقهم ويحمدوه على نعمائه،كفروا نعمه وأعرضوا عن شكره.

وقد عاقب الله تعالى أهل سبأ بعقوبتين :

العقوبة الأولى:محق جنتيهم:

حيث عاقبهم الله تعالى بتبديل النعيم الذي كانوا يقيمون به إلى بؤس وشقاء قال تعالى في وصف هذه العقوبة:

﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ : ١٦]

واختلف المفسرون في المراد بـ"سيل العرم" الذي أرسله الله عليهم :

١- قيل المراد بالعرم المياه.

٢- وقيل: الوادي الذى كان يأتى منه السيل.

٣- وقيل: الجُرَذ أي أنه لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم، بعث على السد دابة من الأرض، يقال لها: "الجُرَذ" نقبته.

٤- وقيل: الماء الغزير فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته، مثل: "مسجد الجامع"[١] والمعنى أرسلنا عليهم سيلاً شديداً مدمراً. [٢]

٥- وقيل هو إشارة للسدود التي كانت مبنية لحجز الماء من خلفها،فيأخذون منها لسقاية زروعهم،فلما جحدوا نعم الله تعالى،أهملوا العناية بتلك السدود، فتصدعت وانهارت ،وسالت على جناتهم فأفسدتها، رُوي هذا المعنى عن ابن عباس.[٣]

وهذه الأقوال متقاطعة ومتشابهة،ومحصلتها أن الله تعالى قد أرسل عليهم ذلك السيل العارم،والفيض الجارف-أياً كان سببه- فسبب دماراً واسعاً ،غيَّر أحوال القوم،وقلب حياتهم رأساً على عقب،وبدل غناهم فقراً،وعزهم ذلاً.

---

[١] جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري - (٢٠ / ٣٨٢).

[٢] انظر :تفسير القرآن العظيم،لابن كثير - (٦ / ٥٠٨).

[٣] انظر :الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي - (١٤ / ٢٥٢).

وقوله : ﴿ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ الأكل : هو الثمر ،ومنه قوله- تعالى-: ﴿فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾ [البقرة : ٢٦٥] أى : ثمرها ، وقيل في معنى "الخمط" قولان:

١- هو ثمر الأراك كما روي عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما من أئمة التفسير[١]

٢- قال أبو عبيدة[٢] : هو كل شجر ذي شوك فيه مرارة .

٥- وقال الزجاج[٣] : "كل نبت فيه مرارة لا يمكن أكله"[٤]

أما "الأثل" فإنه يقال له: الطَّرفاء، وقيل: شجر شبيه بالطرفاء [٥]غير أنه أعظم منها.[٦]

وقوله :﴿وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ والسدر هو شجر النبق ، وقال الأزهري : السدر سدران:

- سدر لا ينتفع به،ولا يصلح ورقه ، وله ثمرة عفصة لا تؤكل وهو الذي يسمي الضال.

- وسدر ينبت على الماء، وثمره النبق، وورقه غسول يشبه شجر العناب.

واختلف في المراد هنا فقيل الثاني،ووصف بقليل لفظاً ومعنى ،فجعل قليلاً فيما بدلوا به لأنه لو كثر كان نعمة لا نقمة ، وإنما أوتوه تذكيراً للنعم الزائلة لتكون حسرة عليهم ، وقيل المراد به الأول حتماً لأنه الأنسب بالمقام ، ولم يذكر نكتة الوصف بالقليل عليه .[٧]

والأظهر والله أعلم الثاني،ويكون المعنى: أن الثمر النافع الوحيد الذي بقي لهم هو السدر ،غير أنه قليل لا يشبع جائعاً ،ولا يغيث ملهوفاً،أبقاه الله لهم لا لينتفعوا به،بل ليذكرهم بالأيام الخوالي الخيِّرات،ليزدادوا حسرة فوق حسرتهم،وبؤساً فوق بؤسهم.

قال ابن كثير رحمه الله:" لما كان أجودَ هذه الأشجار المبدل بها هو السّدْر قال: ﴿وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾،فهذا الذي صار أمر تَيْنك الجنتين إليه، بعد الثمار النضيجة ،والمناظر الحسنة، والظلال العميقة والأنهار الجارية، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء

---

[١] انظر:جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري - (٢٠ / ٣٨٢)

[٢] من أئمة العلم بالأدب واللغة ،مولده ووفاته في البصرة، قال الجاحظ: لم يكن في الأرض أعلم بجميع العلوم منه، وكان إباضياً،من حفاظ الحديث، ولما مات لم يحضر جنازته أحد، لشدة نقده معاصريه، له نحو ٢٠٠ مؤلف، منها (نقائض جرير والفرزدق) و (مجاز القرآن) انظر:الأعلام للزركلي - (٧ / ٢٧٢)

[٣] هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الزجاج النحوي كان من أهل العلم بالأدب والدين المتين ،جميل المذهب والاعتقاد ، أخذ الأدب عن المبرد وثعلب من، وكان يخرط الزجاج، ثم تركه واشتغل بالأدب، فنسب إليه، من تصانيفه معاني القرآن في التفسير وخلق الإنسان وتفسير جامع المنطق، ، وكانت وفاته سنة إحدى عشرة وثلاثمائة في جمادي الآخر انظر:وفيات الأعيان، ابن خلكان - (١ / ٤٩) طبقات المفسرين ، الأدنروي - (١ / ٥٢).

[٤] الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي - (١٤ / ٢٥٢).

[٥] شجر غير مثمر يخرج له عصي. انظر: تاج العروس، للزبيدي - (٢٤ / ٧٢).

[٦] انظر:جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري - (٢٠ / ٣٨٣)

[٧] انظر : روح المعاني ، للألوسي - (٢٢ / ١٢٧).

والسّدْر ذي الشوك الكثير،والثمر القليل؛وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله،وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل "[1]

وكانت نتيجة ذلك الفيضان الكاسح، انقلاب تلك الجنان بجنان من نوع مختلف،يكسوها الجفاف والقحط القاتم،ووصْف الجنتين بعد تدميرهما بذات الوصف"جنتين" من باب المشاكلة وهو كقوله تعالى **﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾** [البقرة : ١٩٤]

" وأشجار البوادي لا تسمى جنة وبستاناً،ولكن لما وقعت الثانية في مقابلة الأولى أطلق لفظ الجنة وهو كقوله تعالى : **﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾**[الشورى : ٤٠]"[2]

والمحصلة أن أهل سبأ قد أعرضوا عن شكر الله تعالى وعن طاعته ، فكانت نتيجة ذلك،أن مزقهم شر ممزق،وبدلت تلك الجنان اليانعة الغناء التى كانوا يعيشون فيها ، بساتين أخرى لا نبات به سوى أشجار لا تثمر إلا كل مُرٍّ ، وأثل لا غناء فيه ولا نفع ، ولم يبق إلا شيء من سدر قليل ،يذكرهم بنعيم سابق، فقد بدل اللّه أفراحهم أتراحاً ،ونعيمهم بؤساً وسرورهم حزناً،وهربت العصافير والبلابل ، وخلفتها البوم والغربان تصيح فوق الخرائب والقصور المتهدمة، فالمقصود هو أن الجحود والبطر ، يؤديان إلى الخراب والدمار ، وإلى زوال النعم وتحويلها إلى نقم.

العقوبة الثانية:التفرق والتشتت في البلاد:

قال تعالى:**﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ *فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾** [سبأ : ١٨ ، ١٩]

تصف الآية الكريمة نعمة أخرى من نعم الله تعالى على أهل سبأ وهي نعمة الأمن والأمان،حيث يسَّر الله عليهم وسائل السفر ومنحهم الأمان والاطمئنان خلال تنقلاتهم، وجعل قرى مرتفعة عامرة بين قراهم وقرى الشام التي بارك اللّه فيها ، وجعل فيها محطات متعاقبة ذات مسافات متناسبة، وقيل لهم: سيروا في طرقات تلك القرى ليالي وأياماً آمنين، لا تخشون جوعاً ولا عطشاً ولا عدوًّا يبطش بكم ، بل تغدون فتقيلون، وتروحون فتبيتون في قـرية ذات

جنان ونهر، وكان أهل سبأ يتبادلون التجارة مع قرى الشام ،وهي القرى التي بارك الله تعالى فيها ،فكانت خطوط تجارتهم آمنة وخالية من قطاع الطرق واللصوص.

---

[1] تفسير القرآن العظيم،لابن كثير– (٦ / ٥٠٨).

[2]الجامع لاحكام القرآن ، للقرطبي –(٢٨٨/١٤).

إلا أنهم – لشؤمهم وضيق تفكيرهم وشقائهم – دعوا ربهم قائلين : يا ربنا اجعل بيننا وبين القرى المباركة ، مفاوز وصحارى متباعدة الأقطار ، بدل تلك القرى العامرة المتقاربة،واستبدلوا الأدنى بالذي هو خير لهم وأصلح.

قال الزمخشري:"بطروا النعمة ، وبشموا[١] من طيب العيش ، وملوا العافية ، فطلبوا الكد والتعب كما طلب بنو إسرائيل البصل والثوم مكان المنّ والسلوى ، وقالوا : لو كان جنى جناننا أبعد كان أجدر أن نشتهيه ، وتمنوا أن يجعل الله بينهم وبين الشأم مفاوز ليركبوا الرواحل فيها ويتزودوا الأزواد ، فجعل الله لهم الإجابة"[٢]

فاستجاب الله دعاءهم ، ومزقهم كل ممزق فى البلاد المتعددة ، فمنهم من ذهب إلى الشام،ومنهم من ذهب إلى العراق، بعد أن كانوا أمة متحدة،يظلها الأمان والاطمئنان،والعيش الرغيد،وصيرهم أحاديث يتلهى الناس بأخبارهم،ويضربون بهم المثل ، فيقولون: "تفرقوا أيدى سبأ".

❖ حقيقة الشكر:

أولاً:فضل الشكر:

والشكر لله يمثل اعتراف بفضله، وإجلال لنعمه، وثناء على عطائه،والشكر يزيد النعم،ويزيل النقم،ويُبلِّغ المنى،والإيمان نصفان: نصف شكر،ونصف صبر، بل قد لا يبعد الأمر إذا قلنا إن الدين كله شكر، فمن شُكْر الله الاعتراف بوحدانيته، والإيمان برسله، والعبادات كلها هي من مظاهر الشكر،فالصلاة شكر، والزكاة شكر، والصوم شكر، والحج شكر، والذكر شكر، قال تعالى: ﴿ **..وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** ﴾ [النحل: ١١٤] ،وقرن تعالى عبادته بالشكر فقال: ﴿ **وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾[العنكبوت:١٧]

وإبراهيم – عليه الصلاة السلام – وصفه الله تعالى بأنه كان أمة قانتًا لله حنيفًا ،وبرأه من الشرك؛لأنه كان شاكرًا لأنعم ربه وأجلها نعمة التوحيد قال تعالى : ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١]، وامتدح الله نوحًا لأنه ﴿ **كَانَ عَبْداً شَكُوراً** ﴾ [الإسراء: ٣]، بل إن الله جل وعلا خلق الخلق وأوجدهم ليشكروه: ﴿**وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ [النحل : ٧٨]

---

[١] أي سئموا، انظر :معجم مقاييس اللغة لابن فارس– (١ / ٢٥١).

[٢] الكشاف – (٣ / ٥٨٧).

ثانياً:تعريف الشكر:

أ.الشكر لغة:

من تعريفات الشكر اللغوية ما ذكره ابن منظور بأن الشكر هو عرفان الإحسان ونشره، وهو مأخوذ من قولك: شكرت الإبل تشْكُر ،إذا أصابت مرعى،فسمنت عليه، والشُّكران خلاف النُكران، والشكر من الله: المجازاة والثناء الجميل، ويُقال: شَكَرَه وشَكَر له يشكُرُ شُكْرًا وشُكْرانًا، ويقال أيضًا: شكرت الله، وشكرت لله، وشكرت بالله، وكذلك شكرت نعمة الله، ورجلٌ شكورٌ، كثير الشكر، وهو الذي يجتهد في شكر ربه بطاعته وأدائه ما وظّف عليه من عبادته[١]

وقال الراغب الأصفهاني: " الشكر تصور النعمة وإظهارها .. ويَّضاده الكفر الذي هو نسيان النعمة وسترها ،ودابة شكور ،مظهرة بسمنها إسداء صاحبها إليها، وقيل أصله من عَينٍ شَكْرَى أي ممتلئة، فالشكر على هذا هو الامتلاء من ذِكْر المُنْعِمِ عليه. "[٢]

ب.الشكر اصطلاحاً:

عرف العلماء الشكر تعريفات عديدة، ووصفوه بأوصاف كثيرة، ومعانٍ لطيفة نذكر، بعضاً منها مما ساقه الإمام ابن القيم في مدارج السالكين :

١- قيل:الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع.

٢- وقيل :هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه .

٣- وقال بعضهم:"هو عكوف القلب على محبة المنعم،والجوارح على طاعته ،وجريان اللسان بذكره والثناء عليه"[٣]

وقد اختار ابن القيم تعريفاً رائعاً للشكر حيث يقول رحمه الله " الشكر ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده: ثناءً واعترافًا، وعلى قلبه شهودًا ومحبة، وعلى جوارحه انقيادًا وطاعة "[٤].

وقال الكفوي[٥]: " الشكر كل ما هو جزاءٌ للنعمة عرفًا، .. والشكر من العبد: عرفان الإحسان، ومن الله المجازاة والثناء والجميل. "[٦]

---

[١] انظر: لسان العرب ، لابن منظور – (٤ / ٤٢٤).

[٢] مفردات غريب القرآن – (١ / ٢٦٥).

[٣] مدارج السالكين – (٢ / ٢٤٤) .

[٤] المصدر السابق– (٢ / ٢٤٤) .

[٥] هو أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء، صاحب (الكليات) كان من قضاة الأحناف، عاش وولي القضاء في (كفه) بتركيا، وبالقدس، وببغداد، وعاد إلى استانبول فتوفي بها،وله كتب بالتركية ،توفي عام ١٠٩٤هـ. انظر: الأعلام للزركلي – (٢ / ٣٨)،معجم المؤلفين عمر كحالة – (٣ / ٣١) .

[٦] الكليات –(١ / ٥٢٣).

ثالثاً:أركان الشكر:

وللشكر قواعد وأركان لا يتحقق الشكر إلا بها، ولا يقوم إلا عليها وهي:

١- خضوع الشاكر للمشكور. ٢- وحبه له.

٣- واعترافه بنعمته . ٤- وثناؤه عليه بها.

٥- وأن لا يستعمل جوارحه فيما يكره .[١]

قال ابن القيم:" فهذه الخمس : هي أساس الشكر وبناؤه عليها فمتى عدم منها واحدة : اختل من قواعد الشكر قاعدة وكل من تكلم في الشكر وحده فكلامه إليها يرجع وعليها يدور"[٢]

فمن فرط في شيء من هذه الأمور ،فقد انتقص من حق الشكر لله رب العالمين.

وقوم سبأ ومن شابههم من المعرضين قد هدموا هذه القواعد،فلم يخضعوا لله تعالى ولم يستجيبوا لأمر رسله،ولم يعترفوا بفضل الله عليهم،ولم يثنوا عليها،بل أعرضوا عن هذا كله كما أخبر عنهم القرآن الكريم،وجحدوا نعمة الله تعالى، ولو أنهم شكروا ،لزادهم الله تعالى من نعمائه لأن الله تعالى يقول: **﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾** [إبراهيم:٧] يقول الطبري في معنى الآية: "ولئن كفرتم أيها القوم نعمة الله، فجحدتموها بترك شكره عليها ،وخلافه في أمره ونهيه ،وركوبكم معاصيه ،إن عذابي لشديد، أعذبكم كما أعذب من كفر بي من خلقي" [٣]

وحكى الله مصارع الأمم التي كفرت نعم الله فقال: **﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ ءامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مّن كُلّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾** [النحل:١١٢]. قال المناوي: "ما زال شيء عن قوم أشد من نعمة لا يستطيعون ردها، وإنما ثبتت النعمة بشكر المنعَم عليه للمنعِم، وفي الحِكم: من لم يشكر النعمة فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها، وقال الغزالي: والشكر قيد النعم، به تدوم وتبقى، وبتركه ينعقد وتتحول، قال الله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾**[الرعد:١١].. فالسيد الحكيم إذا رأى العبد قام بحق نعمته يمن عليه بأخرى ويراه أهلا لها ،وإلا فيقطع عنه ذلك "[٤]

وكما قال الله: **﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيّراً نّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾**[الأنفال:٥٣].قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: إن الله لا يغير ما بقوم

---

[١] انظر:مدارج السالكين – (٢ / ٢٤٤).

[٢] انظر:المصدر السابق ، نفس الصفحة .

[٣] جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري – (١٦ / ٥٢٨).

[٤] فيض القدير – (٣ / ٥٥٦).

من عافية ونعمة، فيزيل ذلك عنهم، ويهلكهم حتى يغيروا ما بأنفسهم من ذلك، بظلم بعضهم بعضاً واعتداء بعضهم على بعض، فتحل بهم حينئذ عقوبته وتغييره"[1]

رابعاً:صور كفرانُ النِّعم:

١- أن يعتقد أن الذي أنعم عليه بتلك النِّعمة فلان من الناس،لا أن يَشكُرَه عليها،ففرق بين شكر الناس،وبين نسبة النّعمة إليهم،فالأول محمود،والثاني مذموم .

٢- أو ينسب النعمة إلى غير المنعم الحقيقي،فينسب النّعمة إلى غير رب العزّةِ سبحانه، كأن يقول هذا من خير فلان وما شابه ذلك ، والخيرُ كلُّه بيدِ الله وحدَه .

٣- أو لا يقبل تلك النعمة ، بأن يردّها أو يحتقرها،كما قال الشاعر الملحد – قبّحه الله – حيث قال : أنا أرفض الإحسان من يدِ خالقي ..

٤- أو يرى أنه أحقُّ بالنّعمة ممن أُنعِم عليه ، فيتّهمَ ربَّه بعدم الحكمة أو الجَوْر والعياذ بالله.

٥- أو يزدري ويحتقر نِعمة الله عليه إذا ما قارنها بما أنعمَ الله به على غيره ، ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **(إذا نظر أحدكم إلى من فُضِّلَ عليه في المال والخَلْق فلينظر إلى من هو أسفلَ منه)**[2]

وفي رواية لمسلم : **(انظروا إلى من أسفلَ منكم ولا تنظروا إلى من هو فَوقَكُم ، فهو أجدرُ أن لا تزدروا نعمةَ الله عليكم .)**[3]

٦- أو يعتقدَ أن إنعامَ الله عليه لكونِهِ أهلا ومستَحِقّاً لتلك النِّعمة .

٧- أو يستعينَ بنِعم الله على معاصيه ، وهذا قبيحٌ لو كان في حقِّ آحادِ الناس ، فكيف وهو في حقِّ المنعم المتفضِّل سبحانه ، ومن بيده الخيرُ أجمع ؟

٨- أو يُسرفْ في مأكله ومشربه وملبسه .

فكلُّ هذا يُنافي شُكرَ النعم، فمن أظلمُ ممن قابل الإحسانَ بالإساءة،والإنعام بالنكران.

وقد دلّنا وأرشدنا رسولُ الهدى صلى الله عليه وسلم إلى أدبٍ من آداب الإسلام في الطعام بقوله صلى الله عليه وسلم : **(إذا وقعت لقمةُ أحدِكم فليأخذْها فَلْيُمِطْ ما كان بها من أذى ، ولْيأكلها ، ولا يَدَعْها للشيطان .)**[4] فهذا يدلُّ على شكرِ النِّعْمَة .

---

[1] جامع البيان في تأويل القرآن – (١٦ / ٣٨٢).

[2] صحيح البخاري ،كتاب (الرقاق) ، باب ٣٠(باب لينظر إلى من هو أسفل منه ..) ، (٥ / ٢٣٨٠)، ح(٦١٢٥).

[3] صحيح مسلم كتاب (الزهد والرقائق) ،بلا تبويب – (٤ / ٢٢٧٥) ح(٢٩٦٣).

[4] صحيح مسلم كتاب (الأشربة)– باب ١٨(استحباب لعق الأصابع والقصعة ..)،(٣ / ١٦٠٥)،ح(٢٠٣٣).

وكان من هديِه صلى الله عليه وسلم أنه ما عاب طعاما قط إن اشتهاه أكله ، وإن كرهه تركه ،بل إنه عليه الصلاة والسلام وَجَدَ تمرةً ملقاة في الطريق فقال :(**لولا أني أخشى أن تكون من تمر الصدقة لأكلتها**)[1]

[1] صحيح البخاري ، كتاب (اللقطة) ، باب ٦ (إذا وجد تمرة في الطريق) ،(٢ / ٨٥٧) ،ح (٢٢٩٩) .

المبحث الخامس

عقوبات الإنذار المعنوية للأمم

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول:الذلة والمسكنة والخزي في الدنيا.

المطلب الثاني:قذف الرعب في القلوب.

المطلب الثالث:اللعن من الله وأنبيائه.

المطلب الرابع:إلقاء العداوة والبغضاء.

المطلب الخامس: الزيغ عن الحق.

المطلب السادس:قساوة القلب.

المبحث الخامس
عقوبات الإنذار المعنوية للأمم

المطلب الأول:الذلة والمسكنة والخزي في الدنيا

أولاً:العزة في الطاعة والذل في المعصية:

إن الله تعالى قد حكم –وهو أحكم الحاكمين- بأن تكون العزة والرفعة في طاعته،واتباع منهجه،والسير على هدي نبيه صلى الله عليه وسلم،والتقيد بأوامر شرعه،فإذا أرد المسلم العزة والكرامة والرفعة، فليطلبها في طاعة الله تعالى،كما أرشدنا ربنا سبحانه حين قال:﴿ **مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا** ﴾[فاطر : ١٠] فكلما ارتقى المسلم في سلم الطاعة،وعرج في معارج القبول عند الله تعالى،زاده الله تعالى عزاً ومكانة،وهذا الأمر كما أنه ينطبق على الفرد المسلم،ينطبق كذلك على الدولة المسلمة،فإنها إن اعتزت بدينها ،وبشرع ربها سبحانه،وطبقت أوامره،ووقفت عند حدوده زاد الله تعالى مكانتها بين الدول،ورفع شأنها بين الشعوب،وصار لها شأن عظيم،ومكانة محترمة.

وعلى النقيض من ذلك فقد حكم الله تعالى بمقتضى عدله أن اقتراف المعاصي،والانسلاخ عن منهجه، يورث الذل والمهانة للمسلم ،ويفقده هيبته بين الخلق،ومكانته الاجتماعية في مجتمعه،قال تعالى:
﴿**سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ** ﴾ [الأنعام : ١٢٤]

وكان الإمام أحمد رحمه الله يدعو و يقول : "اللهم أعزني بطاعتك، ولا تذلني بمعصيتك" [١]،وقال الحسن البصري[٢] :"إنهم وان طقطقت[٣] بهم

---

[١] لطائف المعارف،ابن رجب الحنبلي ،ص١٢٩.

[٢] هو أبو سعيد الحسن بن يسار البصري، تابعي، كان إمام أهل البصرة، وحبر الأمة في زمنه، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك، ولد بالمدينة، قال الغزالي: كان الحسن البصري أشبه الناس كلاماً بكلام الانبياء، وأقربهم هديا من الصحابة، وكان غاية في الفصاحة، تتصبب الحكمة من فيه. أخباره كثيرة، وله كتاب في (فضائل مكة). وتوفي بالبصرة سنة عشر ومائة عن تسع وثمانين سنة.انظر : الأعلام للزركلي. – (٢ / ٢٢٦)، طبقات المفسرين – الأدنروي – (١ / ١٣).

[٣] والطقطقة هي صوت قوائم الخيل على الأرض الصلبة .انظر: لسان العرب ، لابن منظور – (١٠ / ٢٢٥).

البغال،وهملجـــت[1] بهـــم البـــراذين[2]، إن ذل المعصـــية لا تفـــارق قلـــوبهم أبـــى الله عز وجل إلا أن يذل من عصاه"[3]

وقال الفضيل ابن عياض[4] :"إني لأعصى الله فأعرف ذلك في خلق دابتي وجاريتي"[5]

وإذا هان العبد على الله تعالى لم يكرمه أحد،حتى ولو عظمه الناس ،ورفعوا من شأنه بسبب حاجتهم له،أو الخوف منه،فإنهم في واقع الأمر يبغضونه ويحتقرونه وإن أظهروا خلاف ذلك قال ابن القيم رحمه الله تعالى: " ومنها -أي من آثار المعاصي- أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه، وسقوطه من عينه، قال الحسن البصري :هانوا عليه فعصَوه ولو عزوا عليه لعصمهم، وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد كما قال الله تعالى **﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَـهُ مِنْ مُكْرِمٍ ﴾** [الحج : ١٨] وإن عظمهم الناس في الظاهر لحاجتهم إليهم ،أو خوفاً من شرهم ،فهم في قلوبهم أحقر شيء وأهونه ،ومنها أن العبد لا يزال يرتكب الذنوب حتى يهون عليه ويصغر في قلبه ،وذلك علامة الهلاك"[6]

ويعلّق ابن القيم على قوله – تعالى–: **﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾** [الشمس: ٩ – ١٠] فيقول: "والمعنى: قد أفلح من كبّرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها، وقد خسر من أخفاها وحقّرها وصغّرها بمعصية الله، فما صغّر النفوس مثل معصية الله، وما كبّرها وشرّفها ورفعها مثل طاعة الله."[7]

وإن أمـة الإسـلام حـين هوَّنـت مـن أمـر دينها،وقوضـت بنيـان شـرعها أهانهـا الله تعالى،وأسقطها من عيون أعدائها،وجعلها في ذيل الأمم،والواقع شاهد بذلك فإن أمة الإسلام اليوم أصبحت ذليلة بعد عز ،وضعيفة بعد قوة،واجتمعت عليها الأمم اجتماع الوحوش على طرائدها،فالكل ينهش في مقدراتها،ويستولي على خيراتها،ويحتلها إما عسكرياً كما هو الحال

---

[1] سارت بحسن في سرعة وبخترة انظر :لسان العرب ، لابن منظور – (٢ / ٣٩٣).

[2] جمع برذون وهو الجافي الخلقة من الخيل ،الجلد على السير في الشعاب ،والوعر من الخيل غير العرابية ، وأكثر ما يجلب من الروم انظر: تاج العروس للزبيدي – (٣٤ / ٢٤٧).

[3] إغاثة اللهفان،لابن القيم – (١ / ٤٨).

[4] هو أبو على الفضيل بن عياض بن منصور مولده بسمرقند نشأ بالكوفة وبها كتب الحديث ثم انتقل إلى مكة فجاور البيت العتيق ،وكان شيخ الحرم المكي ،من أكابر العباد الصلحاء ،مع لزوم الورع الشديد والجهد الجهيد ودوام الخوف وخلاء الجوف ،كان ثقة في الحديث، أخذ عنه خلق منهم الإمام الشافعي ، مات بمكة سنة سبع وثمانين ومائة وقبره مشهور.انظر مشاهير علماء الأمصار لابن حبان – (١ / ٢٣٥) الأعلام للزركلي – (٥ / ١٥٣).

[5] صيد الخاطر،لابن الجوزي، ص٢١.

[6] الجواب الكافي،ص ٣٨.

[7] المصدر السابق – (١ / ٥٢).

في فلسطين والعراق وأفغانستان،وإما اقتصادياً كما هو حال دول النفط،وإما فكرياً كما هو شأن أغلب الدول الإسلامية،وكل هذا من مظاهر الذلة والمهانة التي حذرنا النبي صلى الله عليه وسلم منها ومن أسبابها قبل أكثر من أربعة عشر قرناً حيث قال في الحديث: **(إذا تبايعتم بالعِينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم ،حتى ترجعوا إلى دينكم)**(١)

وعن ثوبان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها)** فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ **قال** :(**بل أنتم يومئذ كثير ،ولكنكم غثاء كغثاء السيل ،ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن)** فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن **قال** :**(حب الدنيا وكراهية الموت)**(٢).

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم على وعي بهذه السنة الإلهية،ويدركون أن تضييع أمر الله تعالى فيه الذل والضياع فعن جبير بن نفير(٣) قال:" لما فتحت قبرس وفرق بين أهلها فبكى بعضهم الى بعض رأيت أبا الدرداء جالساً وحده يبكي فقلت: يا أبا الدرداء ما يبكيك في يوم عز الله فيه الإسلام وأهله قال:"ويحك يا جبير ما أهون الخلق على الله إذا هم تركوا أمره، بينا هي أمة قاهرة ظاهرة ،لهم الملك تركوا أمر الله عز و جل،فصاروا إلى ما ترى" (٤)

ثانياً:الاعتبار من مصير اليهود:

أخبرنا الله تعالى عظةً لنا وعبرةً عن الذلة الملازمة لليهود طيلة تاريخهم وعن أسبابها،فهم أذلاء حينما كانوا تحت حكم الفراعنة في مصر حيث ساموهم سوء العذاب،وقد كان لهذا أثر كبير في استقرار سمة الذلة في النفس اليهودية، وشاء الله تعالى أن يخلصهم من هذا الذل بإرسال نبيه موسى عليه الصلاة والسلام لاستنقاذهم من فرعون وبطشه قال تعالى :**﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾** [القصص :٥- ٦]

---

(١) سنن أبى داود ،كتاب (الإجارة) باب ٢٠(باب فى النهى عن العينة) ص (٣ / ٢٩١) ح(٣٤٦٤) ،قال الألباني : صحيح.

(٢) سنن أبى داود كتاب (الملاحم)، باب٥ (فى تداعى الأمم على الإسلام)، ص (٤ / ١٨٤) ،ح(٤٢٩٩)، قال الألباني: صحيح.

(٣) هو أبو عبد الرحمن الحضرمي، أسلم في حياة النبي صلى الله عليه و سلم وهو باليمن ولم يره وقدم المدينة فأدرك أبا بكر ثم انتقل إلى الشام فسكن حمص وروى عن أبي بكر وعمر وأبي ذر والمقداد وأبي الدرداء وغيرهم . قال أبو عمر : جبير بن نفير من كبار تابعي الشام ولأبيه نفير صحبة ،مات سنة ثمانين بالشام انظر: الإصابة في تمييز الصحابة – (١ / ٥٣١).

،الثقات لابن حبان – (٤ / ١١١).

(٤) الزهد ،لأحمد بن حنبل،ص١٧٦.

لكن اليهود وكعادتهم لم يقابلوا نعمة الله ومنته بالشكر، بل كفروا أشنع الكفر ، واعتدوا أشد الاعتداء،وقتلوا أنبياءهم، ونشروا عدداً منهم بالمناشير ، وهي فعلة قبيحة بحق دعاة الله المخلصين،وكان الله تعالى لهم بالمرصاد، فألبسهم لباس الذلة والمهانة إلى قيام الساعة ،ومهما بلغوا في العصر الحالي من تقدم عسكري واقتصادي،فإن الذلة ملازمة لهم لا تنفك عنهم،بنص كتاب ربنا سبحانه وتعالى.

وربط القرآن بين دناءة نفوس اليهود ،وبين ضرب الذل عليهم فقال تعالى :**﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾** [البقرة : ٦١]

ومن الواضح أن قصة اعتراضهم على الطعام الواحد كانت متقدمة بزمن طويل على ضرب الذلة والمسكنة عليهم بسبب جرائمهم بحق أنبياء الله تعالى ،والكفر بآياته ،لكن جمع الأمران في آية واحدة لنكتة لطيفة ذكرها سيد قطب رحمه الله تعالى في ظلاله حين قال :" فإن ضرب الذلة والمسكنة عليهم، وعودتهم بغضب الله ، لم يكن – من الناحية التاريخية – في هذه المرحلة من تاريخهم؛ إنما كان فيما بعد،بعد وقوع ما ذكرته الآية في ختامها : **﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله .. ﴾** ، وقد وقع هذا منهم متأخراً بعد عهد موسى بأجيال ،وإنما عجل السياق بذكر الذلة والمسكنة والغضب هنا؛ لمناسبته لموقفهم من طلب العدس والبصل والثوم والقثاء! فناسب أن يكون قول موسى لهم ،**﴿ اهبطوا مصراً﴾** هو تذكير لهم بالذل في مصر ،وبالنجاة منه، ثم هفوة نفوسهم للمطاعم التي ألفوها في دار الذل والهوان!"[١]

ثالثاً:المراد بالذلة والمسكنة والفرق بينهما:

أ. دلالة قوله"ضُربت":

ومعنى ضرب الذلة والمسكنة عليهم أنها لازمة لهم ، ومقضيَّة عليهم ،وأحيطوا بها إحاطة السوار بالمعصم، يقال ضرب الحاكم على اليد أي حمل وألزم ،وهو مأخوذ من ضرب القباب[٢]

وقال صاحب الكشاف : " جعلت الذلة محيطة بهم ، مشتملة عليهم ، فهم فيها كمن يكون في القبة ،من ضربت عليهم ، أو ألصقت به حتى لزمتهم .. كما يضرب الطين على الحائط فيلزمه ، فاليهود صاغرون أذلاء أهل مسكنة ومدقعة[أي فقر شديد] "[٣] .

---

[١] في ظلال القرآن،لسيد قطب – (١ / ٧٥).

[٢] انظر:الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي – (١ / ٤٦٠).

[٣] الكشاف – (١ / ١٧٤).

ب.معنى الذلة والمسكنة:

والذلة هي الهوان والانكسار ودناءة الهمة ،والمسكنة على وزن مَفعلة من السكون ، ومنها أخذ لفظ المسكين ، لأن الهم قد أثقلة فجعله قليل الحركة والنهوض ، لما به من الفاقة والفقر ، والمراد بها في الآية : الضعف النفسي،والفقر القلبي الذي يستولي على الشخص ، فيجعله يحس بالهوان،مهما يكن لديه من أسباب القوة.

ج.الفرق بين الذلة والمسكنة:

والفرق بين الذلة والمسكنة: أن الذلة هوان تجيء أسبابه من الخارج ، كأن يُغلب المرء على أمره نتيجة انتصار عدوه عليه فيذل لهذا العدو .

أما المسكنة فهي هوان ينشأ من داخل النفس نتيجة بعدها عن الحق، واستيلاء المطامع والشهوات عليها ، وتوارث الذلة قروناً طويلة يورث هذه المسكنة،ويجعلها كالطبيعة الثابتة في الشخص المستذل،ولقد عاش اليهود قروناً وأحقاباً مستعبدين لمختلف الأمم،فأكسبهم هذا الاستعباد ضعفاً نفسياً جعلهم لا يفرقون بين الحياة الذليلة والكريمة،بل إنهم يفضلون الأولى على الثانية،ما دامت تجلب لهم غرضاً من أغراض الدنيا،ومهما كثر المال في أيديهم،فإنهم لا يتحولون عن فقرهم النفسي وظهورهم أمام الناس بمظهر البائس الفقير.[١]

وقد يَشكُل على بعض الناس الجمع بين ضرب الذل والمسكنة الدائمين على اليهود وبين قيام دولة لليهود،والواقع أن مقومات الدولة الحقيقية غير متوافرة لهم،فهم في قلق مستمر ،واضطراب دائم، وهم في أمسّ الحاجة دائما إلى الشعور بالطمأنينة والاستقرار، مما أحوجهم إلى الدعم المستمر غير المتناهي اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً، من الدول الكبرى، وعلى رأسها أمريكا،ولذلك فهم يشكلون مصدر قلق وإرباك للعالم كله بسبب سياساتهم العدوانية والعنصرية، لذلك فإن العالم اليوم قد أصبح وأكثر من أي وقت مضى مطلعاً على حقيقتهم ونواياهم الخبيثة،مما زاد من احتقار العالم لهم، وازدرائه لتصرفاتهم.

رابعاً:لطائف بيانية:

إن آية البقرة ليست الوحيدة التي تكلمت عن ضرب الذل والمسكنة على اليهود؛بل هناك آية أخرى في سورة آل عمران تكلمت عن ذات المسألة ،فلنقف مع هاتين الآيتين الكريمتين المتشابهتين في اللفظ،ونوضح ما بينهما من فروق،ونرى دقة الاستعمال القرآني للألفاظ في موضعها المناسب للسياق.

أولاً:آية البقرة:

قال تعالى: ﴿ **وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ**

---

[١] انظر:التفسير الوسيط،لسيد طنطاوي– (١ / ١٠٧).

بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة : ٦١]

ثانياً:آية آل عمران

قال تعالى:**﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾** [آل عمران : ١١٢]

وأريد أن أقف وقفتين مع هاتين الآيتين المتشابهتين:

الوقفة الأولى:السر في استعمال جمع المذكر السالم "النبيين"في الآية الأولى ،وجمع التكسير في الآية الثانية.

إن لكلمة " نبي" جمعان: هما "نبيون وأنبياء " وقد استعمل القرآن الكريم الجمعين على صيغة جمع المذكر السالم ،واستعمله كذلك على صيغة جمع التكسير،فالاستعمال الأول وهو(النبيون)يفيد القلة،والاستعمال الثاني(الأنبياء)يفيد الكثرة؛لأن بعض المحققين من علماء اللغة قد ذهب إلى أن الاسم إن كان له جمع تكسير وجمع سلامة كالجفان والجفنات فجمع السلامة للقلة وجمع التكسير للكثرة، وإن لم يكن له إلا جمع سلامة فجمع السلامة مشترك بين القلة والكثرة .

والمتأمل في سياق الآيتين يجد أن القرآن قد استعمل كل جمع في السياق الأليق والأنسب له،حيث نلاحظ استعمال جمع الكثرة في سياق المبالغة في ذم أفعال اليهود،واستعمال جمع القلة في السياق الأقل حدة في ذمهم "ومن الواضح أن موطن الذمّ والتشنيع عليهم والعيب على فعلهم في آية آل عمران أكبر منه في آية البقرة يدل على ذلك أمور منها: أنه في سورة البقرة جمع (الذلة) و(المسكنة)**(وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ)** وأما في آية عمران فقد أكّد وكرّر وعمّم فقال : (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا) فجعلها عامة بقوله (أينما ثقفوا) ثم قال (وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَة) فأعاد الفعل وحرف الجر للزيادة في التوكيد فإن قولك (أنهاك عن الكبر وأنهاك عن الرياء) آكد من قولك (أنهاك عن الكبر والرياء)."[١]

الوقفة الثانية:تعريف كلمة "الحق" في آية البقرة وتنكيرها في آل عمران

عرّف (الحق) في الآية الأولى ونكره في الثانية، وذلك أن كلمة الحق المعرّفة في آية البقرة تدل على أنهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير الحق الذي يدعو إلى القتل، والحق الذي يدعو إلى القتل معروف معلوم.

وأما النكرة فمعناها أنهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق أصلاً لا حق يدعو إلى قتل ولا غيره، أي: ليس هناك وجه من وجوه الحق الذي يدعو إلى إيذاء الأنبياء فضلاً عن قتلهم، فكلمة (حق) ههنا نكرة عامة، وكلمة (الحق) معرّفة معلومة، والقصد من

---

[١] التعبير القرآني ،فاضل السامرائي ص ١٨٩ .

التنكير الزيادة في ذمهم وتبشيع فعلتهم أكثر مما في التعريف، وذلك لأن التنكير معناه أنهم قتلوا الأنبياء بغير سبب أصلاً لا سبب يدعو إلى القتل ولا غيره.

فمقام التشنيع والذمّ ههنا– في آية آل عمران– أكبر منه في آية البقرة ثم كلاهما شنيع وذميم. فجاء بالتنكير في مقام الزيادة في ذمهم،وقد تبين سابقاً أن آية آل عمران فيها زيادة في الذم عما هو في آية البقرة.[1]

المطلب الثاني:قذف الرعب في القلوب:

أولاً:أهمية الأمن وكيفية تحقيقه:

يعد الأمن والطمأنينة والاستقرار النفسي مطلب أساسي للناس جميعاً، حتى يعيشوا آمنين على أنفسهم،وأموالهم،وأولادهم،وأعراضهم، بل وعلى كل ما يحيط بهم،ولأهمية هذا المطلب فإنه يعد هدف كل أمة ، وغاية كل دولة، من أجله جندت الجنود،ورصدت الأموال ، وفي سبيلها قامت الصراعات والحروب.

والأمن والطمأنينة هي منة الله على هذه الأمة المباركة المرحومة،كرماً منه سبحانه وفضلاً، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾[الأنفال: ٢٦]، وقال عز وجل: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ** ﴾**[العنكبوت:٦٧]** وتشكل الأمن،مع العافية والرزق، الملك الحقيقي للدنيا،لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (**من أصبح منكم آمنا في سربه ، معافى في جسده ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**)[2].

وإن الديار التي يُفقد فيها الأمن والطمأنينة النفسية هي في الواقع صحراءُ قاحلة ، وإن كانت ذات جناتٍ وارفةِ الظلال،وإن البلاد التي تنعم بالأمن، تهدأ فيها النفوس، وتطمئن فيها القلوب ،وإن كانت قليلة الأرزاق،ولذلك حينما دعا الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ربه قال: ﴿**رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ..**﴾ [البقرة : ١٢٦]

فقدَّم نعمة الأمن،على نعمة الطعام والغذاء،لعِظَمها،وأهمية وجودها، فإن أشهى المأكولات،وأطيب الثمرات،لا تُستساغ مع ذهاب الأمن، ونزول الخوف والهلع؛ ذلك لأنه لا غناء لمخلوق عن الأمن ، مهما عز في الأرض، أو كسب مالاً أو شرفاً أو رفعة.

ولا تتحقق نعمة الأمان والطمأنينة النفسية إلا بالإيمان، والابتعاد عن العصيان؛ لأن الأمن أصلاً مشتق من الإيمان ،وهما مترابطتان وقرينان، لا ينفك أحدهما عن الآخر لذلك قال تعالى:﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ**

---

[1] انظر:التعبير القرآني ،فاضل السامرائي ،ص ١٨٨

[2] سنن الترمذي كتاب (الزهد) ،باب ٣٤ (بلا ترجمة) – (٤ / ٥٧٤) ،ح (٢٣٤٦) ،قال الألباني : حسن

لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[الأنعام: ٨٢] وقال كذلك :**﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾** [الرعد : ٢٨]

ومعنى الآية الكريمة أن " هؤلاء الذين يستحقون الهداية هم الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله، وسكنت قلوبهم إلى توحيد الله ووعده، وسُرُّوا بذكر الله واطمأنت قلوبهم إلى ربّهم، .. ولم يشكّوا بشيء من أصول الإيمان، ولم يتبرموا أو يتسخطوا على مراد الله وقدره، وتلك هي السعادة الحقيقية: سكون القلب، وهدوء البال، والبعد عن القلق والاضطراب ..، ألا بذكر الله تطمئن القلوب وتهدأ، وتلتزم باليقين ويستقرّ فيها الإيمان الكامل، وتفيض بنور الإيمان، وتشعر براحة النفس، إن هؤلاء المؤمنين الذين امتلأت قلوبهم بالإيمان الصحيح وبرد اليقين، وعملوا صالح الأعمال بأداء الفرائض وترك المعاصي لهم العيش الطيب الهنيء ، والنعمة والخير، وحسن المرجع والثواب."[١]

وصدق محمد إقبال[٢] حين قال:

إذا الإيمان ضاع فلا أمان *** ولا دنيا لمن لم يحيي دينا

ومن رضي الحياة بغير دين*** فقد جعل الفناء لها قرينا

ثانياً:الكفر والأمان لا يلتقيان

الكفر بالله تعالى،والبعد عن دينه،والإعراض عن منهجه،لا يلتقي مع الأمن والطمأنينة أبداً؛لأن الشرك والكفر والبعد عن منهج الله تعالى لا ينتج عنه سوى القلق والخوف،فالمشرك حين يشرك بالله ،يلجأ إلى جهة ضعيفة، ويعتمد على ركن واهٍ،لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً قال تعالى :**﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾** [الأعراف : ١٩٧ ، ١٩٨]

وقد توعَّد الله تعالى الكفار أن يملأ قلوبهم خوفاً، ورعباً، وقلقاً،عقوبة على كفرهم ؛لأنهم لم يؤدوا حق العبودية لله تعالى ،ولم يقدروه حق قدره سبحانه،لذلك قال الله تعالى

---

[١] التفسير الوسيط للزحيلي – (٢ / ١١٦٦).

[٢] هو شاعر الهند العظيم،وُلد ببلدة سيالكوت بإقليم البنجاب في الهند سنة ١٨٧٣م،و نشأ في أسرة متوسطة الحال ملتزمة بالدين، حفظ القرآن في صغره ،والتحق بجامعة لاهور، ثم سافر إلى ألمانيا وحصل على درجة الدكتوراة "من جامعة ميونخ، وبعد عودته إلى بلاده اشتغل بالسياسة والفلسفة، وانتخب عضوًا بالمجلس التشريعي بالنبجاب، وأخيرًا رئيسًا لحزب مسلمي الهند، ترك محمد إقبال تراثًا أدبيًا وفلسفيًا احتل به مكانة مرموقة بين كبار الشعراء والفلاسفة في النصف الأول من القرن العشرين، ومن أهم مؤلفاته بالإنجليزية :تطور الفكر الفلسفي في إيران، تجديد الفكر الديني في الإسلام ،ومن أشهر دواوينه ديوان أسرار إثبات الذات،وديوان رسالة المشرق.موقع الموسوعة العالمية للشعر العربي http://www.adab.com.

:﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾[آل عمران : ١٥١]

ومعنى الآية أن"هؤلاء المشركون ، سيملأ اللّه قلوبهم رعباً ، بما حملوا من شرك ، وبما عبدوا من ضلالات .. إذ أن الشرك يقتل فى صاحبه كل معانى الإنسانية ، ويقيمه فى هذه الدنيا مقاماً قلقاً مضطرباً ، لا يجد ما يستند إليه عند الشدائد والمحن.

وما ظنّك بإنسان إذا كربه الكرب،ونزلت به النوازل، فزع إلى حجر يعبده ؟ أو إلى حيوان يسجد بين يديه ؟ وأين هذا ممن يمدّ يده إلى مالك الملك،ويفزع إلى من بيده ملكوت السموات والأرض ؟ وشتّان بين هذا وذاك .. فالمشرك يدعو من لا يملك ضرّا ولا نفعاً، ويهتف بمن لا يستجيب له إلى يوم القيامة .. أما المؤمن فيدعو ربّ الأرباب ، ومدبّر الأكوان،والآخذ بناصية كل كائن ، والقائم على كل موجود."[١]

سبب نزول الآية الكريمة:

قال السدي: لما ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أحد متوجهين إلى مكة انطلقوا حتى بلغوا بعض الطريق ،ثم إنهم ندموا وقالوا: بئس ما صنعنا قتلناهم حتى إذا لم يبق منهم إلا الشرذمة تركناهم! ارجعوا فاستأصلوهم،فلما عزموا على ذلك ألقى الله تعالى في قلوبهم الرعب حتى رجعوا عما هموا به وأنزل الله تعالى هذه الآية.[٢]

ألقى الله تعالى في قلوبهم رعباً وجزعاً منعهم أن يُعيدوا الكرة ، وقد كان فى قدرتهم فعل ذلك، إلا أن الرعب صدهم عن ذلك ،وهذا مظهر من مظاهر نصرة الله تعالى لدينه، وهو كذلك عقوبة لأهل الكفر والضلال الذين يعتمدون على قوتهم المادية الواهية أمام قوة الله تعالى،ويركنون على آلهة يصنعونها بأيديهم ،لا تملك لهم ضراً،ولا نفعاً،ولا موتاً،ولا حياةً، ولا نشوراً، فحينما اعتمد هؤلاء على غير خالقهم، وركنوا لغير ربهم،عاقبهم الله تعالى بإلقاء الرعب في قلوبهم فأحبط مكرهم،وثبط خططهم،وأقعدهم عن قتال المسلمين بعد أحد.

ثالثاً:عقوبة الرعب مستمرة

وقد اختلف العلماء في الوعد الذي تضمنته الآية الكريمة هل هو خاص بالمسلمين في معركة أحد أم هو عام في أحد وما بعدها على رأيين:

القول الأول :ذهب بعض المفسرين أنه مختص بيوم أحد ،وذلك لأن جميع الآيات المتقدمة إنما وردت فى هذه الواقعة .

ثم القائلون بهذا القول ذكروا فى كيفية إلقاء الرعب فى قلوب المشركين فى هذا اليوم وجهين:

الوجه الأول : أن الكفار لما استولوا على المسلمين وهزموهم ،أوقع الله الرعب فى قلوبهم،

---

[١] التفسير القرآني للقرآن،عبد الكريم الخطيب- (٢ / ٦١١- ٦١٢)

[٢] أسباب النزول، أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، ص١٢٥

فتركوهم وفروا منهم من غير سبب.

والوجه الثانى : أن الكفار لما ذهبوا إلى مكة فلما كانوا فى بعض الطريق قالوا:ما صنعنا شيئاً، قتلنا الأكثرين منهم ،ثم تركناهم ونحن قاهرون ، ارجعوا حتى نستأصلهم بالكلية ، فلما عزموا على ذلك ألقى الله الرعب فى قلوبهم .

والقول الثانى : أن هذا الوعد غير مختص بيوم أحد ، بل هو عام ، .. كأنه قيل : إنه وإن وقع لكم هذه الواقعة فى يوم أحد ، إلا أن الله – تعالى – سيلقى الرعب منكم بعد ذلك فى قلوب الكافرين ،حتى يقهر الكفار ، ويظهر دينكم على سائر الأديان .

وقد فعل الله ذلك حتى صار دين الإسلام قاهراً لجميع الأديان والملل[١]

ويرى الباحث أن القول الثاني أرجح ؛لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب،كما ذهب جمهور العلماء،ولفظ الآية عام غير مخصص بحادثة بعينها ،وعليه فإن الرعب هو سلاح الأمة يهبها إياه متى صدقت مع ربها تبارك وتعالى، والله أعلم.

رابعاً:الرعب سلاح خطير للمسلمين

ميّز الله تعالى أمة الإسلام بسلاح الرعب، فهو سلاح عظيم فتاك ،لا يقاومه حصن ، ولا قوة، سلاح يستقر في قلب العدو فيحطم جميع معنوياته، وآماله، وأهدافه، سلاح يمضي فيشل الأركان، ويهدم البنيان، سلاح لا يتوقعه العدو ولا يحسب حسابه، سلاح سرعان ما تتهاوى أمامه نفوس العدو .

سلاح لا يغمض من أصابه جفن، ولا يهدأ له بال ،ولا يهنأ بعيش، يعيش من أصابه حياة كئيبة تعيسة ، سلاح ما دخل داراً إلا هدمها ولا دولة إلا أفسدها .

الرعب سلاح بيد الأمة الإسلامية حاربت به أعداءها فتهاوت أمامها الدول ودكت العروش ، قال صلى الله عليه وسلم :(**ونصرت بالرعب مسيرة شهر**)[٢] وفي رواية أخرى **(ونصرت بالرعب مسيرة شهرين بدى يسمع بي القوم بيني وبينهم مسيرة شهر فيرعبون مني وجعل الرعب نصراً)**[٣].

فالرعب جند لا يقاومه أحد ولم يعط أحد من الرسل مثله، فكان العدو يسمع بمسير النبي صلى الله عليه وسلم إليه من مسيرة شهر، فيقع الرعب في قلبه فيذل في مكانه .

وهذا السلاح يؤيد الله به المؤمنين الصادقين؛تثبيتاً لهم،ونصراً لهم في معاركهم مع عدوهم،وهذه البشارة بإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم هي بشارة بالنصر عليهم،فالرعب طريق

---

[١] انظر :مفاتيح الغيب،للرازي – (٩ / ٢٧).

[٢] صحيح البخاري، كتاب (التيمم) ، بلا تبويب – (١ / ١٢٨) ،ح (٣٢٨)

[٣] المعجم الأوسط – (٧ / ٢٦٩) ،ح(٧٤٦٥)

الهزيمة للعدو،وهذا وعد قائم في كل معركة بين الإيمان والكفر ، فما أن يلقى الكفار المؤمنين حتى يخافوهم ويتحرك الرعب الملقى من الله في قلوبهم .

خامساً:نماذج قرآنية لعقوبة الرعب:

النموذج الأول:معركة بدر:

في معركة بدر الكبرى ألقى الله تعالى الرعب في قلوب كفار قريش،فتحطمت معنوياتهم،وتفرقت حشودهم،وانكسرت شوكتهم ،ولم يستقر لهم حال،ولم يهدأ لهم بال، ومزق قوتهم بأيدي أولياءه،وأنزل الله سكينته على عباده المؤمنين،وأمدهم بالملائكة تقاتل بصفهم تثبتهم وتمكنهم في القتال قال الله تعالى :﴿ **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ** ﴾ [الأنفال : ١٢].

تحمل بشارة عظيمة للمؤمنين بالنصر على أعدائهم،وهذه البشارة مستمرة إلى قيام الساعة،وإن كانت الآية نزلت في معركة بدر، فإن حكمها جارٍ مستمر ،فحيثما كان المسلمون متمسكين بدينهم ومعتمدين على ربهم ،فإن الله تعالى سينصرهم وسيمدهم بجنده كالرعب وغيره من جنوده الذين لا يعلمهم إلا هو.

النموذج الثاني:غزوة بني النضير:

قال تعالى في شأن هذه الغزوة المليئة بالدروس والعبر : ﴿ **هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ**﴾ [الحشر : ٢]

" إن المتأمل في هذه الآيات الكريمة يتبين له أن الله هو الذي أخرج يهود بني النضير من ديارهم إلى الشام، حيث أول الحشر، في حين أن كل الأسباب المادية معهم حتى اعتقدوا أنه لا أحد يستطيع أن يخرجهم من حصونهم لمتانتها وقوتها.

لكن الله فاجأهم من حيث لم يحتسبوا، جاءهم من قلوبهم التي لم يتوقعوا أنهم يهزمون بها، فقذف فيها الرعب،فإذا بهم يهدمون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، وهذا الأسلوب القرآني الفريد يربي الأمة بالأحداث والوقائع، وهو يختلف تماماً عن طريقة أهل السير، ويمتاز بأنه يكشف الحقائق ويوضح الخفايا، ويربط الأحداث بفاعلها الحقيقي وهو رب العالمين، ومن ذلك أنها بينت أن الذي أخرج بني النضير هو الله جل جلاله: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ** ﴾،واستمرت الآية الكريمة تبين أن يهود بني النضير حسبوا كل شيء، وأحاطوا

بجميع الأسباب الأرضية، لكن جاءتهم الهزيمة من مكان اطمأنوا إليه وهو أنفسهم، فإذا الرعب يأتي من داخلهم، فإذا بهم ينهارون في أسرع لحظة" [١]

و الآيات تعطينا درساً بليغاً في التوكل على الله تعالى،وعدم الاتكال على الأسباب المادية، فالله تعالى هو الذي يتصرف في الأمور كلها،والأمر بيده سبحانه من قبل ومن بعد،وأن العدو مهما كان قوياً حصيناً،فإن قوته تتداعى أمام قدرة الله تعالى،وأمام تدبير الله تعالى الذي يأتي للأعداء من حيث لا يحتسبون " لذلك يجب على كل إنسان عاقل أن يعتبر بهذه الغزوة، وأن يعرف أن الله هو المتصرف في الأمور، وأنه لا تقف أمام قدرته العظيمة لا الأسباب ولا المسببات، فهو القادر على كل شيء، فعلى الناس أن يؤمنوا به تعالى ويصلحوا أمرهم، فإذا اتبعوا أمر الله أصلح الله لهم كل شيء، وأخرج أعداءهم من حيث لم يحتسبوا،

إن هذه الغزوة درسٌ للأمة في جميع عصورها، تذكرهم أن طريق النصر قريب وهو الرجوع إلى الله، والاعتماد عليه والتسليم لشريعته، وتقديره حق قدره، فإذا عرف ذلك المؤمنون نصرهم الله ولو كان عدوهم قويًا وكثيرًا، فإن الله لا يعجزه شيء، وأقرب شاهد واقعي لذلك هو إجلاء بني النضير، وهي عبرة فليُعتبر بها، والسعيد من اعتبر بغيره."[٢]

النموذج الثالث:غزوة بني قريظة:

قال تعالى :**﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا * وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾** [الأحزاب : ٢٥ ، ٢٦]

نزلت هذه الآيات الكريمة في غزوة بني قريظة،التي كان سببها نقض يهود بني قريظة للعهد الذي كان بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم،وانضمامهم إلى جيوش الأحزاب التى أحدقت بالمدينة،للقضاء على الدولة الإسلامية في مهدها ،لكن الله تعالى ردَّ كيدهم إلى نحورهم،وهزم الأحزاب،وأحبط مآمراتهم،فانقشع الأحزاب عن المدينة،وسار النبي صلى الله عليه وسلم لاستئصال بني قريظة ومعاقبتهم على خيانتهم،وما أن وصلت جحافل المسلمين،حتى دبَّ الرعب في قلوب اليهود،فزلزل كيانهم،وشلَّ تفكيرهم،ودفعهم إلى الاستسلام.

﴿وقذف في قلوبهم الرعب﴾أي:" وألقى في نفوسهم الخوف الشديد، لممالأتهم المشركين على حرب النبي صلّى اللّه عليه وسلّم، وإخافتهم المسلمين، وقصدهم قتلهم، فانعكس الحال عليهم، وأسلموا أنفسهم للقتل، وأولادهم ونساءهم للسبي، فريقا تقتلون، وهم الرجال المقاتلة، وتأسرون فريقا، وهم النساء والصبيان."[٣]

---

[١] السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث ، علي محمد الصلابي- (٢ / ٥٦).

[٢] المصدر السابق - (٢ / ٥٦).

[٣] التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي - (٢١ / ٢٨٠).

❖ **فائدة بلاغية:**

ويلاحظ أن القرآن استخدم لفظ "قذف الرعب" عند حديثه عن اليهود في غزوتي بني النضير وبني قريظة،واستخدم لفظ"إلقاء الرعب"عند حديثه عن غزوتي بدر وأحد،فما المستفاد من ذلك التنويع في استخدام الألفاظ؟

ينبغي أن نعلم أن هناك فرقاً بين الإلقاء والقذف:

– فالإلقاء يدل على طرح الشيء، وقد صار في التعارف اسماً لكل طرح كقوله تعالى: ﴿**فكذلك ألقى السامري**﴾ [طه : ٨٧] [(١)]

– أما القذف: فهو الرمي البعيد، ولا اعتبار للبعد فيه ،قيل: منزل قذف وقذيف، وبلدة قذوف: بعيدة، وفي لفظ القذف زيادة تأكيد ،ولهذا قالوا في صفة الأسد " مُقَذَّف " فكأنما قذف باللحم قذفاً لاكتنازه وتداخل أجزائه ، وقيل : المُقَذَّفُ: من رمي باللحم رمياً، ورجل مُقَذَّفُ أَي كثير اللحم كأَنه قُذِف باللحم قَذْفاً يقال قُذِفَت الناقةُ باللحم قَذْفاً[(٢)]

فالفرق بين الإلقاء والقذف بناءً على ما سبق، أن القذف فيه مبالغة في المعنى،فهو شدة في الإلقاء.

ويستفاد من ذلك أن الرعب الذي يلقيه الله تعالى في قلوب اليهود أشد وأكبر من الذي يلقيه في قلوب غيرهم،وذلك لأنهم أهل جبن وخور وضعف أكثر من غيرهم،وقد دلت الشواهد والقرائن على ذلك منذ القدم،فقد قعدوا عن دخول الأرض المقدسة وقالوا:﴿**إن فيها قوماً جبارين**﴾ [المائدة : ٢٢]،وطلبوا من نبي لهم أن يبعث لهم ملكاً ليقاتلوا أعداءهم ،فلما كتب الله عليهم القتال، ولوا الأدبار ولم يقاتلوا ﴿**فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة : ٢٤٦]

وقد شهد العصر الحالي صوراً حية ،تثبت أن اليهود هم أجبن خلق الله تعالى،ففي أرضنا فلسطين ظهر مدى الجزع والخوف الذي يعيشه الجندي الصهيوني من المجاهدين الذين لا يملكون سوى وسائل قتالية متواضعة،مقابل الترسانة الضخمة التي يمتلكها جيش الاحتلال،غير أن هذه الترسانة لم تكن كافية لإظهار الجندي الصهيوني كمقاتل شجاع،بل قد شاهد العالم أكثر من مرة كيف يهرب الجنود الصهاينة من دباباتهم،وكيف يصرخون ويستغيثون إذا ما حمي وطيس المعركة،وكيف تمتلئ قلوبهم رعباً عند مواجهة المجاهدين ،وهذا الضعف والجبن والخوف من أهل الإسلام متجذِّر في قلوبهم ،يقذفه الله تعالى في قلوبهم وصدق الله تعالى حين قال: ﴿**لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا**

---

(١) انظر: مفردات ألفاظ القرآن ،للراغب الأصفهاني– (٢ / ٣٤٥).

(٢) انظر: تفسير النيسابوري – (١٣ / ٤٢٩)، مفردات ألفاظ القرآن ،للراغب الأصفهاني– (٢ / ٢٢٨)، تاج العروس ، للزبيدي – (٢٤ / ٢٤٤–٢٤٥). لسان العرب ، لابن منظور – (٩ / ٢٧٦).

يَفْقَهُونَ * لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر : ١٣ ، ١٤]

المطلب الثالث:اللَّعن من الله وأنبيائه:

أولاً:تعريف اللعن:

أ.اللعن لغة: ذكر علماء اللغة في كتبهم عدة معان لغوية للَّعن نجملها فيما يلي:

١- الإبعاد والطرد،قال الله جلّ وعزّ :**﴿ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّـهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾** [البَقَرَة : ٨٨] قال أهل اللغة:لعنهم الله أي أبعدهم،وكلّ من لعنه الله فقد أبعده عن رحمته،واستحقّ العذاب فصار هالكاً، واللعين هو الشيطان،صفة غالبة له لأنه طرد من السماء؛وقيل:لأنه أبعد من رحمة الله.

٢- التعذيب، فاللَّعِين :من لعنه الله أي عذّبه ، واللعنة في القرآن : العذاب، ويقال أصابته لعنة من السماء أي عذاب .

٣- المسخ ،فاللعين هو (الممسوخ) عن الفراء في تفسير قوله تعالى : **﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ﴾**[النساء : ٤٧]، أي نمسخهم .[١]

ب.اللعن اصطلاحاً:

عرف العلماء (اللعن) عدة تعريفات تتقارب إلى حد كبير مع المعاني اللغوية السابقة:

١- قيل:" اللعن من الله هو إبعاد العبد بسخطه ،ومن الإنسان الدعاء بسخطه" [٢]

٢- وقيل:" إبعاد في المعنى، والمكانة، والمكان إلى أن يصير الملعون بمنزلة النعل في أسفل القامة، يلاقي به ضرر الموطىء" [٣]

٣- وقال ابن عطية هو :"إبعاد مقترن بسخط وغضب"[٤]

٤- وقال الراغب الأصفهاني : "اللعن الطرد والإبعاد على سبيل السخط ،وذلك من الله تعالى في الآخرة عقوبة ،وفي الدنيا انقطاع من قبول رحمته وتوفيقه ، ومن الإنسان دعاء على غيره"[٥]

---

[١] انظر :مقاييس اللغة،لابن فارس – (٥ / ٢٠٣)، تهذيب اللغة ، للأزهري– (٢ / ٢٤٠) ، تاج العروس ، للزبيدي – (٣٦ / ١١٩)، المصباح المنير ،للفيومي – (٢ / ٥٥٤)، المعجم الوسيط ،لإبراهيم مصطفى وآخرين – (٢ / ٨٢٩)

[٢] التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني – (١ / ٢٤٧).

[٣] التوقيف على مهمات التعاريف ، محمد عبد الرؤوف المناوي – (١ / ٦٢١).

[٤] المحرر الوجيز – (٢ / ١٣٤).

[٥] المفردات في غريب القرآن – (١ / ٤٥١).

وتعريف الراغب هو تعريف شامل عام للَّعن من جميع جوانبه،فهو أفضل التعريفات السابقة.

ثانياً:أسباب عقوبة اللعن:

اللعن هو عقوبة إلهية ينزلها الله تعالى على بعض الأمم بسبب معاصٍ محددة تقترفها،وهي عقوبة تتنزل حينما تتحقق أسبابها ودواعيها،فتتحول الأمة إلى أمة مطرودة من رحمة الله ،بعيدة عن توفيق الله وهدايته، وقد ذكر القرآن الكريم هذه الأسباب كي تتنبه إليها أمة الإسلام ولا تقع فيها،نذكرها فيما يلي:

١- الكفر بالله وجحود آياته:

إن الكفر بالله وجحود آياته سبب لكثير من العقوبات الإلهية التي نزلت بالأمم السابقة ومنها عقوبة اللعن والطرد من رحمة الله تعالى كما قال سبحانه:﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا**﴾ [الأحزاب : ٦٤] وقال كذلك:﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ *خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ** ﴾ [البقرة : ١٦١ ، ١٦٢]

وأخبر الله تعالى أنه أنزل عقوبة اللعن على بعض الأمم بسبب جحودهم لآيات الله الواضحة،وعصيان الرسل،واتباع الجبابرة وأصحاب الأهواء،فقال تعالى عن قوم عاد الذين كفروا بالله تعالى واستحقوا اللعن لأجل ذلك:﴿ **وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ** ﴾ [هود : ٥٩- ٦٠]

وأخبر سبحانه عن نزول عقوبة اللعن على فرعون وقومه بسبب كفرهم وجحودهم بآيات الله فقال:﴿ **يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ * وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ**﴾ [هود : ٩٨- ٩٩]

والكفر قد يكون عملاً قلبياً كبغض الله تعالى أو آياته، أو رسله، وهذا يناقض الإيمان ،كما أن الكفر يكون قولاً ظاهراً،كإنكار معلومٍ من الدين بالضرورة،أو الاستهزاء بآيات القرآن،أو أحكام الشريعة،وغير ذلك من الصور المفصلة في كتب التوحيد، وتارة يكون الكفر عملاً ظاهراً كالسجود للصنم ، والذبح لغير الله،فكل هذا يدخل صاحبه في دائرة اللعن .

٢- الكفر والصد عن سبيل الله:

ومن أسباب عقوبة اللعن كذلك الصد عن سبيل الله ،كما أخبر ربنا سبحانه وتعالى في كتابه،والمقصود به منع الناس عن الدخول في دين الله تعالى،ومنع الدعاة إلى الله والمصلحين من القيام بواجب الدعوة إلى الله،لإعلاء كلمة الله تعالى،وهداية الناس للطريق المستقيم، والدين القويم الذي ارتضاه الله للناس،والصد عن سبيل الله جريمة كبيرة وإثم عظيم زائد على جريمة

الكفر في الإثم وفي العقاب، فإن الكافر الذي يصد عن سبيل الله عذابه زائد عن الكافر الذي لا يصد عن سبيل الله قال تعالى:﴿ **الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ**﴾[النحل : ٨٨]

وقد بين القرآن أن الصادِّين عن سبيل الله مطرودون من رحمة الله، كما قال تعالى: ﴿**وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ** ﴾ [الأعراف : ٤٤ ، ٤٥]

ومنع الناس من إجابة دعوة الرسل والدعاة،وهو ديدن رؤساء الكفر وزعماء الضلال، ومن حولهم من الملأ ،وهؤلاء موجودون في كل زمان ومكان،نجدهم يقفون ليصدوا عن سبيل الله تعالى،ويقفوا في وجه دعوة الرسل والمصلحين يدفعهم حبهم للزعامة والرياسة،واستعلاءهم على الناس، وخوفهم أن تسلبهم هذه الدعوة المباركة مجدهم وزعامتهم ومكانتهم.

٣- ترك التناهي عن المنكرات:

ومن أسباب لعن الأمم المتقدمة ترك فريضة النهي عن المنكر ،حيث أخبر الله تعالى في كتابه عن بني إسرائيل أنهم تركوا هذه الفريضة، ليحذِّر المسلمين من الاتصاف بصفتهم قال تعالى:﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ *كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ**﴾ **[المائدة : ٧٨ - ٨٠]**

والمعنى أن من مظاهر عصيان الكافرين من بني إسرائيل، وتعديهم الذي أدى إلى لعنهم وطردهم من رحمة الله ،أنهم كانوا لا ينهى بعضهم بعضاً عن اقتراف المنكرات واجتراح السيئات ،بل كانوا يرون المنكرات ترتكب جهاراً نهاراً فيسكتون عليها بدون استنكار مع قدرتهم على منعها قبل وقوعها .

وهذا شر ما تصاب به الأمم في حاضرها ومستقبلها ، أن تفشو فيها المنكرات والسيئات والرذائل ،فلا تجد من يستطيع تغييرها وإزالتها،فتحل عليها اللعنة من الله تعالى وتطرد من رحمته ، وهو جزاء الأمة حين تتعامى عن تغيير المنكر.

عن زينب بنت جحش رضي الله عنها: أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم استيقظَ يومًا من نومه فزِعًا وهو يقول: (**لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب، فُتحَ اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا وحلَّق بين أصبعيه السبابة والإبهام**) . فقالت له زينب رضي الله عنها: يا رسول الله! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: (**نعم؛ إذا كَثُرَ الخَبَث**)[1]

---

[1] صحيح البخاري،كتاب(الأدب)،باب ١٠(قصة يأجوج ومأجوج)-(٣ / ١٢٢١)،ح (٣١٦٨).

"إنَّ المنكَر إذا أُعلن في مجتمع، ولم يجد مَن يقف في وجهه؛ فإن سوقه تقوم، وعوده يشتد، وسلطته تَظْهَر، ورواقَه يمتد، ويصبح دليلاً على تمكُّن أهل المنكر وقوَّتهم، وذريعةً لاقتداء الناس بهم، وتقليدهم إيَّاهم، وما أحرصَ أهلَ المنكر على ذلك! فإذا قلَّد بعض الناس أهل المنكر والزَّيع في منكرهم؛ أخذ الباطل في الظهور، وهان خطبُه شيئًا فشيئًا في النفوس، وسكت الناس عنه، وشُغِلوا بما هو أعظم منه، وما تزال المنكراتُ تفشو، حتى يَكْثُرَ الخبَثُ، ويصير أمرًا عاديًّا مستساغًا؛ تألَفُه النفوس، وتتربَّى عليه." [1]

لذلك فإن تغيير المنكر واجب على كل مسلم،لتصحيح المسار ،وتقويم الاعوجاج،فالمسلم يجب أن يكون صاحب سلوك إيجابي لا سلبي ،وشخصية مؤثرة،لا أن ينزوي بنفسه ويتعامى عن رؤية المنكرات"والسلم بهذا ليس مجرد إنسان صالح في نفسه،يفعل الخير، ويدع الشر ،ويعيش في دائرته الخاصة،لا يبالي بالخير ،وهو يراه ينزوي ويتحطم أمامه،ولا بالشر وهو يراه يُعشِّش ويفرخ حوله،بل المسلم–كل مسلم– إنسان صالح في نفسه،حريص على أن يصلح غيره"[2]

المطلب الرابع:إلقاء العداوة والبغضاء:

أولاً:ورود اللفظتين في القرآن الكريم:

جمع القرآن الكريم بين هذين اللفظين في عدة آيات كريمة،تختلف في موضوعاتها ومقاصدها:

١– جاء الجمع بين اللفظين في بعض الآيات المحذرة من كيد الشيطان ،الذي يريد إيقاع العداوة والبغضاء بين المؤمنين كقوله تعالى:﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ** ﴾ [المائدة : ٩١]

٢– وجاء الجمع في سياق وجوب التبرؤ من الكفار، وبغضهم في اللّه ومن أجل العقيدة،وأن التباغض والعداوة هي العلاقة بين المسلمين والكفارما دام الكفار على كفرهم يقول تعالى:﴿**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ**﴾[الممتحنة:٤

٣– والموضع الثالث الذي جمع فيه بين اللفظين وهو شاهدنا في هذا المطلب،جاء في كون العداوة والبغضاء عقوبة يعاقب الله تعالى بها الأمم إذا ما حادت عن الصراط المستقيم كما في قوله تعالى عن النصارى:﴿ **فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾ [المائدة : ١٤]

---

[1] موقع صيد الفوائد ،مقال بعنوان(العقوبات والآثار المترتبة على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)،لم يذكر اسم الكاتب http://www.saaid.net.

[2] فقه الدولة في الإسلام،د.يوسف القرضاوي ،ص١١٩.

ثانياً:معنى "العداوة والبغضاء" والفرق بينهما:

واختلف المفسرون في "العداوة والبغضاء"هل هما اسمان مترادفان يدلان على معنى واحد ، أم أن بينهما فرقاً في المعنى،فيكون لكل اسم منهما مدلول خاص به :

١- لم يفرق بعض المفسرين بين اللفظتين،ولم يذكر فرقاً بينهما عند تفسير الآية الكريمة،فالإمام ابن كثير رحمه الله فسر الآية بقوله:" فألقينا بينهم العداوة والتباغض لبعضهم بعضاً، ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة..."[١] وسار على نهج ابن كثير الشيخ السعدي رحمه الله تعالى حيث قال في تفسير الآية:" سلطنا بعضهم على بعض، وصار بينهم من الشرور والإحن ما يقتضي بغض بعضهم بعضا، ومعاداة بعضهم بعضا إلى يوم القيامة"[٢]

٢- لكن بعض المحققين من المفسرين فرق بين اللفظتين،وجعل لكل لفظة منهما معنى زائداً على اللفظة الأخرى،وهذا هو الصواب على اعتبار عدم وجود ترادف تام في اللغة، فكل لفظة في اللغة تمتاز عن نظيرتها بزيادة معينة في المعنى[٣]،ونذكر هنا بعض أقوال المفسرين في التفريق بين اللفظتين:

١- يقول ابن عطية رحمه الله "والعداوة أخص من البغضاء؛ لأن كل عدو فهو يُبغض، وقد يُبغض من ليس بعدو ،وكأن العداوة شيء مشتهر يكون عنه عمل وحرب، والبغضاء قد لا تجاوز النفوس"[٤]

٢- وفرَّق ابن عرفة التّونسي بينهما على العكس من تفريق ابن عطية السابق تماماً ،حيث نقل ابن عاشور في تفسيره عنه أنه قال: " العداوة أعمّ من البغضاء؛لأنّ العداوة سبب في البغضاء ؛ فقد يتعادى الأخ مع أخيه ،ولا يتمادى على ذلك حتّى تنشأ عنه المباغضة ، وقد يتمادى على ذلك "[٥]

يقول الباحث:وهذا الرأي على النقيض من الرأي الأول،وفيه نظر؛لأنه لا يلزم من كون الشيء سبباً في شيء آخر أن يكون أعم منه،فهذا التعليل غير مستقيم،ثم إن العداوة لا تنشأ إلا بعد

---

[١] تفسير القرآن العظيم – (٣ / ٦٧).

[٢] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ،ص ٢٢٦.

[٣] قال ابن القيم:" وقد أنكر كثير من الناس الترادف في اللغة ،.. وأنه ما من إسمين لمسمى واحد إلا وبينهما فرق في صفة، أو نسبة، أو إضافة سواء علمت لنا أو لم تعلم .." روضة المحبين ، ص٥٤.
وقرر هذا الأستاذ أحمد مصطفى الدمشقي حيث ذهب إلى أن الترادف الكامل قليل جداً في اللغة العربية، وأن أي لفظين داخل اللغة،في مستوى لغوي واحد، وخلال فترة زمنية واحدة ،لا يوجد بينهما ترادف تام، فالترادف التام صعب الوجود بل غير موجود على الإطلاق." معجم أسماء الأشياء – (١ / ٢٢).

[٤] المحرر الوجيز – (٢ / ٢٥٢).

[٥] التحرير والتنوير – (٦ / ١٤٨).

بغضاء وحقد ورغبة في الانتقام،ولا يتصور عدوٌ لا يتصف بالبغض لعدوه،وعليه فقول ابن عرفة التونسي رحمه الله فيه نظر.

٣- وذهب ابن عاشور إلى قول ابن عطية السابق،وإن كان عند تفسيره للآية الكريمة أورد قولي ابن عطية وابن عرفه،وقال بأن كلا الوجهين غير ظاهر،لكن عند التأمل في قوله يتبين أنه لم يخرج عن مضمون رأي ابن عطية وما هو إلا شرح وتفصيل لكلامه، وهذا نص قوله "والذي أرى أنّ بين معنيِي العداوة والبغضاء التضادّ والتباين ؛ فالعداوة كراهية تصدر عن صاحبها : معاملةٌ بجفاء ، أو قطيعة ، أو إضرار ، لأنّ العداوة مشتقّة من العدو وهو التجاوز والتباعد ، فإنّ مشتقّات مادة (ع د و) كلّها تحوم حول التفرّق وعدم الوئام ،وأمّا البغضاء فهي شدّة البغض ، وليس في مادة (ب غ ض) إلاّ معنَى جنس الكراهية .. ، فالبغضاء شدّة الكراهية غير مصحوبة بَعَدوْ ، فهي مضمرة في النفس .

فإذا كان كذلك لم يصحّ اجتماع معنيي العداوة والبغضاء في موصوف واحد في وقتٍ واحد ،فيتعيّن أن يكون إلقاؤهما بينهما على معنى التّوزيع ، أي أغرينا العداوة بين بعض منهم والبغضاءَ بين بعضٍ آخر، فوقع في هذا النظم إيجاز بديع ، لأنّه يرجع إلى الاعتماد على علم المخاطبين بعدم استقامة اجتماع المعنيين في موصوف واحد ."

فمحصلة كلام ابن عاشور أن العداوة ينتج عنها عمل وفعل كالمعاملة بجفاء أو إضرار بالغير، وهو ذات كلام ابن عطية حين بيَّن أن العداوة ينتج عنها عمل وحرب ،"والبغضاء تكون مضمرة في النفس" وهو مضمون كلام ابن عطية حين بيَّن أن البغضاء لا تجاوز النفوس.

وقول ابن عطية وابن عاشور على اعتبار كونهما قولاً واحداً هو القول الراجح ،لأن الترادف التام في اللغة غير موجود كما أسلفت،ولأن العطف يقتضي التغاير كما قرر علماء اللغة، والآية الكريمة حينما تتحدث عن العداوة بين فرق النصارى المختلفة وعن البغضاء المتجذرة بينها ،فإنها تنسجم وتتوافق مع ما سطره التاريخ من أحداث دامية، وممارسات وحشية بين فرق النصارى المختلفة،وهذا العداء بينها مستمر إلى قيام الساعة،كما أخبرت الآية

ثالثاً:الأخوة منحة ربانية:

إن وقوع العداوة والبغضاء في جسد أي أمة من الأمم يجعلها أمة ضعيفة بين الأمم ،واهية القوة،مشتتة الأركان،ضعيفة البنيان،غير متوحدة على كلمة،ولا ملتفة حول رأي ، يتعادى أبناؤها لأقل الأسباب ،ويتباغضون ويفترقون،ويصبح همُّ أحدهم أن ينتقم من خصمه،وأن يشفي غليله منه،وحينئذ يتهدم بنيان الأخوة،ويتصدع عمرانها،وتصبح الأمة لقمة سائغة في فم أعدائها،وهدفاً سهلاً يناله كل متربص حاقد؛ ولذلك فإن سرَّ قوة الأمة يكمن في تآلف أبنائها وتكاتفهم وتآخيهم،وقد ركز القرآن الكريم

كثيراً على هذا المقصد الجليل،والقاعدة العظيمة،قاعدة الأخوة الإيمانية فقال تعالى:﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [الحجرات : ١٠]

وعلى هذه القاعدة الجليلة –قاعدة الأخوة–أقام الإسلام المجتمع الإسلامي في المدينة ، فنحن نعلم أن العرب – وخصوصاً الأوس والخزرج – كانوا قبل الإسلام في حالة شديدة من التفرق، والتخاصم ،والتنازع ،والتحارب ،فلما دخلوا في الإسلام تحول بغضهم إلى حب ، وتخاصمهم إلى مودة ، وتفرقهم إلى اتحاد ، وصاروا فى توادهم وتراحمهم كالجسد الواحد.

وظهرت آثار هذا الحب واقعاً عملياً في حياتهم ، ووصلت المحبة بينهم أن عرض بعض الأنصار رضي الله عنهم قسمة ما يملك من مال بينه وبين أخيه المهاجر ،وأن يعرض الرجل التنازل عن إحدى زوجتيه بطلاقها حتى يتزوجها أخوه.

"وهكذا قامت الجماعة المسلمة الأولى – في المدينة – على هاتين الركيزتين . . على الإيمان بالله : ذلك الإيمان المنبثق من معرفة الله – سبحانه – وتَمَثُّلِ صفاته في الضمائر؛ وتقواه ومراقبته ، واليقظة والحساسية إلى حد غير معهود إلا في الندرة من الأحوال ، وعلى الحب ،الحب الفياض الرائق والود :الود العذب الجميل ، والتكافل : التكافل الجاد العميق . . وبلغت تلك الجماعة في ذلك كله مبلغاً ، لولا أنه وقع لعُدَّ من أحلام الحالمين! وقصة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار قصة من عالم الحقيقة ، ولكنها في طبيعتها أقرب إلى الرؤى الحالمة! وهي قصة وقعت في هذه الأرض ، ولكنها في طبيعتها من عالم الخلد والجنان"[١]

من المحقق أن الأخوة الإيمانية هي منحة إلهية،يمنحها الله تعالى للأمة المستقيمة على أمر الله تعالى،المطبقة لكتابه ،المقيمة لأوامره ،فيجمع الله كلمتها ويوحد بين أبنائها وفئاتها،قال تعالى:﴿ **وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ [الأنفال : ٦٢ ، ٦٣]

فالله وحده الذي ألف بين قلوب كانت قبل عهد قريب متنافرة ومتباغضة،لكن حينما شربت من معين القرآن اجتمعت ،وتوحدت ،وتآلفت،وهذا لم يكن لولا أن الله تعالى شاء لهم الهداية والاستقامة،والالتفاف حول منهج واحد والري من نبع مشترك ألا وهو نبع القرآن و"آية التأليف بين قلوب المؤمنين إشارة إلى العداوة التي كانت بين الأوس والخزرج في حروب بُعاث[٢]، فألف اللّه تعالى قلوبهم على الإسلام، وردهم متحابين في اللّه، وهذا تذكير بنعمة

---

[١] في ظلال القرآن ، سيد قطب– (١ / ٤١٤).

[٢] قال ابن كثير:"كان يوم بعاث – وبعاث موضع بالمدينة – كانت فيه وقعة عظيمة قتل فيها خلق من أشراف الأوس والخزرج وكبرائهم، ولم يبق من شيوخهم إلا القليل". البداية والنهاية – (٣ / ١٨١).

اللّه على نبيه ولطفه به، فكما لطف به ربه أولاً، فكذلك يفعل آخراً، لقد أيد اللّه رسوله بجند الإيمان من المهاجرين والأنصار، الذين دافعوا عنه دفاع الأبطال الشرفاء، واللّه بفضله هو الذي ألف بين قلوبهم، وجمعهم على كلمة الحق والشهادة، وغرس في قلوبهم التحابّ والتوادُدَ ،بعد العداوة والبغضاء في الماضي الجاهلي، وصار كل تآلف في اللّه تابعاً لذلك التآلف الكائن في صدر الإسلام"[1]

وهذا التآلف كان آية من آيات الله تعالى وعلامة واضحة من علامات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم "وكان تآلف القلوب مع العصبية الشديدة في العرب من آيات النبي صلى الله عليه و سلم ومعجزاته؛لأن أحدهم كان يلطم اللطمة، فيقاتل عنها حتى يستقيدها، وكانوا أشد خلق الله حمية، فألف الله بالإيمان بينهم حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدين"[2]

ثالثاً:العداوة والبغضاء عقوبة ربانية:

لما كانت الأخوة الإيمانية منحة ربانية،وهبة إلهية،يهبها الله للأمة متى استقامت وتوحدت على كتابها،فإن إلقاء العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع يعد عقوبة ربانية،يعاقب الله بها من يستحقها، ووقع في دواعيها،واتبع الأهواء الباطلة،والآراء المنحرفة،ومن هؤلاء المعاقبين بهذه العقوبة أهل الكتاب الذين خالفوا أمر ربهم،ونكثوا المواثيق المغلظة التي أخذت عليهم ، فكانت النتيجة أن عوقبوا بعقوبات كثيرة،منها إلقاء العداوة والبغضاء بينهم .

ومنهج القرآن الكريم بات واضحاً في التحذير من الوقوع فيما وقعوا فيه من أسباب العقوبات المؤدية إلى الهلاك والتتبير ،وقد ذكر القرآن الكريم هذه العقوبة التي نزلت باليهود والنصارى بسبب ما جنته أيديهم،ونقف فيما يلي مع الآيات التي تحدثت عن إلقاء العداوة والبغضاء بين اليهود والنصارى:

أ.إلقاء العداوة والبغضاء بين اليهود:

يقول تعالى:**﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾** [المائدة : ٦٤]

سبب نزول الآية:

عن ابن عباس قال : قال رجل من اليهود يقال له البناش بن قيس : إن ربك بخيل لا ينفق فأنزل الله عز و جل ﴿ قالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم... ﴾[3]

---

[1] التفسير الوسيط ، للزحيلي – (١ / ٨١٩).

[2] الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي – (٨ / ٤٣).

[3] المعجم الكبير، للطبراني – (١٢ / ٦٧).

تـتكلم الآيــة عــن أفظــع مخــازي اليهــود، وأقــبح أقوالهم،فقـد تجـرؤوا علــى خــالقهم وبارئهم،ووصفوه بما لا يوصف به إلا اللئام من الناس –تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً– وصـفوه بالبخـل، والإمسـاك عـن الإنفـاق،فنكروا بـزعمهم هـذا الـنعم الكثيـرة التـي أغـدقها عليهم،ونسوا عفوه عنهم، وصفحه عن خطاياهم،وساروا على نهج أسلافهم الذين جحدوا نعم الله وكذبوا رسله،ولم تزدهم بعثة النبي صلى الله عليه وسلم هادياً لهم وللبشرية إلا كفراً وتمادياً في الغي والطغيان وكان ينبغي عليهم أن يسلموا ،وقد علموا في كتبهم خبر إرسال محمد صلى الله عليه وسلم وصفته بدقيق الوصف وعميق البيان؛ لأجل ذلك عاقبهم الله تعالى بإلقاء العداوة والبغضاء بين فرقهم المختلفة ،فلا يزال اليهود متباغضين متنافرين تسود بينهم العداوة الدائمة ، والبغضاء المستمرة ، فأنت ترى كلمتهم مختلفة ، وقلوبهم شتى وكل فرقة منهم تلصق النقائص بالأخرى ، وهم على هذه الحال إلى يوم القيامة .

وقـد افتــرق اليهــود خــلال حقــبهم التاريخيــة إلـــى فــرق كثيــرة متنــاحرة أهمهــا: فــرق الفريسيين،والصدوقيين،والسامريين.

أما الفريسيون فهم طائفة الفقهاء الدينيين المتعصبين والمتمسكين بالنصوص التوراتية المحرفة، وكانوا من أشد خصوم المسيح عليه السلام وقد كانوا على خلاف مع طائفة الصدوقيين وهم طبقة ثرية من اليهود كانت تداهن السلطات الحاكمة سواء كانوا يونان أو رومان للمحافظة على ثرواتهم ، وكانوا مشهورين بالإنكار ؛ فهم ينكرون البعث ، والحساب ، والجنة والنار ، وينكرون التلمود ، كما ينكرون الملائكة ،ولهذا كان الخلاف على أشده بين طائفة الفريسيين المتمسكة بالتعاليم اليهودية وبين طائفة الصدوقيين المتحررة،وقد ظهر هذا الخلاف جلياً بعد موت الملك (اسكندر)،حيث استمال الفريسيون زوجة اسكندر بعد موت زوجها وانضمت إليهم،ممــا رفــع مــن شــأنهم،فانتقموا مــن الصــدوقيين وظهــرت مكــامن العــداوة جليــة تجاههم،واستمرت هذه العداوة قائمة إلى عصرنا الحالي[1]

وما أظهره اليهود في عصرنا الراهن من تعاون وتساند ،هو أمر مؤقت ،فإن كانوا في الظاهر يبرزون أنفسهم متحدين غير مختلفين،فإنهم في حقيقة الأمر متباغضين متنافرين لا يكادون يجمعون على رأي،وبين الحين والآخر تطفو خلافاتهم على السطح،ويطعن قادتهم ببعضهم بعضاً على الملأ ،وهذا الواقع هو تصديق قوله تعالى:﴿ **بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ** ﴾[الحشر : ١٤] ودولتهم السرطانية لن تستمر طويلاً بإذن الله،وسوف تجتث من جسد الأمة بإذن الله تعالى،وأسباب انهيارها آخذة بالتكاثر ،وهذا باعتراف مفكريهم وزعمائهم و ستعود فلسطين إلى أهلها المسلمين بإذن الله متى صدقوا في جهادهم ،واتبعوا تعاليم دينهم .

---

[1] انظر :دراسات في الأديان،عماد الدين الشنطي، ص١١٨-١١٩.

ب.إلقاء العداوة والبغضاء بين النصارى:

أخبر القرآن أن سبب إلقاء العداوة بين النصارى هو تركهم العمل بكثير من أصول دينهم،ونقضهم للميثاق الذي أخذ عليهم،واتباعهم للأهواء والآراء المنحرفة قال تعالى:﴿ **وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾ [المائدة : ١٤]

ومعنى أغرينا :"أي ألصقنا العداوة والبغضاء بهم يقال أغرى فلان بفلان إذا ولع به كأنه ألصق به ويقال لما التصق به ويقال لما التصق به الشيء الغراء"[١]

ومعنى الآية الكريمة "أي وكذلك أخذنا من النصارى الثبات على طاعتنا، وأداء فرائضنا ،واتباع رسلنا والتصديق بهم ، فسلكوا في ميثاقنا الذي أخذناه عليهم طريق اليهود الضالين ، فبدلوا دينهم ونقضوا الميثاق الذي أخذناه عليهم بالوفاء بعهدنا."[٢]

فبسبب نسيانهم لكتاب نبيهم،ونقضهم للميثاق الذي أخذ عليهم،وتفرقهم شيعاً وأحزاباً،كل حزب فرح بما لديه من الأهواء ،والأباطيل المتفرقة كان الحكم العادل الذي لا معقب له أن ألقى الله العداوة والبغضاء بينهم إلى قيام الساعة

"فألقينا بينهم العداوة والتباغض لبعضهم بعضاً، ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة، وكذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين، يكفر بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً؛ فكل فرقة تُحرم الأخرى ولا تدعها تَلجُ معبدها ..، وكل طائفة تكفر الأخرى في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد."[٣]

"ولقد وقع بين الذين قالوا:إنا نصارى من الخلاف والشقاق والعداوة والبغضاء في التاريخ القديم والحديث مصداق ما قصه الله سبحانه في كتابه الصادق الكريم؛وسال من دمائهم على أيدي بعضهم البعض ما لم يسل من حروبهم مع غيرهم في التاريخ كله ،سواء كان ذلك بسبب الخلافات الدينية حول العقيدة؛أو بسبب الخلافات على الرياسة الدينية؛أو بسبب الخلافات السياسية والاقتصادية والاجتماعية،وفي خلال القرون الطويلة لم تسكن هذه العداوات والخلافات ولم تخمد هذه الحروب والجراحات وهي ماضية إلى يوم القيامة كما قال أصدق القائلين.."(٤)

---

[١] مفاتيح الغيب،للرازي – (١١ / ١٥٠)

[٢] تفسير الشيخ المراغى – (٦ / ٧٧)

[٣] تفسير القرآن العظيم،لابن كثير – (٣ / ٦٧).

[٤] المنهج القرآني في مجادلة أهل الكتاب،سيد سلام،ص٥٠٧.

والفرق النصرانية هي:

١- أتباع آريوس الذي كان يقول بأن الأب وحده هو الله، والابن مخلوق له.

٢- بولس الشمشاطي وأصحابه في انطاكية: يقولون بأن عيسى عبد الله ورسوله وهو واحد من أنباء الله عليهم السلام.

٣- النسطوريون :وهم أصحاب نسطور بطريرك الإسكندرية سنة ٤٣١ م والذي قال بأن مريم لم تلد إلا الإنسان، فهي بذلك أم لإنسان وليست أما لإله،ومذهب النساطرة وضع الأساس للقول بطبيعتين في المسيح.

٤- مذهب الكنائس الشرقية" :الأرثوذكس" وهو رد فعل لعقيدة نسطور إذ أعلنوا في مجمع عقد بمدينة أفسس بالأناضول سنة ٤٣١م ووافقوا فيه على عقيدة البابا كيرلس بطرس الإسكندرية والتي تقضي بأن للمسيح طبيعة واحدة ومشيئة واحدة.

٥- مذهب الكاثوليك :وهو مذهب الطبيعتين والمشيئتين متأثر بمذهب النساطرة، وقد اعتنقت روما هذا المذهب واتخذت به قرارًا في مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م.

٦-مذهب اليعاقبة :يقولون بأن للمسيح طبيعة واحدة وهي التقاء اللاهوت بالناسوت.

٧-مذهب الموارنة :وهو مذهب منسوب لرجل اسمه يوحنا مارون، الذي دعا سنة ٦٦٧م إلى أن للمسيح طبعتين ولكن له مشيئة واحدة وذلك لالتقاء الطبيعتين في أقنوم واحد.

٨-مذهب البروتستانت :وتسمى كنيستهم "الإنجيلية" إذ إنهم يتبعون الإنجيل دون غيره وفهمه لديهم ليس مقصورًا على رجال الكنيسة، إنها تمثل ثورة في الفكر النصراني بدأها آريوس في القديم مرورًا بنسطور وانتهاء بالكثيرين الذي من أبرزهم لوثر كنج (١٤٨٢ -١٥٢٩) وهم يستنكرون حق الغفران والاستحالة ومنع الصلاة للموتى وقصر سلطان الكنيسة في الوعظ والإرشاد ومنعاستعمال لغة غير مفهومةفي الصلاة.

***بعد انعقاد المجمع الثامن ٨٧٩م انقسمت الكنائس إلى قسمين رئيسين:**

١- الكنيسة الغربية اللاتينية البطرسية ورئيسها البابا بروما.

٢- الكنيسة الشرقية اليونانية الأرثوذكسية ورئيسها بطريرك القسطنطينية.[١]

والعداء والحروب كان وما يزال مستمراً بين النصارى،وقد تجلى هذا العداء بينهم في العصر الحديث بوقوع حربين من أعظم الحروب في التاريخ،وهما الحرب العالمية الأولى والثانية التي قتل فيها الملايين ،ومازلوا يعانون من آثارها حتى وقتنا هذا.

---

[١] انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان و المذاهب و الأحزاب المعاصرة، مانع بن حماد الجهنى-(٥٨٣/٢).

ومن المؤسف أن نرى المسلمين اليوم وقعوا في المحظور الذي حذرهم منه القرآن الكريم،ولم يعتبروا بما عُوقب به أهل الكتاب من قبلهم من إلقاء العداوة والبغضاء بينهم،بسبب تفرقهم في كتابهم،ونسيانهم لكثير من تعاليمه ونصوصه،وتأويلهم وتحريفهم لما فيه،فإن من الأسباب الرئيسة لاختلاف المسلمين فرقاً وأحزاباً في واقعنا المعاصرً هو عدم توحدهم على الفهم الصحيح لكتاب الله تعالى،وسنة النبي صلى الله عليه وسلم،فهماً يتوافق مع فهم السلف الصالح،وتفسيراً يتفق مع تفسيرهم،بعيداً عن الاعتبارات الحزبية والشخصية الضيقة،فإن تفسير القرآن وفهمه إذا كان مبنياً على مقررات وآراء سابقة،ويراد به الانتصار لفكرة منحرفة بعينها كان فهماً مغلوطاً ،خاطئاً، مجانباً للصواب قطعاً ،لذلك يجب أن يكون هدف الداعين إلى الإسلام والعاملين له الإتحاد والألفة، واجتماع القلوب، والتئام الصفوف، والبعد عن الاختلاف والفرقة، وكل ما يمزق الجماعة، أو يفرق الكلمة: من العداوة الظاهرة، أو البغضاء الباطنة، ويؤدي إلى فساد ذات البين، مما يوهن دين الأمة ودنياها جميعاً.

يقول ابن تيمية في مجموع الفتاوى: "وهذا التفريق الذي حصل من الأمة علمائها، ومشايخها، وأمرائها، وكبرائها هو الذي أوجب تسلط الأعداء عليها، وذلك لتركهم العمل بطاعة الله ورسوله..، فمتى ترك الناس بعض ما أمرهم الله به،وقعت بينهم العداوة والبغضاء، وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا، فإنّ الجماعة رحمة، والفرقة عذاب."[١]

والاختلاف المذكور في القرآن الكريم نوعان :

النوع الأول:اختلاف يُذم فيه الفريقان المختلفان على حد سواء، كما قال سبحانه: **﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾** [هود : ١١٨ ، ١١٩]

فاستثنى غير المختلفين وجعلهم من المرحومين،وهذا يدل على ذم الاختلاف، وقال سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيد﴾[البقرة : ١٧٦] وقال تعالى محذراً لنا من الاختلاف المذموم: **﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾**[آل عمران : ١٠٥]

وتعود أسباب هذا الاختلاف المذموم بين طائفتين إلى فساد النية وسوئها؛ لأن الدافع عليه هو البغي والحسد وإرادة العلو في الأرض وحب الظهور على الخصم ، ويرجع أيضاً إلى جهل كل المختلفين بالأمر المتنازع فيه ؛لأن عدم العلم بحقيقة الأمر يحدث نزاعاً وافتراقاً ،أو جهل كل المختلفين بما عند صاحبه من الحق سواء كان ذلك في الحكم أو الدليل هذا إذا كان عالماً بما عنده من الحق حكماً ودليلاً ، وقد بين الله تعالى أن أصل الشر كله الجهل والظلم، قال الله تعالى:**﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾**[الأحزاب : ٧٢]

---

[١] مجموع الفتاوى – (٣ / ٤٢١).

النوع الثاني: هو ما حمد الله فيه إحدى الطائفتين ، وهم المؤمنون ، وذم فيه الأخرى ، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ** ﴾ [البقرة : ٢٥٣]

فحمد إحدى الطائفتين ووصفها بالإيمان ، وذم الأخرى ووصفها بالكفر ، هذا وأكثر الخلاف المؤدي إلى الأهواء والبدع في الأمة المحمدية هو من النوع الأول وسبب ذلك أن كلا من الطائفتين المتنازعتين لا تعترف بما عند الأخرى من الحق ولا تعدل في حكمها لها وعليها[١]

المطلب الخامس: الزيغ عن الحق:

أولاً:تعريف الزيغ :

الزاي والياء والغين أصل يدل على ميل الشيء، يقال زاغ يزيغ زيغاً، والتزيُّغ: التمايل، وقوم زاغة، أي زائغون ،وزَاغَتِ الشمس تَزِيغ زيُوغاً ، فهي زَائغةٌ : إذا مالت وزالت ، وزاغت الأبصار ، أي : مالت عن مكانها ، كما يعرض للإنسان عند الخوف .

والزيغ : الشك ، والجور عن الحق ، ومنه قوله تعالى : ﴿فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ [آل عمران : ٧] ، وتزايغ : تمايل ، وخص بعضهم به التمايل في الأسنان ، وهو مجاز .[٢]

وعرف الراغب الزيغ بقوله:"الزيغ: الميل عن الاستقامة"[٣]

ثانياً:الزيغ عن الحق عقوبة إلهية:

الزيغ عن الحق عقوبة إلهية يجهلها كثير من الناس،بسبب كونها عقوبة قلبية معنوية، وليست عقوبة حسية مادية ،ورغم ذلك فهذه العقوبة قد عُوقبت بها أمم سابقة بسبب معاصيهم،فقد أخبرنا الله تبارك وتعالى أنه عاقب بها اليهود، بسبب إيذاءهم لموسى عليه الصلاة والسلام حيث قال الله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾[الصف : ٥]

يقول الشيخ السعدي في تفسير الآية الكريمة: " والرسول من حقه الإكرام والإعظام، والانقياد بأوامره، والابتدار لحكمه، وأما أذية الرسول الذي إحسانه إلى الخلق فوق كل إحسان بعد إحسان الله، ففي غاية الوقاحة والجراءة ،والزيغ عن الصراط المستقيم، الذي قد علموه

---

[١] انظر: الاختلاف في أصول الدين أسبابه وأحكامه، إبراهيم البريكان ، ص٦

[٢] معجم مقاييس اللغة لابن فارس– (٣ / ٣٠) ،تهذيب اللغة ،للأزهري – (٨ / ١٥١)، تاج العروس،للزبيدي – (٢٢ / ٤٩٧).

[٣] مفردات ألفاظ القرآن – (١ / ٤٤٦).

وتركوه، ولهذا قال: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا ﴾ أي: انصرفوا عن الحق بقصدهم ﴿ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ عقوبة لهم على زيغهم الذي اختاروه لأنفسهم ورضوه لها، ولم يوفقهم الله للهدى، لأنهم لا يليق بهم الخير، ولا يصلحون إلا للشر."(١)

والإيذاء الذي تعرض له موسى عليه الصلاة والسلام من بني إسرائيل – وهو الذي خلصهم من فرعون وظلمه بقدرة الله– هو إيذاء شديد متطاول ومتعدد الألوان والأشكال،شهده طوال فترة دعوته لبني إسرائيل، محاولاً تهذيب طباعهم السيئة،وتصحيح عقولهم السقيمة،وصور هذا الأذى ذكرها القرآن الكريم في مواضع متعددة فلقد " كانوا يتسخطون على موسى وهو يحاول مع فرعون إنقاذهم ، ويتعرض لبطشه وجبروته ،وهم آمنون بذلتهم له! فكانوا يقولون له لائمين متبرمين : ﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ [الأعراف : ١٢٩] كأنهم لا يرون في رسالته خيراً ، أو كأنما يحملونه تبعة هذا الأذى الأخير!

وما كاد ينقذهم من ذل فرعون باسم الله الواحد الذي أنقذهم من فرعون وأغرقه وهم ينظرون، حتى مالوا إلى عبادة فرعون وقومه ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ [الأعراف : ١٣٨] ،وما كاد يذهب لميقات ربه على الجبل ليتلقى الألواح ، حتى أضلهم السامري : ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴾ [طه : ٨٨] ثم جعلوا يتسخطون على طعامهم في الصحراء : المن والسلوى ، فقالوا : ﴿يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ [البقرة : ٦١]

وفي حادث البقرة التي كلفوا ذبحها ظلوا يماحكون، ويتعللون، ويسيئون الأدب مع نبيهم وربهم وهم يقولون :﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ [البقرة : ٦٨] ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ﴾ [البقرة : ٦٩].. ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة : ٧١] ثم طلبوا يوم عطلة مقدساً فلما كتب عليهم السبت اعتدوا فيه .

وأمام الأرض المقدسة التي بشرهم الله بدخولها ،وقفوا متخاذلين يصعرون خدهم في الوقت ذاته لموسى : ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة : ٢٢] فلما كرر عليهم التحضيض والتشجيع، تبجحوا وكفروا : ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾[المائدة : ٢٤] ذلك إلى إعنات موسى بالأسئلة والاقتراحات والعصيان والتمرد ، والاتهام الشخصي بالباطل كما جاء في بعض الأحاديث .(٢)

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص٨٥٨.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ، سيد قطب– (٧ / ١٩٤).

هذه الصور من العناء الذي تعرض له موسى عليه الصلاة والسلام،تجسد حقيقة واحدة،هي أن طريق الدعوة إلى الله تعالى طريق شاق مكلف،يحتاج فيه الداعية إلى صبر وجلد؛لأن طريق الدعوة ليست مفروشة بالورود والرياحين،بل هي محفوفة بالأشواك والعثرات،ورغم ذلك فهي طريق الدعاة المخلصين الذين لا يدخرون جهداً في سبيل نشر دين الله تعالى ،ولو كلفهم ذلك أرواحهم.

والآية الكريمة من سورة الصف تجمع بين مقدمة ونتيجتين أما المقدمة فهي ما بذله موسى من عنت وجهد كبيرين في سبيل هداية قومه، وما تحمله من مشاق وأذى وضنك؛لاستنقاذ قومه من الضلال،والنتيجة الأولى أضمرتها الآية وهي تولي قومه عن الاستجابة لدعوته،وإعراضهم عن متابعته،بعد أن استفرغ موسى عليه الصلاة والسلام كل وسائل الدعوة الممكنة لانتشال قومه من طريق الضلال،وترتب على هذه النتيجة المضمرة نتيجة ثانية أظهرتها الآية وهي تمثل العقوبة الإلهية بحق من أدار ظهره لدعوة الدعاة،وأغلق عينيه عن رؤية الحق،وأصمَّ أذنيه عن سماع الهدى،ولم يُرد أن يكون من المهتدين الراشدين السائرين على طريق الحق والإيمان،هذه العقوبة تتمثل في إزاغة القلوب عن إرادة الهداية والرشاد.

والقلب إذا اعتاد المعاصي وأُشرِبَها ،ولم يعد ينكرها أو يبغضها، تصبح في عرفه أمراً معتاداً غير مستهجن ولا مستكره، فصاحب هذا القلب المريض يعاقبه الله تعالى بأن يزيغ قلبه عن الهدى والرشاد،يقول ابن القيم رحمه الله: "وهكذا إذا أعرض العبد عن ربه سبحانه جازاه بأن يُعرض عنه فلا يمَكِّنه من الإقبال عليه، ولتكن قصة إبليس منك على ذكر ،تنتفع بها أتم انتفاع، فإنه لما عصى ربه تعالى، ولم ينْقَد لأمره، وأصرَّ على ذلك عاقبه بأن جعله داعياً إلى كل معصية ،فعاقبه على معصيته الأولى بأن جعله داعياً إلى كل معصية وفروعها، صغيرها وكبيرها، وصار هذا الإعراض والكفر منه عقوبة لذلك الإعراض والكفر السابق ،فمن عقاب السيئة السيئة بعدها،كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها"[١]

وهذه الإزاغة القلبية هي من فعل الله تعالى بحق من زاغ ومال عن الهدى واستمرأ هذا الضلال،وتكرر منه العصيان دون أن يرتدع أو يتوب ،واستمر على ذلك دون أن تؤثر المواعظ فى قلوبه قال مقاتل[٢] رحمه الله في تفسيره للآية : " لما عدلوا عن الحق،أمال الله قلوبهم عنه"[٣]

---

[١] شفاء العليل، ص ٩٧.

[٢] هو مقاتل بن سليمان البلخي،أخذ التفسير عن: مجاهد، والضحاك، حُكِي عن الشافعي أنه قال: كلهم عيال مقاتل بن سليمان في التفسير توفي سنة خمسين ومائة. انظر: طبقات المفسرين ، الأدنروي – (١ / ٢٠) ،سير أعلام النبلاء ،للذهبي– (٧ / ٢٠١).

[٣] تفسير مقاتل بن سليمان – (٣ / ٣٥٥).

وقال الشوكاني في تفسير قوله تعالى :**﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾**: " أي لما أصروا على الزيغ،واستمروا عليه، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى ،وصرفها عن قبول الحق،وقيل: فلما زاغوا عن الإيمان أزاغ الله قلوبهم عن الثواب "[(١)]

ثالثاً:صور الإزاغة عن الحق:

١- الإمداد بالضلالة:

قال تعالى : **﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴾** [مريم : ٧٥]

والمعنى أن من كان في الضلالة، ورضيها لنفسه،ورغب فيها، وسعى إليها، فإن الله يمده منها، ويزيده فيها حباً، عقوبة له على اختيارها على الهدى.

٢- إمْراض القلوب :

القلوب المريضة التي أصابها مرض الشك في دين الله،والتذبذب وعدم الثبات على العقيدة،يعاقبها الله تعالى بزيادة هذا المرض،والإيغال فيه والعياذ بالله قال تعالى: **﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾** [البقرة : ١٠]

والمراد بهم في الآية المنافقون كما قال المفسرون،والمرض الذي أصابهم هو مرض في دينهم وعقيدتهم كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: "هذا مرض في الدين، وليس مرضًا في الأجساد، وهم المنافقون، والمرض: الشك الذي دخلهم في الإسلام **﴿ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾** قال: زادهم رجسًا، وقرأ: **﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾** [التوبة: ١٢٤، ١٢٥] قال: شرًا إلى شرهم وضلالة إلى ضلالتهم."[(٢)]

قال ابن كثير:"وهذا الذي قاله عبد الرحمن، رحمه الله، حسن، وهو الجزاء من جنس العمل"[(٣)]

وفي عصرنا كثر المشككون في دين الله،والطاعنون في صلاحية هذا الدين لعصر الحداثة والعلم،وهؤلاء مهما بذلوا من جهد،ومهما مكروا من مكر فلن يستطيعوا أن يطفئوا نور الله ،لأن الله وعد أن يتم نوره وأن يبقى الإسلام ما بقي الليل والنهار، ومثلهم كمثل من يريد أن يغطيَ نور الشمس بيده ،ولن يعود عليهم هذا التشكيك إلا مرضاً في قلوبهم ،ورجساً في أفئدتهم **﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾** [الصف : ٨]

٣- صرف القلوب عن فهم القرآن : الذين في نفوسهم شك وكفر ونفاق،لا ينتفعون بآيات القرآن،بل يزيدهم كفراً ونفاقاً مضموماً إلى كفرهم ونفاقهم،كما قال تعالى:**﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ**

[(١)] فتح القدير ، للشوكاني – (٥ / ٢٢٠).

[(٢)] تفسير القرآن العظيم – (١ / ١٧٩).

[(٣)] المصدر السابق نفس الصفحة.

سُورَةٌ نَظَرَ بَعضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾[التوبة : ١٢٧]

وفى قوله تعالى : ﴿ **صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ** ﴾ "حكم عليهم من اللّه سبحانه وتعالى بأنه قد صرف قلوبهم عن الحقّ ، وختم عليها أن ترى الهدى ، وأن تطمئن إليه ، لأنهم قوم لا يفقهون شيئا ، ولا يفرقون بين نور وظلام ، وهدى وضلال .."[١]

وأما المؤمنون الصادقون يزيدهم نزول القرآن يقيناً وتصديقاً وقوة دافعةً إلى العمل به، ويفرحون بنزول السورة، لأنها تزكي أنفسهم، وترشدهم إلى سعادة الدنيا والآخرة.

٤- طبع القلوب:

وهي من صور العقاب الذي يجازي به الله تعالى الذين يتبعون أهواءهم،فيطبع على قلوبهم التي لا يهوون فيها إلا الباطل،فيختم عليها، ويسد أبواب الخير التي تصل إليها قال تعالى في شأن الذين طبع على قلوبهم: ﴿ **وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ * وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ** ﴾ [محمد : ١٦-١٧]

وقال كذلك:﴿ **اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ** ﴾ [المنافقون : ٢ ، ٣]

والطبع على القلب الوارد في الآيات هو تمثيل لعدم مخالطة الهدى والرشد لعقولهم بحال الكِتاب المطبوع عليه ، أو الإناء المختوم بحيث لا يصل إليه من يحاول الوصول إلى داخله ،وهذا الطبع متفاوت يزول بعضه عَن بعض أهله في مدد متفاوتة ويدوم مع بعضهم إلى الموت ، وزواله بانتهاء ما في العقل والقلب من غشاوة الضلالة[٢]

المطلب السادس:قساوة القلب:

القلب هو أشرف ما في الإنسان،به يصلح وبه يفسد ،ولقد اعتنى الشارع الحكيم بهذا العضو الخطير، وسعى الى تطهيره ، وتنقيته من الشوائب، وحث العبد على إصلاحه فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : **(ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)**[٣] وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)**[٤]

---

[١] التفسير القرآني للقرآن،عبد الكريم الخطيب- (٦ / ٩٢٤).

[٢] انظر:التحرير والتنوير ، لابن عاشور - (٢٦ / ١٠١).

[٣] صحيح البخاري،كتاب (الايمان)، باب٣٧(فضل من استبرأ لدينه)- (١ / ٢٨) ،ح(٥٢).

[٤] صحيح مسلم ،كتاب (البر) ، باب١٠(تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره..)- (٤ / ١٩٧٤)،ح (٢٥٦٤).

أولاً:تعريف قساوة القلب:

أ. القساوة لغة:

القاف والسين والواو يدلُّ على شِدَّة وصلابة، ومن ذلك الحجر القاسي، والقَسْوة: غِلَظ القَلْب،والقاسية: اللَّيلة الباردة، ومن الباب المُقاساة: معالجَة الأمر الشَّديد،وقلب قاس .. أي صلب يابس جاف عن الذكر غير قابله،والقساوة غلظ القلب وصلابته [1]

ب. القلب لغة:

القاف واللام والباء أصلانِ صحيحان: أحدهما يدلّ على خالِص شَيءٍ وشَريفِه، والآخَرُ على رَدِّ شيءٍ من جهةٍ إلى جهة.

فالأصل الأوَّل: قلب الإنسان سمِّي بذلك لأنَّه أخْلصُ شيء فيه وأرفَعُه، وخالِصُ كلِّ شيءٍ وأشرفُه قَلْبُه، وقلب الإنسان قيل: سمي به لكثرة تقَلُّبه، ويعبر بالقلب عن المعاني التي تختص به من الروح،والعلم،والشجاعة وغير ذلك، وتقليب الله القلوب:صرفها من رأي إلى رأي.

والأصل الثاني: هو تَحْويلُ الشيءِ عن وجهه ،وتَقَلَّبَ الشيءُ ظهراً لبَطْنٍ كالحَيَّةِ تَتَقَلَّبُ، و (قَلَبْتُ) الرداء حولته و جعلت أعلاه أسفله [2]

ج.قساوة القلب اصطلاحاً:

قساوة القلب مصطلح قرآني ورد في القرآن الكريم في عدة مواضع،في وصف قلوب المنكرين والمعاندين لدعوة التوحيد،وكذلك ورد في سياق تحذير أمة الإسلام من هذا الداء العضال الذي أصاب عدداً من الأمم السابقة وعلى رأسهم اليهود؛ عقوبة لهم على ما اجترحوه من سيئات،وقد ذكر العلماء لقساوة القلب عدة تعريفات اصطلاحية متقاربة المضمون ومنها:

١- قيل:" هي عبارة عن خلو القلب من الإنابة والإذعان لآيات الله تعالى"[3]

٢- وقيل :" يُبْس في القلب يمنعه من الانفعال، وغلظة تمنعه من التأثير بالنوازل ،فلا يتأثر لغلظته وقساوته"[4]

٣- وقيل:"قلة تأثّر العقل بما يُسدى إلى صاحبه من المواعظ"[5]

---

[1] انظر: معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس- (٥ / ٨٧) ،المفردات في غريب القرآن ص ٤٠٤ ،التبيان تفسير غريب القرآن، شهاب الدين أحمد بن محمد المصري - (١ / ٩٥) . مختار الصحاح ، محمد بن أبي الرازي - (١ / ٥٦٠)، المصباح المنير ،للفيومي - (٢ / ٥٠٣).

[2] انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس - (٥ / ٨٧)، مفردات ألفاظ القرآن ،للراغب الأصفهاني- (٢ / ٢٥٨)، لسان العرب ، لابن منظور - (١ / ٦٨٥)، المصباح المنير ،للفيومي - (٢ / ٥١٢).

[3] بدائع الفوائد،لابن القيم - (٣ / ٧٤٣).

[4] الروح،لابن القيم ، ص٢٤١.

[5] التحرير والتنوير ، لابن عاشور - (٢٣ / ٣٨١).

ويمكن الخلوص بتعريف جامع لهذه العقوبة الربانية وهو:

(جمود في القلب يمنعه من التأثر بالعظات،بسبب استمراء الذنوب والموبقات)

ثانياً: قساوة القلب من أشد عقوبات:

قساوة القلب هي من أشد أنواع العقوبات التي يعاقب الله تعالى بها العبد،ليجازيه على التمادي في الكفر والشرك، أوالفسوق و العصيان،والدليل على أن قساوة القلب عقوبة قوله تعالى عن اليهود:﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً**﴾ [المائدة:١٣]

فحينما ينسى العبد ربه ويعرض عن منهج خالقه إعراضاً يتمنَّع معه من الرجوع والتوبة والإنابة،يُخشى عليه أن يعاقبه الله تعالى بهذه العقوبة الشديدة،وحينما ينسى العبد رقابة ربه عليه ،وينسى أنه مطلع على فعله، سامع لقوله ونجواه،ويطول عليه الأمد في ذلك، يخشى عليه أن يعاقبه الله تعالى بهذه العقوبة الشديدة قال تعالى عن المنافقين :﴿ **نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ** ﴾ [التوبة : ٦٧]

وعندما تغيب المعاني الإيمانية عن قلب العبد، وتتجذَّر الخواطر الشيطانية فيه، فإنه يتيه في ظلمات الضلال والغواية والعصيان،و يخشى عليه أن يعاقبه الله تعالى بهذه العقوبة الشديدة، وما أعظمها من عقوبة ،والعجب أن صاحب هذا القلب لا يشعر بأنه معاقب،مع كون عقوبته شديدة.

يقول مالك بن دينار رحمه الله[١]: "إن لله عقوبات في القلوب والأبدان، ضنك في المعيشة ،ووهن في العبادة،وما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب "[٢]

وأكَّد على نفس الحقيقة حذيفة المرعشي رحمه الله[٣] فقال:" ما أصيب أحد بمصيبة أعظم من قساوة قلبه"[٤]

"ومتى رأيت القلب قد ترحل عنه حبِّ الله ،والاستعداد للقائه، وحل فيه حب المخلوق، والرضا بالحياة الدنيا،والطمأنينة بها، فاعلم أنه قد خسف به، ومتى أقحطت العين من البكاء من خشية الله تعالى، فاعلم أن قحطها من قسوة القلب، وأبعد القلوب من الله القلب القاسي،

---

[١] هو أبو يحيى البصري ،الزاهد، العارف، الخائف ، كان لشهوات الدنيا تاركاً، وللنفس عن غلبتها مالكاً، كان من المتعبدة الصُبَّر والمتقشفة الخُشَّن ،وكان يكتب المصاحف بالأجرة ويتقوت بأجرته، وكان يجانب الإباحات جهده ولا يأكل شيئا من الطيبات ،مات سنة ثلاث وعشرين ومئة وقيل سنة سبع وعشرين ومئة . انظر:حلية الأولياء ، أبو نعيم الأصبهاني – (٢ / ٣٥٧).

[٢] حلية الأولياء – (٦ / ٢٨٧)

[٣] هو حذيفة بن قتادة المرعشي ،كان عابداً، متواضعاً ،خاضعاً، متوادعاً، صحب سفيان الثوري وسمع منه،كان ممن لا يأكل إلا الحلال المحض،و سكن أنطاكية .حلية الأولياء – (٨ / ٢٦٧) الثقات ، لابن حبان – (٨ / ٢١٥)

[٤] صفة الصفوة ،لابن الجوزي– (٤ / ٢٦٩)

ومتى رأيت نفسك تهرب من الأنس به إلى الأنس بالخلق ،ومن الخلوة مع الله ،إلى الخلوة مع الأغيار، فاعلم أنك لا تصلح له "[1]

وهذه هي العقوبة الدنيوية للعبد الآبق عن ذكر الله،أما في الآخرة فقد توعد الله الذين قست قلوبهم عن ذكره بالهلاك والخزى والعياذ بالله قال تعالى: **﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾**[الزمر: ٢٢]

ثانياً:قلوب اليهود أقسى من الحجارة:

وصف القرآن الكريم قلوب اليهود بأنها قاسية،وقد بلغت في قساوتها مبلغاً كبيراً فاقت فيه قساوة الحجارة قال تعالى في شأن ذلك: **﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾** [البقرة : ٧٤]

والعطف بـ"ثم" في الآية جاء على قصة إحياء الميت، ومعنى الآية الكريمة : ثم صلبت قلوبكم يا بني إسرائيل وغلظت من بعد أن رأت ما رأت من آيات باهرات تدل على قدرة الخالق سبحانه ، منها إحياء القتيل أمام ناظريكم ، فهي كالحجارة في صلابتها ويبوستها ، بل هي أشد صلابة منها ، لأن من الحجارة أنواع ينبجس منها الماء عبر الثقوب ، فتعود بالمنافع على المخلوقات ، ولأن من بينها ما يتصدق تصدعاً قليلاً فيخرج منه ماء العيون والآبار ولأن منها ما يتردى من رأس الجبل إلى الأرض والسفح من خوف الله وخشيته ، أما أنتم – يا بني إسرائيل – فإن قلوبكم لا تتأثر بالمواعظ ولا تنقاد للخير، ولا تفعل ما تؤمر به مهما تعاقبت عليكم النعم والنقم والآيات ، وما الله بغافل عما تعملون.

وفي الآية بيان لفضل الحجارة على قلوبهم القاسية ، قصد به إظهار زيادة قسوة قلوبهم عن الحجارة ، لأن هذا الأمر لغرابته يحتاج إلى بيان سببه .

"وفي الكلام من المبالغة أن هذه القلوب فقدت خاصية التأثر والانفعال بما يرد عليها من المواعظ والآيات التي هي من خواص الروح الإنساني ، حتى كأن أصحابها هبطوا من درجة الحيوان إلى دركة الجماد كالحجارة ، بل نزلوا عن دركة الحجارة أيضاً ، وذلك ما أفاده قوله تعالى : **﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار...﴾** "[2]

"والحجارة التي يقيس قلوبهم إليها ، فإذا قلوبهم منها أجدب وأقسى ،هي حجارة لهم بها سابق عهد ، فقد رأوا الحجر تتفجر منه اثنتا عشرة عيناً ، ورأوا الجبل يندَّك حين تجلى عليه الله وخر موسى صعقاً! ولكن قلوبهم لا تلين ولا تندى ، ولا تنبض بخشية ولا تقوى، قلوب قاسية

---

[1] بدائع الفوائد،لابن القيم – (٣ / ٧٤٣)

[2] تفسير المنار ،محمد رشيد رضا– (١ / ٢٩٢).

جاسية مجدبة كافرة " [1]

ولقد لخص القرآن الكريم السبب الذي أوصل اليهود إلى قسوة القلوب، ليحذرنا من الوقوع فيما وقع فيه اليهود من قبلنا، قال تعالى:**﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾** [المائدة : ١٣]

" قوله: **﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾** أي: غليظة لا تجدي فيها المواعظ، ولا تنفعها الآيات والنذر، فلا يرغبهم تشويق، ولا يزعجهم تخويف، وهذا من أعظم العقوبات على العبد، أن يكون قلبه بهذه الصفة التي لا يفيده الهدى، والخير إلا شراً."[2]

والباء في الآية سببية،أي بسبب نقضهم للميثاق لعناهم أي طردناهم من رحمتنا وجعلنا قلوبهم قاسية لا تعي الحق أي:

" فبسبب نقضهم للميثاق الذي أخذ عليهم – ومن ذلك الإيمان بمن يرسلون من الرسل ونصرهم وتبجيلهم وتعظيمهم – استحقوا مقتنا وغضبنا والبعد من ألطافنا ، فإن نقض الميثاق أفسد فطرتهم ودنس نفوسهم ، وقسى قلوبهم ، حتى قتلوا الأنبياء بغير حق ،وافتروا على مريم وأهانوا ولدها الذي أرسل إليهم ؛لإصلاح ما فسد من عقائدهم وأخلاقهم ، وحاولوا قتله وافتخروا بذلك – فبكل هذا بعدوا عن رحمة الله ، إذ جرت سنته أن الأعمال السيئة تؤثر فى النفوس آثاراً سيئة ، فتجعل القلوب قاسية لا تؤثر فيها الحجة والموعظة ، ومن ثم تستحق مقت الله وغضبه ،والبعد من فضله ورحمته ، وما مثل هذا إلا مثل من يهمل العناية بنفسه ، ولا يراعى القوانين الصحية فهو لا شك سيصاب بالأمراض والأسقام ، ولا يلومنَّ حينئذ إلا نفسه ، إذ كان هو السبب فى ذلك بإهماله."[3]

وذكرت الآية بعض نتائج تلك القسوة، فقال :**﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾** فقسوة القلوب لا تقف عند حدٍّ عدم قبول الحق،بل تستدرج الإنسان إلى آثام ومعاصٍ أخرى،لأن الإنسان إذا لم يستجب للحق فإنه سوف يستجيب للباطل،وإذا لم يكن مع حزب الرحمن كان مع حزب الشيطان والعياذ بالله.

واختلف القراء رحمهم الله في قراءة كلمة "قاسية":

- فحمزة والكسائي بحذف الألف وتشديد الياء هكذا"قَسِيَّة" فهي إما للمبالغة أو بمعنى رديَّة من قولهم :"درهم قسيّ"أي مغشوش،فهذه القراءة تفيد معنىً جديداً زائداً عن القراءة المشهورة ،وهي أن قساوة قلوب اليهود ليست كأي قساوة؛ بل هي قساوة شديدة لا يخالطها لين.

---

[1] في ظلال القرآن ، سيد قطب – (١ / ٥٣).

[2] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان،للسعدي ، ص٢٢٥.

[3] تفسير المراغى – (٦ / ٧٤).

- وقرأ الباقون بالألف والتخفيف ،اسم فاعل من قسى يقسو، هكذا "قاسِيَة"[١]

والميثاق الذي أخذه الله تعالى على بني إسرائيل،وأمرهم بالوفاء به،والعمل بمقتضاه، أجملته هذه الآية التي معنا،و فصلته آيات أخرى وبينت ما فيه من الأوامر الربانية التي أُمر بها بنو إسرائيل، كي يستقيموا على أمر الله تعالى،لكن بني إسرائيل أهملوها، وتناسوها ولم يعملوا بها–إلا قليلاً منهم– فكانوا بذلك ناقضين للميثاق الذي أخذ عليهم،وناكثين للعهد الذي أخذوه على أنفسهم،فاستحقوا العقوبات الكثيرة التي نزلت بهم،والتي سبق الحديث عن كثير منها آنفاً،وما زال الحديث مستمراً عنها في هذا المطلب،ونورد هنا الآيات التي فصلت الميثاق الذي أخذ على بني إسرائيل وما جاء به من الأوامر والنواهي ، لكي نحذر من الوقوع فيما وقعوا فيه من الزواجر،ونأتمر بما أمروا به الأوامر:

١– قوله تعالى :**﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾** [البقرة : ٨٤]

٢– قوله تعالى:**﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾** [البقرة : ٨٣]

٣– قوله تعالى**﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾** [آل عمران : ١٨٧]

٤– وقوله تعالى:**﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾** [المائدة : ١٢]

ثالثاً:قسوة القلوب إلى حد الوحشية:

وقسوة قلوب اليهود لا تقف عند حدِّ الجمود وعدم التأثر بالتذكير،بل تعدَّت إلى أبعد من ذلك،فقد ترتب على قسوة قلوبهم قسوة أخرى في تعاملهم مع البشر، قسوة سطرها التاريخ في سيرتهم الحافلة بالصفحات السوداء،وبالجرائم ضد الإنسانية،التي تعددت أشكالها وألوانها،من قتل للأنفس البريئة، وتخريب للبلاد العامرة،وإفساد للحرث والنسل،قال الله تعالى:**﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾**[المائدة : ٦٤] وهذه الجرائم النابعة من قسوة قلوبهم قد بدأت منذ نشأتهم،وإرسال الرسل لهدايتهم فقد قتلوا رسلهم وأنبياءهم،وحاولوا قتل عيسى عليه الصلاة والسلام غير أن

---

[١] انظر:إتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربعة عشر ، أحمد بن محمد الدمياطي، ص ٢٥١.

الله أنجاه منهم ،وحاولوا قتل النبي صلى الله عليه وسلم لكن الله عصمه من كيدهم.

واستمرت هذه السلسلة من الجرائم البشعة ضد البشرية جمعاء،كلما دخلوا أرضاً حولوها إلى خراب ودمار ،وعثوا فيها مفسدين،حتى انتهى بهم قطار جرائمهم إلى أرض فلسطين التي شهدت على أشد الجرائم ضد البشرية على مر التاريخ[١]،فقد قام اليهود بأفظع الجرائم البشعة ضد الشعب الفلسطيني المسلم، ما بين ارتكاب للمجازر بحقه، وبين تشريده، وتهجيره ،ومحاولة إذلاله ، والتسلط عليه ، وانتهاك حرماته ومقدساته الإسلامية، والهيمنة عليها،ومحاولة تهويدها، وهذه الأفعال المشينة التي ترفضها كل شريعة إلهية حقة ،وتمجّها كل الأعراف الإنسانية،والقوانين الدولية، تسجّل على أصحابها المستوى الهابط الذي وصلت إليه أخلاقهم، وتشير إلى مدى الحقد على هذه الأمة، وما أحوج المسلمين في هذا الزمن إلى أن يرجعوا إلى دينهم اعتقاداً وإقراراً وعملاً، وينظروا في مواقع الخلَل ومواطن الزلل، ويصلحوا ما فسد، ويكونوا وَحدة كالجسد، ليغسِلوا عنهم أوضار الذلِّ والهوان، ويُزيلوا غُصَصَ القهر والخذلان،ويحرروا البلاد والأوطان﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد : ١١]

رابعاً:التحذير القرآني من قساوة القلب:

إن أيَّ أمة يطول عليها الأمد وهي تتقلب في بحبوحة النعم،وسعة الرزق، على فسق وفجور ومعصية ونسيان لربها وحق شكره، تقسو قلوبها فلا تخشع لذكر الله وما نزل من الحق، وبهذا يبتعدون عن مهابط الرحمة ، فتعاقب بقسوة القلوب.

ولذلك فقد حذر القرآن الكريم من هذه العاقبة الأليمة التي آلت إليها أمم قبل أمة الإسلام،حتى طال عليها الأمد في المعاصي والفجور ،حتى صارت المنكرات منطبعة في القلوب،ومستساغة لا تجد من ينكرها،فضرب الله على قلوبهم القسوة حتى صاروا لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً،قال تعالى داعياً المؤمنين للخشوع لذكره ومحذراً من مصير الذين طال عليهم أمد المعصية من أهل الكتاب:﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ *اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ [الحديد : ١٦ ، ١٧]

"نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب قبلهم من اليهود والنصارى، لما تطاول عليهم الأمد،بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم ،واشتروا به ثمنًا قليلاً، ونبذوه وراء ظهورهم،

---

[١] للتوسع في معرفة الجرائم البشعة التي ارتكبها اليهود مع الشعب الفلسطيني راجع كتاب"الصهيونية والعنف" لعبد الوهاب المسيري،وكتاب" جهاد شعب فلسطين".

وأقبلوا على الآراء المختلفة، والأقوال المؤتفكة، وقلدوا الرجال في دين الله، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، فعند ذلك قست قلوبهم، فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد."[1]

والقلب –كما ذُكر–إنما سمي قلباً لكثرة تقلبه،فهو يتقلب من حال إلى حال، فإذا ما ذكِّر المؤمن بالله تعالى ، وبالدار الآخرة وبالموت ،وخوِّف بعقاب الله تعالى، ،رقَّ ولان واستجاب لنداء الحق، وهذا حال المؤمنين كما أخبر الله تعالى عن حال المؤمنين إذا سمعوا آيات القرآن : **﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾** [الزمر : ٢٣]

"إن هذا القلب البشري سريع التقلب ، سريع النسيان ، وهو يشف ويشرق فيفيض بالنور ، ويرف كالشعاع؛ فإذا طال عليه الأمد بلا تذكير ولا تذكر تبلد وقساً ، وانطمست إشراقاته ، وأظلم وأعتم! فلا بد من تذكير هذا القلب حتى يذكر ويخشع ، ولا بد من الطرق عليه حتى يرق ويشف؛ ولا بد من اليقظة الدائمة كي لا يصيبه التبلد والقساوة .

ولكن لا يأس من قلب خمد وجمد وقسا وتبلد ، فإنه يمكن أن تدب فيه الحياة ، وأن يشرق فيه النور ،وأن يخشع لذكر الله، فالله يحيي الأرض بعد موتها ، فتنبض بالحياة ، وتزخر بالنبت والزهر ، وتمنح الأكل والثمار "[2]

وإذا طال علي القلب أمد المعصية،بلا مذكر ولا واعظ، رانت علي قلبه المعاصي، واستحكمت في قلبه حتى تحوله إلى قلبٍ قاسٍ كالحجارة والعياذ بالله ،وفسد حال العبد ،وخلت عبادته من الخشوع ، وغلب عليه البخل والكبر وسوء الظن،وصار بعيداً عن الله ، وأحس بالضيق والشدّة،وفقر النفس، ولو ملك الدنيا بأسرها، وحُرِم لذة العبادة ،ومناجاة الله ،وصار عبداً للدنيا مفتوناً بها ، وطال عليه الأمد ،واستولت عليه لذاته وأهواؤه، وصار محاطاً بها أسيراً لها، حتى تستولي عليه الذنوب، وتأخذ بمجامع قلبه، فيتحول طبعه مائلاً إلى المعاصي، مستحسناً إياها،معتقداً أن لا لذة سواها، مُبغِضا لمن يحول بينه وبينها،مُكذِّبا لمن ينصحه بالبعد عنها،قال تعالى:**﴿ بلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾** [البقرة : ٨١]

وجاء في الحديث أن عمر رضي الله عنه قال :أيكم سمع النبي صلى الله عليه وسلم يذكر الفتن التي تموج موج البحر قال حذيفة فأسكت القوم فقلت: أنا ،قال: (أنت لله أبوك) قال حذيفة :سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:(**تعرض الفتن على القلوب كالحصير**

---

[1] تفسير القرآن العظيم،لابن كثير – (٨ / ٢٠).

[2] في ظلال القرآن ، سيد قطب– (٧ / ١٣٣).

عوداً عوداً ،فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير على قلبين،على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادا[1] كالكوز مُجَخِّيا[2]،لا يعرف معروفا ولا ينكر منكراً، إلا ما أشرب من هواه)[3]

خامساً:علاج قسوة القلوب:

قال تعالى: ﴿ **اعْلَمُوا أَنَّ اللَّـهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾[الحديد: ١٧] رقة القلب من أجل النعم وأعظمها ، وما من قلب يُحرم هذه النعمة إلا كان صاحبه موعوداً بعذاب الله قال سبحانه ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّـهِ** ﴾ [الزمر: ٢٢] وما رق قلب لله وانكسر إلا كان صاحبه سابقاً إلى الخيرات ، مشمراً إلى الطاعات ، أحرص ما يكون على طاعة الله ومحبته ، وأبعد ما يكون من معاصيه .

وسيذكر الباحث بعض النقاط في علاج قسوة القلب ، وتجعله رقيقاً منكسراً لخالقه ومولاه

١- المعرفة بالله تعالى :

فمن عرف ربه حق المعرفة رقَّ قلبه ، ومن جهل بصفات ربه قسا قلبه ، وما وُجد قلب قاسٍ إلا كان صاحبه أجهل العباد بالله عز وجل،وأبعدهم عن المعرفة به ، وكلما عظم الجهل بالله ،كلما كان العبد أكثر جرأة على حدوده ومحارمه ، وكلما وجدت الشخص يديم التفكير في ملكوت الله ، ويتذكر نعم الله عليه التي لا تعد ولا تحصى ، كلما وجدت في قلبه رقة .

٢- النظر في آيات القرآن الكريم :

والتفكر في وعده ووعيده وأمر ونهيه ، فما قرأ عبد القرآن وكان عند قراءته حاضر القلب مفكراً متأملاً إلا وجد عينه تدمع ، وقلب يخشع ، ونفسه تتوهج إيماناً من أعماقها تريد السير إلى ربها ،يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاء وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**﴾ [الزمر : ٢٣]

٣- تذكر الموت وما بعده :

من سؤال القبر وظلمته ووحشته وضيقه ، وأهوال الموت وسكراته ، ومشاهدة أحوال المحتضرين وحضور الجنائز ، فإن هذا مما يوقظ النفس من نومها ، ويوقفها من رقدها ،

---

[1] لون بين البياض والسواد والغبرة مثل لون الرماد،انظر: مشارق الأنوار على صحاح الآثار،للقاضي عياض - (١ / ٢٧٩).

[2] أي مائلاً انظر:الفائق في غريب الحديث و الأثر، للزمخشري - (٢ / ٤١٨).

[3] صحيح مسلم ، (كتاب الإيمان) ،باب ٦٥ (بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا ...)- (١ / ١٢٩)،ح(١٤٤).

وينبهها من غفلتها ، فتعود إلى ربها وترق ،وإن القلب ليخشع حين يتلو آيات القرآن وهي تذكر بالموت وسكراته كقوله تعالى:**﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ *وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ * وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ *إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾**[القيامة : ٢٦– ٣٠]

٤– تذكر الآخرة والتفكر في القيامة وأهوالها :

والجنة وما أعد الله فيها للطائعين من النعيم المقيم ، والنار وما أعد الله فيها للعاصين من العذاب المقيم ، فإن ذلك يذهب النوم عن الجفون ، ويحرك الهمم الساكنة والعزائم الفاترة ، فتقبل على ربها إقبال المنيب الصادق ، وعندها يرق القلب .

٥– الإكثار من الذكر والاستغفار :

فإن للقلب قسوة لا يذيبها إلى ذكر الله تعالى ، فينبغي للعبد أن يداوي قسوة قلبه بذكر الله تعالى ،قال تعالى : **﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾** [الرعد : ٢٨] وقد قال رجل للحسن : يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبي قال :(أذِبه بالذكر)[١] وهذا لأن القلب كلما اشتدت به الغفلة اشتدت به القسوة ، فإذا ذكر الله تعالى ذابت تلك القسوة كما يذوب الرصاص في النار ،فما أذيبت قسوة القلب بمثل ذكر الله تعالى ، يقول ابن القيم رحمه الله : "صدأ القلب بأمرين : بالغفلة والذنب ، وجلاؤه بشيئين بالاستغفار والذكر ..."[٢].

٦– زيارة الصالحين وصحبتهم ومخالطتهم والقرب منهم :

فهم يأخذون بيدك إن ضعفت ، ويذكرونك إذا نسيت ، ويرشدونك إذا جهلت ، إن افتقرت فقدوك ، وإن دعوا الله لم ينسوك، ورؤيتهم تذكر بالله وتعين على الطاعة ، قال تعالى **﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾**[الكهف : ٢٨]

٧– مجاهدة النفس ومحاسبتها ومعاتبتها :

فإن الإنسان إذا لم يجاهد نفسه ،ويحاسبها، ويعاتبها ،وينظر في عيوبها ، ويتهمها بالتقصير لا يمكن أن يدرك حقيقة مرضها ، وإذا لم يعرف حقيقة المرض فكيف يتمكن من العلاج ؟! لهذا لا بد من تذكير النفس بضعفها وافتقارها إلى خالقها ، وإيقاظها من غفلتها ، وتعريفها بنعم الله عليها ، ومراقبتها ومحاسبتها على كل صغيرة وكبيرة حتى يسهل عليه قيادها والتحكم فيها .

---

[١] روضة المحبين،لابن القيم ،ص١٦٧.

[٢] الوابل الصيب ،ص ٥٦.

الفصل الثالث

عقوبات الإهلاك العام للأمم والأفراد

التمهيد

المبحث الأول:عقوبات إهلاك الأمم

المبحث الثاني: نماذج لعقوبات إهلاك الأفراد

التمهيد

أولاً:تعريف الإهلاك:

أ.الإهلاك لغة:

الهاء واللام والكاف أصل يدلُّ على كَسْرٍ وسُقوط،ومنه الهلاك أي السُّقوط، ولذلك يقال للميت هَلَكَ، واهتَلكت القَطاةُ خَوْفَ البازِي: رمَتْ بنَفْسها على المهالك.
ويقال :هَلَكَ يَهْلِكُ هُلْكاً وهَلْكاً وهَلاكاً إذا مات ، ويقال:واسْتَهْلَكَ المالَ أنفقه وأنفده ،وقيل : أهْلَكَ المالَ باعه ،وسأل رجل أخاه كيف أصنع بإبلي ؟ قال أهْلِكْها أي بعْها ،والمَهْلَكة المَفازة لأنه يهلك فيها كثيراً، والهَلَكُونُ الأَرض الجَدْبة ،والهَلَكُ والهَلَكاتُ السِّنُونَ، لأنها مهلكة والهَلاكُ الجَهْدُ ،والهَلَكُ جِيفَةُ الشيء(1)

ب.الإهلاك اصطلاحاً:

وذكر أهل التفسير أن الهلاك في القرآن على أربعة أوجه :

الأول: افتقاد الشيء عنك، وهو عند غيرك موجود كقوله تعالى: ﴿ **هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ** ﴾ [الحاقة : ٢٩]

الثاني: هلاك الشيء باستحالة وفساد كقوله: ﴿**وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ** ﴾ [البقرة : ٢٠٥] ويقال: هلك الطعام.

الثالث: الموت كقوله: ﴿**إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ**﴾ [النساء : ١٧٦]

والرابع: بطلان الشيء من العالم وعدمه رأساً، وذلك المسمى فناءً ،ويمكن تسميته استئصالاً المشار إليه بقوله: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ** ﴾ [القصص : ٨٨](2)

وهذا الوجه الرابع للهلاك هو المقصود في هذا التمهيد،وهو يتعلق باستئصال الأمم استئصالاً عاماً،وقد سبق أن عرف الباحث عذاب الاستئصال بأنه" العذاب الحاسم الذي يودي بجميع الأمة فلا يبقي فيها ولا يذر،كعذاب قوم نوح وعاد وثمود"

كما نلاحظ تلاقياً بين المعاني اللغوية السابقة، وبين أوجه استعمال الهلاك في القرآن الكريم.

ثانياً:الألفاظ الواردة بمعنى الإهلاك:

سبق بيان الأوجه التي استعملها القرآن الكريم بمعنى الهلاك،والوجه الذي يهمنا وهو شاهدنا في هذا التمهيد هو الفناء والاستئصال،غير أن القرآن الكريم قد استعمل في الآيات التي تناولت هذه السنة ألفاظاً أخرى غير لفظ الهلاك لكنها تدور حول معناه:

---

(1) انظر: معجم مقاييس اللغة،لابن فارس- (٦ / ٦٢) مختار الصحاح ،للرازي - (١ / ٧٠٥) لسان العرب ، لابن منظور - (١٠ / ٥٠٣) المصباح المنير ،للفيومي - (٢ / ٦٣٩).

(2) مفردات غريب القرآن،للراغب الأصفهاني- (٢ / ٤٨٠) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر ،لابن الجوزي- (١ / ٦٣٩).

١ – لفظ"الأخذ":

وهـو بمعنـى الإهلاك،ولـه شـواهد كثيـرة فـي القـرآن الكـريم كقولـه تعـالى: ﴿**وَكَــذَلِكَ أَخْـذُ رَبِّـكَ إِذَا أَخَـذَ الْقُـرَى وَهِـيَ ظَالِمَـةٌ إِنَّ أَخْـذَهُ أَلِـيمٌ شَـدِيدٌ** [هود : ١٠٢]، وقولـه﴿ **كَـدَأْبِ آلِ فِرْعَـوْنَ وَالَّـذِينَ مِـنْ قَـبْلِهِمْ كَـذَّبُوا بِآيَاتِنَـا فَأَخَـذَهُمُ اللَّـهُ بِـذُنُوبِهِمْ وَاللَّـهُ شَـدِيدُ الْعِقَـابِ**﴾ [آل عمـران : ١١] وقولـه:﴿**حَتَّــى إِذَا أَخَــذْنَا مُتْــرَفِيهِمْ بِالْعَـذَابِ إِذَا هُــمْ يَجْــأَرُونَ**﴾ [المؤمنـون : ٦٤]وكـذلك قولـه: ﴿**فَكُـلًّا أَخَـذْنَا بِذَنْبِـهِ فَمِـنْهُمْ مَـنْ أَرْسَـلْنَا عَلَيْـهِ حَاصِـبًا وَمِـنْهُمْ مَـنْ أَخَذَتْـهُ الصَّـيْحَةُ وَمِـنْهُمْ مَـنْ خَسَـفْنَا بِـهِ الْأَرْضَ وَمِـنْهُمْ مَـنْ أَغْرَقْنَـا وَمَـا كَـانَ اللَّـهُ لِـيَظْلِمَهُمْ وَلَكِـنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ [العنكبوت : ٤٠]

٢– لفظ الحيق:

ومعنى الحيق في لغة العرب" الإحاطة يقال حاق به كذا إذا أحاط به وهذا هو الظاهر من معنى يحيق في لغة العرب "[١]

وورد هذا الاستعمال في قوله تعالى:﴿ **وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**﴾ [الأنعام : ١٠]وقوله:﴿ **فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** ﴾ [النحل : ٣٤] وقوله ﴿ **فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ**﴾ [غافر : ٤٥]

٣– لفظ التدمير :

وجاء في قوله تعالى عن عذاب فرعون وقومه:﴿ **وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ** ﴾ [الأعراف : ١٣٧] وكذلك في ذكر سنة الله في الإهلاك قال تعالى :﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا**﴾ [الإسراء : ١٦]

٤– التتبير:

والمقصود بالتتبير التفتيت والتكسير ، ومنه : التبر ، وهو كسار الذهب والفضة والزجاج،وهذا اللفظ يدل على شدة العذاب الذي أنزله الله على الأمم المكذبة،وورد في قوله تعالى:﴿ **وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا** ﴾ [الفرقان : ٣٩]

٥ – **القصم**: وجاء استعماله في قوله تعالى:﴿ **وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ** ﴾ **[الأنبياء : ١١]**

٦– **الرجز**: كقوله تعالى:﴿**إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**﴾ [العنكبوت : ٣٤]

---

[١] فتح القدير ، للشوكاني – (٤ / ٣٥٦)

المبحث الأول

عقـــوبات إهلاك الأمم

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول:إغراق قوم نوح بالطوفان.

المطلب الثاني: إهلاك قوم هود بالريح الصرصر.

المطلب الثالث: أخذ قوم صالح بالصاعقة.

المطلب الرابع: عقاب قوم لوط بالخسف والإمطار بالحجارة.

المطلب الخامس:أخذ قوم شعيب بالرجفة.

المبحث الأول
عقوبـات إهـلاك الأمم

المطلب الأول:إغراق قوم نوح بالطوفان:

أولاً:دعوة نوح لقومه وتكذيبهم:

كان نوح عليه الصلاة والسلام هو أول رسول يبعثه الله تعالى إلى الناس،وكان بينه وبين آدم عليه الصلاة والسلام عشرة قرون كاملة،حيث روى ابن حبان أن رجلا قال : يا رسول الله أنبي كان آدم ؟ قال : (نعم مكلم) قال : فكم كان بينه وبين نوح ؟ قال : (عشرة قرون)[١] وكان الناس في هذه الفترة موحدين يدينون بدين الإسلام،لكن الشيطان أخذ في ممارسة مهنة الوسوسة التي احترفها،وبدأ يلوث الفطرة السليمة،بعدما طال الأمد ،وقست القلوب ،وكان الناس ومازالوا يقدسون الصالحين والعباد،ويرفعونهم فوق درجة البشرية،وكان من هؤلاء العباد خمسة هم:وَدّ،وسُوَاع،ويَغُوث،ويُعوق،ونَسْراً،رفع الله تعالى قدرهم وأكرمهم بتقواهم وصلاحهم حتى ذاع صيتهم بين الناس وعرفوا بالصلاح، ولقوا الله تعالى على ذلك،وبعد انقضاء القرون،وانتهاء عهود هؤلاء الصالحين،بقيت أسماؤهم محفورة في قلوب الناس،كونهم قدوات صالحة يتأسى الناس بهم،وهنا برز دور الشيطان الماكر في استدراج الناس إلى هاوية الشرك خطوة خطوة،جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الشيطان وسوس إليهم أن ينصبوا في مجالس أولئك الصالحين التي كانوا يجلسون إليها أنصاباً،ويسموها باسمهم،ففعلوا،حتى إذا تطاول الزمان،واندثر العلم وعمّ الجهل، عبدت هذه الأصنام من دون الله تعالى[٢]

فأرسل الله تعالى رسوله نوحاً عليه الصلاة والسلام ،ليصحح المسار،ويعيد الناس إلى عقيدة التوحيد،و بدأت الرحلة الشاقة لنوح عليه الصلاة والسلام في دعوة قومه، والتي استمرت ما يقرب من ألف سنة كما أخبر القرآن،أراد فيها انتشال قومه من مستنقع الشرك الذي ترسخ في قلوبهم،وتخليصهم من عذاب الله تعالى،قال تعالى:**﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾**[الأعراف : ٥٩]

---

(١) صحيح ابن حبان – (١٤ / ٦٩)،قال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح.

(٢) انظر:صحيح البخاري،(كتاب التفسير)، باب ٣٩٨ (ولا تذرن ودا ولا سواعا ..)، (٤ / ١٨٧٣) ح(٤٦٣٦)

واستعمل نوح مع قومه كل الأساليب والوسائل الدعوية التي استطاعها؛ليرقق قلوبهم،ويهديهم الصراط المستقيم:﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا *وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا *ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا** ﴾[نوح :٥- ٩]

والآيات تدل على صبر نوح عليه الصلاة والسلام في الدعوة إلى الله، وتبليغ الرسالة ،فلم يتوقف عن الدعوة بسبب تكذيب قومه له، وإعراضهم عنه،ولم ييأس حين وجد المؤمنين له فئة قليلة من المستضعفين فإن " المطلوب من المسلم أن يدعو إلى الله وليس المطلوب منه أن يهدي الناس، فعليه أن يستمر على الدعوة بلا كلل، ولا ملل، ولا فتور؛ لأن واجبه البلاغ والتبيين ،وهذا متعلق به فعليه أن يؤديه كما يؤدي سائر العبادات، وإن لم يستجب له أحد، ألا ترى أن نوحاً عليه السلام لبث في قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاماً؟
وهكذا كان رسل الله يدعون أقوامهم مدة حياتهم فمنهم من استجاب له قومه أو بعضهم ومنهم من لم يستجب له أحد"[١]

ثانياً:ذكر نوح عليه السلام في القرآن الكريم:

ذكر اسم نوح عليه الصلاة والسلام في ثلاثة وأربعين موضعاً في القرآن الكريم،وجاءت قصته التي -تعد من أكثر قصص القرآن وروداً في القرآن- مفصلة في بعض السور كسورة الأعراف وهود والمؤمنون ،ومختصرة في سور أخرى كسورة الصافات والقمر،كما اختصه الله تعالى بسورة سميت باسمه(سورة نوح)،وكلها تتحدث عن بعثته إلى قومه المشركين،ودعوته لهم إلى التوحيد ،وإلى ما صدر منهم من الإعراض والتكذيب والعناد،وصبره الطويل المرير على إيذائهم وإعراضهم،ثم النهاية الأليمة لقومه المكذبين بالغرق،والنهاية السعيدة للمؤمنين بنجاتهم من الطوفان.

والذي يهمنا في هذا البحث ليس التفصيل في ذكر القصة وأحداثها وإنما نريد التركيز على موضوع البحث وهو العقوبة التي حلت بالقوم ومقدماتها،ونبين كذلك على الأسباب التي أدت لهذه العقوبة كي نحذر منها،ونبدأ بالأسباب.

ثالثاً:أسباب عقوبة قوم نوح بالطوفان :

١- الاستمرار على الشرك:

وهذا هو السبب الرئيس الذي يهلك الله تعالى به الأمم المكذبة،ويستأصل به شأفتهم ،فقد استمر قوم نوح على الشرك الذي استمرأته نفوسهم،وأصروا عليه إصراراً،بعدما قام نوح عليه الصلاة والسلام بواجب الدعوة إلى عبادة الله وحده ،وصدح لسانه بدعوة التوحيد :﴿ **يَا قَوْمِ**

[١] أصول الدعوة ،عبد الكريم زيدان- (١ / ٣٦٤).

اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون : ٢٣]،وحاول بكل الطرق أن يخلصهم من جحيم الشرك،لكن القوم أبوا إلا العناد والتكذيب، كأن قلوبهم قُطعت من الحجارة الصماء ،وأخذ نوح عليه الصلاة والسلام يشكو إلى ربه عناد قومه ،وعصيانهم له،واستمرارهم على عبادة الأصنام:**﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا *وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾** [نوح : ٢١ –٢٣] فالآيات تبرز أن القوم استمروا على شركهم وكفرهم بالله تعالى ما كان سبباً في هلاكهم[١]

٢– إيذاؤهم لنبيهم نوح عليه الصلاة والسلام:

حيث اتهموه بتهم هو منها براء:

–اتهموه بالسفه والضلال، حيث قال تعالى:**﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** [الأعراف : ٦٠ ، ٦١]

–اتهموه بالجنون ،وفي ذلك يقول تعالى :**﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾** [القمر : ٩]

–اتهموه كذلك بالجدل والافتراء،يقول تعالى حكاية عنهم:**﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾** [هود : ٣٢]

–وهددوه عليه الصلاة والسلام بالرجم،قال تعالى:**﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾** [الشعراء : ١١٦]

–وقابلوا دعوته بالسخرية والتهكم قال تعالى:**﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾** [هود : ٣٨]

وبهذه الأساليب الخبيثة تفنن القوم في إيذاء نبي الله نوح ليفتوا من عزمه، ويثنوه عن مواصلة دعوته،وهذه الأساليب يستخدمها الطواغيت والفجار في كل عصر ضد الأنبياء والمرسلين وضد ورثتهم من العلماء والدعاة المخلصين،لذلك يجب على الدعاة إلى الله ألا يلتفتوا إلى مثل هذه الأراجيف، وليمضوا في طريق دعوتهم ويثبتوا كما ثبت نوح عليه والصلاة والسلام[٢]

٣– الاستكبار:

وهو من جملة الأسباب التي عاقب الله بسببها قوم نوح عليه السلام،وقد بين الله تعالى أن الكبر سبب لنزول العذاب فقال جل ذكره :**﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾** [النساء : ١٧٣]

وقوم نوح قد تكبروا وتعالوا علواً كبيراً،وظهر كبرهم حينما احتجوا على دعوة نوح عليه

---

[١] انظر :النبوة والأنبياء،محمد علي الصابوني،ص١٤٦.

[٢] انظر :المصدر السابق:ص١٤٩.

السلام بأن أتباعه من الفقراء والضعفاء، وهؤلاء قد وجدوا في تعاليم الدين الجديد إنصافاً لحقوقهم،ورفعاً للظلم عنهم قال الله تعالى في وصف كبر قوم نوح وغرورهم:﴿ **فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ**﴾[هود : ٢٩] فتلطف نوح بهم ووعظهم بالحكمة والموعظة الحسنة :﴿ **وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**﴾ [هود : ٢٩، ٣٠]

لكنهم أعادوا ما قالوه في صلف وغرور في مشهد آخر:

﴿**قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ** ﴾ [الشعراء : ١١١] فقال:﴿**وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الشعراء : ١١٢ – ١١٤]

إنه رد حاسم فاصل على هؤلاء المستكبرين لا يبقي لهم حجة ولا برهان.

رابعاً:عقوبة الطوفان:

أ.بين يدي العقوبة:

تعرض نوح عليه الصلاة والسلام لأمواج من الصدود والإعراض والإيذاء من قومه،ولم يؤمن معه إلا القليل ،وبعد فترة طويلة من الدعوة جاء الوحي الإلهي بأنه لن يؤمن أحد بعد ذلك فيأس نوح عليه الصلاة والسلام من إيمان قومه بعد هذا الإخبار الواضح قال تعالى مبيناً ذلك: ﴿**وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴾ [هود : ٣٦]

"فالقلوب المستعدة للإيمان قد آمنت،أما البقية فليس فيها استعداد ولا اتجاه ، هكذا أوحى الله إلى نوح ، وهو أعلم بعباده ، وأعلم بالممكن والممتنع ، فلم يبق مجال للمضي في دعوة لا تفيد ، ولا عليك مما كانوا يفعلونه من كفر وتكذيب وتحد واستهزاء "[١]

لقد انتهى الإنذار، وانتهت الدعوة ، وانتهى الجدل، وبعث نوح بشكاية الأذى إلى ربه سبحانه وتعالى،بعد يأسه من صلاح قومه،وبعد أن تيقن بعدم فلاحهم:﴿ **قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا** ﴾ [نوح : ٢١]

ودعا ربه أن ينصره على قومه الكافرين:﴿ **فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ** ﴾[القمر : ١٠]

وأدرك قلب النبي الكريم أن القوم قد تعاقبت أجيالهم على الكفر،فدعا ربه ألا يبقى على الأرض منهم كافراً:﴿ **وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا *إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا** ﴾[نوح : ٢٦ ، ٢٧]

وهذا الدعاء لا يتناقض مع صبر نوح عليه الصلاة والسلام على قومه،فربما دعاه بعد وحي الله له بأنه لن يؤمن من قومه إلا الذين آمنوا معه،وهناك وجه آخر ذكره العلامة السعدي

---

[١] في ظلال القرآن ، سيد قطب – (٤ / ٢١٦)

حيث يقول: " وإنما قال نوح –عليه الصلاة السلام– ذلك، لأنه مع كثرة مخالطته إياهم، ومزاولته لأخلاقهم، علم بذلك نتيجة أعمالهم، لا جرم أن الله استجاب دعوته،فأغرقهم أجمعين ونجى نوحا ومن معه من المؤمنين."(١)

فأتته رسالة النصرة من الله تعالى :**﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾** [هود : ٣٧]

واستجاب نبي الله نوح أمر ربه وبدأ بصنع السفينة،سفينة ذات ألواح ودسر،ألواح ومسامير،وحبال تشد بها وتربط ،وكان قومه يمرون به وهو يصنع السفينة،ويسخرون من صنعه،فيرد عليهم عليه الصلاة والسلام بردٍّ فيه شدة لم يألفها القوم،لأن الهلاك بات قاب قوسين أو أدنى :**﴿ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾** [هود : ٣٨ ، ٣٩]

قال الإمام الرازى في قوله تعالى : ﴿**إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾** فيه وجوه :

الأول: التقدير إن تسخروا منا في هذه الساعة، فإنا نسخر منكم سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق في الدنيا والخزي في الآخرة .

الثاني :إن حكمتم علينا بالجهل فيما نصنع،فإنا نحكم عليكم بالجهل فيما أنتم عليه من الكفر، والتعرض لسخط الله تعالى وعذابه ،فأنتم أولى بالسخرية منا.

الثالث: إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم ،واستجهالكم أقبح وأشد لأنكم ،لا تستجهلون إلا لأجل الجهل بحقيقة الأمر والاغترار بظاهر الحال كما هو عادة الأطفال والجهال(٢)

وتم صنع الفلك،بوحي الله وحفظه ،فكان نعم العون لنبيه ورسوله نوح عليه الصلاة والسلام وأمر الله نبيه بعد ذلك أن يحمل فى السفينة بعد تمام صنعها من كل نوع من أنواع الحيوانات ذكراً وأنثى.

وليس هناك وصف صحيح من كتاب أو سنة للفلك التي صنعها نوح عليه الصلاة والسلام،ولكن الذي نتصوره أنها سفينة تحمل من كل المخلوقات والحيوانات وقتها زوجين اثنين ومعهم المؤمنون. (٣)

وكانت العلامة والدلالة على هلاك القوم أن يفور التنورقال تعالى:**﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيل﴾** [هود : ٤٠]

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ص ٨٨٩.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب،للرازي – (١٧ / ١٧٩).

(٣) قصص القرآن،حامد البسيوني،ص٩٠

وجاء أمر الله تعالى وفار التنور– وهو الفرن الذي يخبز فيه على أشهر الأقوال[١]– ،وحمل نوح من كل المخلوقات زوجين ،وصعد هو ومن معه من المؤمنين السفينة،وبعد ذلك حدث انقلاب كوني مهيب في الوجود،يمثل انتقاماً إلهياً من أولئك الكفرة الجاحدين.

ب.تفاصيل العقوبة:

جاءت بعض المواضع التي ذكرت قصة نوح عليه السلام مفصّلةً لعقوبة الطوفان كما في سورة هود والقمر ،وبعضها قد اقتضب الحديث عن العقوبة كما في سورة العنكبوت حيث يقول الله تعالى:**﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾**[العنكبوت : ١٤] وهذه الآية الوحيدة التي وصفت ما حل بقوم نوح من عقوبة بالطوفان،لتبين عظمة العقوبة التي نزلت بالقوم.

وتفصل سورة القمر عقوبة قوم نوح ،وكيف تشكل هذا الطوفان الجارف فيقول الله تعالى: **﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ *وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾** [القمر : ٩ – ١٦]

تصف الآية كيف تكوّن ذلك الطوفان المهول الذي أغرق القوم على الرغم من ضخامة أجسادهم،حيث فتح الله أبواب السماء جميعاً، فسكبت ماءً منهمراً غزيراً، وصارت كأفواه القُرَب ،وتحول ذلك السقف المحفوظ إلى وحش كاسر افترس القوم عن بكرة أبيهم، ،أما الأرض فقد تحولت إلى عيون كثيرة متفجرة،وسيولاً عظيمة جارفة، فالتقى ماء السماء مع ماء الأرض على طاعة أمر الله تعالى في ذات الوقت وكيف بهما؟ والله تعالى قال :**﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾** [فصلت : ١١] وعلا الموج وارتفع، وصار كأنه الجبال،تعلوه سفينة نوح وهي من ألواح ودسر إلا أنها ثابتة ؛لأنها تجري برعاية الله وحراسته.[٢] وعمَّ الطوفان جميع الأرض طولها،وعرضها ،وسهلها ،وجبلها ،ولم يبق على وجه الأرض من الأحياء عين تطرف ،فقد غمرهم الماء وجرفهم الطوفان ،ولم ينج إلا ركاب السفينة المؤمنين.

وتظهر بلاغة القرآن وروعة بيانه، وعظمة تصويره،من خلال الوصف الدقيق للعقوبة التي نزلت بالقوم،ونأتي هنا على ذكر بعض هذه المظاهر البلاغية في آيات سورة القمر السابقة و التي تكلم عنها العلماء، حتى يتضح لنا بجلاء عظمة العقوبة التي نزلت بالقوم:

---

[١] انظر:جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري – (١٥ / ٣٢١)

[٢] قصص القرآن،حامد البسيوني،ص٩١

١- قوله تعالى في وصف إمطار السماء:﴿ **فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ** ﴾

قال أبو حيان:" هذا عند الجمهور مجاز وتشبيه ، لأن المطر .. كأنه نازل من أبواب ، كما تقول : فتحت أبواب القرب ، وجرت مزاريب السماء ،وذهب قوم إلى أنها حقيقة فتحت في السماء أبواب جرى منها الماء ،ومثله مروي عن ابن عباس ، قال : أبواب السماء فتحت من غير سحاب ، لم تغلق أربعين يوماً " [١]

وذهب الشيخ الجمل إلى القول بالحقيقة لا المجاز حيث يقول:" والمراد من الفتح والأبواب والسماء : حقائقها فإن للسماء أبوابا تفتح وتغلق" [٢]

٢- قرأ ابن عامر **﴿فَفَتَّحنا﴾** بالتشديد أي مرة بعد مرة ،وشيئاً بعد شيء وهي كقوله تعالى:﴿ **مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ** ﴾ [ص : ٥٠] ،وهذه القراءة تفيد توالى انهمار الأمطار عدة مرات ،وقرأ الباقون ففتحنا بالتخفيف ،لأنه وإن كثر فإن فتحه كان بمرة واحدة لا بمرات. [٣]

٣- الباء فى قوله : ﴿ **بِمَاءٍ** ﴾ جاءت لفائدة بلاغية فهي "للتعدية على المبالغة ، حيث جعل الماء كالآلة التى يفتح بها ، كما تقول : فتحت بالمفتاح ." [٤]

٤- ووصْف الماء بأنه "منهمر" يدل على نزوله بشدة وقوة لأن معنى الماء المنهمر أي الغزير النازل بقوة: يقال هَمَر الرجلُ في كلامِه ، وفلانٌ يُهامِر الشيءَ ، أي : يَجْرُفُهُ ، وهَمَرَه مِنْ ماله : أعطاه بكثرةٍ. [٥]

٥- قوله تعالى في وصف فيضان الأرض﴿ **وَفَجَّرْنَا الأرض عُيُوناً** ﴾

قال الزمخشري:" وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون تتفجر ، وهو أبلغ من قولك : وفجرنا عيون الأرض ونظيره في النظم ﴿ **وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا** ﴾[مريم : ٤]" [٦]

هذه المظاهر البلاغية إنما تدل على عظمة العذاب الذي أرسله الله تعالى على قوم نوح،وتدل كذلك على عظمة الله تبارك وتعالى وقدرته، فهو المتصرف في هذا الكون،سماؤه وأرضه وبره وبحره، فإن الأمر كله بيده،وكل قوة تتصاغر أمام قوته وجبروته،فما علينا إلا أن نتوكل عليه حق التوكل وأن نستعين به على أعدائنا فإنهم غير معجزين له سبحانه، فإن قمنا بواجب التوكل على أكمل وجه ،نصرنا الله تعالى،كما نصر أولياءه المؤمنين ومنهم نوح عليه

---

[١] تفسير البحر المحيط- (١٧٥/٨)

[٢] الفتوحات الالهية- (٢٥٢/٤).

[٣] انظر:حجة القراءات ،لابن زنجلة-(٦٨٩/١)،إتحاف فضلاء البشر،للبنا-(٥٢٤/١).

[٤] حجة القراءات ،لابن زنجلة -(٦٨٩/١).

[٥] اللباب في علوم الكتاب،عمر بن علي ابن عادل الحنبلي -(٢٤٦/١٨).

[٦] الكشاف- (٤٣٤/٤).

الصلاة والسلام ،ونعيش بعزة وسلام وخير كما عاش نوح ومن معه من المؤمنين :**﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** [هود : ٤٨]

المطلب الثاني:إهلاك قوم هود بالريح الصرصر:

ذكر هود عليه الصلاة والسلام في القرآن سبع مرات،في عدد من السور كريمة منها الأعراف،والشعراء ،ويوجد سورة كاملة سميت باسمه وهي سورة (هود)،وأرسل عليه الصلاة والسلام إلى قبيلة من العمالقة الجبارين تسمى (عاد) وفيهم قال الله تعالى :**﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾** [الشعراء : ١٢٣ ، ١٢٤]،وسميت سورة في القرآن باسم المكان الذي كانوا يقطنون فيه وهي سورة (الأحقاف).

وعاد من القبائل العربية البائدة وهم بنو عاد بن عوص بن إرم ابن سام بن نوح، ويقال لعاد هؤلاء: عاد الأولى،أما عاد الثانية فمتأخرة.[1]

كانت هذه القبيلة من العمالقة الأشداء الذين زادهم الله بسطة في الجسم،وكانوا يعيشون في ترف ودعة،وتقدموا على أمم زمانهم في الناحية العمرانية،فكانوا يبنون القصور الفخمة،ويقيمون القلاع والحصون،ووهبهم الله بساتين يانعة،وعيوناً جارية،وخيرات كثيرة [2]وقد قص علينا القرآن ما كانوا فيه من مظاهر الترف والنعمة فقال تعالى على لسان نبيهم هود وهو ينكر على قومه :**﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾**[الشعراء : ١٢٨ – ١٣٤]

أولاً:أسباب عقوبة قوم عاد:

ورغم هذه النعم الكثيرة لم يؤد القوم واجب شكرها ، ووقعوا بجهلهم بما وقع به من قبلهم من الأمم البائدة من أسباب العقوبات الإلهية،فكانت النتيجة أن جرت عليهم سنة الله في الإهلاك،فهي لا تتأخر عمن وقع في أسبابها ،وقد بيَّن القرآن أسباب عقوبة قوم عاد حتى نجتنبها ولا نقع فيها،نذكرها في النقاط التالية:

١– الاستمرار على الشرك:

كان قوم هود عليه السلام أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله تعالى،وهم أول من عبد الأصنام بعد قوم نوح عليه السلام،وبعث الله إليهم هوداً عليه السلام، لينكر عليهم عبادة الوثان من دون الله ويحذرهم من عذاب الله، ويذ رهم بمصير قوم نوح الذين أشركوا فعاقبهم الله

---

[1] انظر: معجم قبائل العرب – (٢ / ٧٠٠)، عمر رضا كحاله.

[2] النبوة والانبياء،محمد علي الصابوني،ص٢٣٨.

بالغرق﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[الأحقاف : ٢١]لكنهم كذبوه ورفضوا دعوته ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢]

٢- تكذيب نبيهم وإيذاؤه:

وهي عادة الأمم المكذبة ،حيث وصفوا نبيهم بالسفه والكذب حاشاه ذلك،قال تعالى : ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف : ٦٦]

٣- الاغترار بالقوة:

حيث كان قوم هود أصحاب بُنية قوية ضخمة، وأجسام متينة شديدة؛ وكانوا إذا مشوا تهتز الأرض تحت أرجلهم، لفرط طولهم ،وعظمة خلقهم [1] وقد حكى القرآن عن عظمة خلقهم فقال تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ [الفجر : ٦ - ٨]

لكنهم اغتروا بقوتهم أيما غرور، واستكبروا أيما استكبار ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت : ١٥] فلم تنفعهم قوتهم،ولم تغن عنهم من الله شيئاً،فكان نتيجة كبرهم وغرورهم أن دمرهم الله وأرسل عليهم عقابه قال تعالى:﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ [فصلت : ١٦]

٤- البطش والعدوان:

وهي عادة الأمم الكافرة،والأنظمة المتغطرسة،إذا امتلكت أسباب القوة المادية،فإنها لا تنضبط بمعيار أخلاقي،ولا قانون إنساني،بل تتمادى بالبطش والعدوان،والاستقواء على الضعفاء، فكان قوم عاد يغيرون على القبائل التي جاورتهم ظلماً وعدواناً ،قال الله حكاية عن بطشهم على لسان هود عليه السلام في ثنايا نصحه لهم :﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ **[الشعراء : ١٣٠]**

والبطش "هو السطوة والأخذ بالعنف وقال ابن عباس و مجاهد : البطش العسْف قتلاً بالسيف وضرباً بالسوط"[2]

---

[1] النبوة والأنبياء،محمد علي الصابوني،ص٢٣٨.

[2] الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي - (١٣ / ١١٤).

والمعنى تبطشون بعنف،وقهر،وتسلط دون أن تعرف الرحمة إلى قلوبكم سبيلاً ، قتلاً وضرباً، وأخذاً للأموال،والأجدر بكم ألا تفعلوا ذلك.

ثانياً:نزول العقوبة بقوم عاد:

قام هود عليه الصلاة والسلام بواجب الدعوة والتذكير، والنصح والتوجيه ،إلا أن قومه كانوا أصحاب قلوب قاسية جافية امتلأت كفراً وكبراً.

قال تعالى في ذكر الحوار الذي كان بين هود وقومه قبيل إنزال العقوبة الإلهية عليهم :﴿ **أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾[الأعراف : ٦٩، ٧٠]

فرد عليهم هود عليه السلام بكلمات فاصلة،حسمت مصير القوم،وأنبأتهم بالهلاك القريب الآجل..﴿ **قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ**﴾ [الأعراف: ٧١]

واستعمل الفعل "وقع" لتأكيد وقوع العذاب عليهم لأن" الوقوع بمعنى الثبوت ،وحرف الاستعلاء[قد] إما لأنه ثبوت قوي آكد ما يكون وآجبه ،أو لأنه ثبوت حسي لأمر نازل من علو ،وعذاب الله تعالى موصوف بالنزول من السماء فتدبر،والتعبير بالماضي لتنزيل المتوقع منزلة الواقع "[1]

والمعنى: " لا بد من وقوعه، فإنه قد انعقدت أسبابه، وحان وقت الهلاك، ﴿**أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ** ﴾ أي: كيف تجادلون على أمور، لا حقائق لها، وعلى أصنام سميتموها آلهة، وهي لا شيء من الآلهة فيها، ولا مثقال ذرة"[2]

فالمحصلة أن القوم لم يستمعوا لنصيحة نبيهم،فرجعوا بالخسران المبين، وخاب سعيهم، وبارت أعمالهم،واستحقوا عقاب الله تعالى،وقُضي عليهم بالهلاك.

وبدأت فصول عقوبتهم عندما حبس عنهم قطر السماء مدة،حتى اشتد عليهم الجهد والإعياء–وهذه في حد ذاتها عقوبة– ،فاستغاثوا واستنجدوا،فأرسل الله عليهم سحاباً كثيفاً من السماء،فلما رأوه فرحوا واستبشروا،وظنوا أنه غيث غزير جاء لغوثهم،وحسبوا أن الرحمة قد أدركتهم ،فلما وصل السحاب أظلتهم منه سحابة سوداء قاتمة ،ففزعوا وخافوا ،وأدركوا أنه العذاب الذي توعدهم به نبيهم هود،ثم هبت عليهم الريح المدمرة التي ساقت ذلك السحاب الأسود،وكانت ريحاً شديدة قاتلة، قال تعالى في وصف عقوبتهم:﴿ **فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا**

---

[1] روح المعاني ، للألوسي – (٨ / ١٥٨).

[2] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان،للسعدي ، ص٢٩٤.

بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٤ ، ٢٥]

فاجأتهم الريح فدمرتهم ، فصاروا بعد الهلاك لا يرى إلا آثار مساكنهم ، إذ قد اجتاحت الأموال ، وأذهبت الأنفس ، وجعلتها أثراً بعد عين،ورسم لنا القرآن صورة تلك الريح المدمرة،الدالة على قدرته،وبيَّن فعلها الرهيب بقوم هود.

ثالثاً:أوصاف الريح المهلكة:

ووصف القرآن الريح التي أهلك الله بها قوم عاد بعدة أوصاف نذكرها في النقاط التالية :

١- ريح مدمرة:

قال تعالى:**﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾** أي تهلك كل شيء مرت به من نفوس عاد وأموالها بإذن ربها، والتعبير بقوله : **﴿ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾** لبيان أن هذه الريح لم تأت من ذاتها بلا مُوَجِّه، بل جاءت بأمر الله ومشيئته لإهلاك قوم هود.

٢- باردة ذات صوت صاعق :

قال تعالى:**﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾** [فصلت : ١٦]

والريح الصرصر لها معنيان يجوزُ أَنْ تكون من الصِّرِّ وهو البردُ ،.. وأَنْ تكونَ من الصَّرَّة ، وهي الصيحةُ والصوت الشديد" الصر وهو البرد أو من صر الباب والقلم أي صوت، أي أرسلنا وسلطنا عليهم ريحاً باردة أو شديدة الصوت والهبوب"[١]

وقال صاحب الكشاف:"والصرصر : الشديدة الصوت لها صرصرة ، وقيل : الباردة من الصِّرِّ ، كأنها التي كرر فيها البرد وكثر : فهي تحرق لشدة بردها"[٢]

ومعنى الآية: فأرسلنا على قوم عاد ريحاً شديدة الصوت،شديدة البرودة فى أيام مشئومات نكدات عليهم؛بسبب كفرهم وتكذيبهم ،وفعلنا ذلك معهم؛لنذيقهم العذاب المخزى لهم فى الحياة الدنيا.

٣- شديدة الهبوب:

قال تعالى:﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة : ٦ - ٨]

---

[١] تفسير روح البيان ،إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي- (٩ / ٢٢٥).

[٢] الكشاف ،للزمخشري - (٤ / ٦٠٢).

وصفت الآية تلك الريح الصرصر بأنها عَاتِيَةٍ أي " شديدة العصف .. ، عتت على عاد ، فما قدروا على ردّها بحيلة ، من استتار ببناء ، أو لياذ بجبل ، أو اختفاء في حفرة ؛ فإنها كانت تنزعهم من مكامنهم وتهلكهم . "[١]

وذكرت الآية المدة التي استمرت فيها الريح مسلطة عليهم وهي سبع ليال، وثمانية أيام حسوماً أي:" أي متتابعة لا تفتر ولا تنقطع "[٢]

ثم وصفت الآية حال القوم بعد هذه المدة من عصف الريح المدمر فقال تعالى:**﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾**

وقوله : **﴿صرعى ﴾** أى : هلكى ، جمع صريع كقتيل وقتلى ،والأعجاز جمع عَجُز ، والمراد بها هنا جذوع النخل التى قطعت رءوسها ،وخاوية : أى : ساقطة ، مأخوذ من خوى النجم ، إذا سقط للغروب،أو من خوى المكان إذا خلا من أهله وسكانه ،بعد أن كان ممتلئا بعُمَّارِه .[٣]

ومعنى الآية :"علت الريح تضرب بأحدهم الأرض فيخر ميتًا على أم رأسه، فينشدخ رأسه وتبقى جثته هامدة كأنها قائمة النخلة إذا خرت بلا أغصان"[٤]

٤- ريح عقيم:

قال تعالى :**﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ*مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾** [الذاريات : ٤١ ، ٤٢]

والريح العقيم هي التى لا خير فيها من إنشاء مطر،أو تلقيح شجر،وهى ريح الهلاك وأصل العقم : اليبس المانع من قبول الأثر،وشبه – سبحانه – الريح التى أهلكتهم وقطعت دابرهم ، بالمرأة التى انقطع نسلها ، بجامع انعدام الأثر فى كل منهما.

٥- ريح مستأصِلة:

ثم وصف سبحانه هذه الريح التى توهموا أنها تحمل لهم الخير،بينما هي تحمل لهم الهلاك ، وصفها بقوله : **﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ ﴾** أى : ما تترك من شيء مرت عليه **﴿ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كالرميم ﴾** أى : إلا جعلته كالشىء الميت الذى رمَّ ،وتحول إلى فتات مأخوذ من رمَّ الشىء إذا تفتت وتهشم،ويقال للنبات إذا يبس وتفتت : رميم وهشيم .

كما يقال للعظم إذا تكسر وبَلِيَ:رميم ،ومنه قوله – تعالى- : **﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾** [يس : ٧٨] [٥]

---

[١] الكشاف ، للزمخشري –(٤ / ٦٠٣).

[٢] الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي – (١٨ / ٢٢٥).

[٣] انظر: التفسير الوسيط،لسيد طنطاوي- (١٥/ ٩٩).

[٤] تفسير القرآن العظيم،لابن كثير – (٨ / ٢٠٩).

[٥] التفسير الوسيط،لسيد طنطاوي- (١٤/ ٢٨).

هذه هي أوصاف الريح التي أرسلها الله تعالى على قوم عاد كما صورها القرآن الكريم ،جمعت بين قوة التدمير، وشدة العصف والبرد،وهي مع هذا عقيم لا خير يرتجى منها،سلطها الله تعالى على قوم جفاة متكبرين ،كانوا يزعمون أنهم الأقوى لكن الله تعالى أبطل زعمهم،وأهلكهم وصارت صورهم كصورة أعجاز النخل البالية الهشة الضعيفة،ودمر الله بنيانهم وأفنى حضارتهم، وقد تأثر الصحابي الجليل أبو الدرداء رضي الله عنه بعقوبة قوم عاد،فوقف خطيباً على منبر دمشق واعظاً فقال: "يا معشر أهل دمشق ألا تستحيون تجمعون مالا تأكلون وتبنون مالا تسكنون وتأملون مالا تبلغون قد كان القرون من قبلكم يجمعون فيوعون ويأملون فيطيلون ويبنون فيوثقون فأصبح جمعهم بورا وأملهم غرورا وبيوتهم قبورا هذه عاد قد ملأت ما بين عدن إلى عمان أموالا وأولادا فمن يشتري مني تركة آل عاد بدرهمين"[١]

رابعاً:الريح جندي من جنود الله تعالى:

وهذه الريح كانت ومازالت جندياً طائعا لله تبارك وتعالى،أيَّد الله بها نبيه محمد صلى الله عليه وسلم فعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : (**نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور**)[٢]

في غزوة الأحزاب حينما تآلبت عليه قبائل العرب،فأرسل الله عليهم الريح العاتية الشديدة،والتي كانت عاملاً مهماً في هزيمة الأحزاب وردهم خائبين ، قال تعالى مذكراً عباده المؤمنين بنعمته عليهم :**﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾**[الأحزاب : ٩]

ولا زالت هذه الريح إلى عصرنا هذا عذاباً يرسله الله تعالى على من شاء من عباده،وجندياً طائعاً من جنوده وليست هذه الأعاصير المصحوبة بالرياح العاتية الشديدة التي نراها تضرب مناطق حول العالم ،إلا مظهراً من مظاهر قدرة الخالق سبحانه،يرسلها عقوبة للذين أوغلوا في ظلم الناس ،وأكثروا في الأرض الفساد،واحتلوا البلاد رغماً عن أهلها ،وقتلوا الأبرياء بغير وجه حق ،واستولوا على مقدرات الشعوب وثرواتها .

ويرسلها كذلك تذكيراً للناس بقوة الله تعالى التي لا تدانيها قوة،و تذكيراً للمسلمين بأن الله تعالى قوي عزيز يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته،وأنه قادر على نصرتهم إذا ما توكلوا عليه حق التوكل،وأخلصوا دينهم له.

---

[١] حلية الأولياء ، أبو نعيم الأصبهاني – (١ / ٢١٨).

[٢] صحيح البخاري ،كتاب (الاستسقاء)، باب٢٥ (قول النبي صلى الله عليه و سلم (نصرت بالصبا)) – (١ / ٣٥٠) ،ح(٩٨٨) .

المطلب الثالث: أخذ قوم صالح بالصاعقة:

أولاً:دعوة صالح عليه السلام لقومه:

أرسل الله تعالى نبيه صالحاً عليه الصلاة والسلام إلى قبيلة ثمود،وهي قبيلة من القبائل العربية البائدة،وكانوا عرباً من العاربة ،ويسكنون الحجر ولذلك سماهم القرآن بأصحاب الحجر قال تعالى:﴿ **وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ**﴾[الحجر : ٨٠ ، ٨١]

وتقع الحجر بين الحجاز والشام ،وقد مر بها النبي صلى الله عليه وسلم وهو في طريقه إلى تبوك ومعه جيش المسلمين ،فلما وصلوا عند بيوت ثمود استقوا من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود ،وعجنوا، وطبخوا فلما علم النبي صلى الله عليه وسلم أمر أن يريقوا تلك القدور ،وأن يعلفوا العجين الإبل،وارتحل حتى نزل البئر التي كانت تشرب منها الناقة وقال لهم : (**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم ،أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين**) ، ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي[1]

وأما عن زمن وجودهم فقد كانوا بعد عاد كما أشارت الآية الكريمة في قوله تعالى :﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ...**﴾ [الأعراف : ٧٤]، وهذا التسلسل الزمني قد راعاه القرآن في سرده للقصص فيذكر قصة عاد ويتبعها بقصة ثمود.

وكانت ثمود تعبد الأصنام،كقبيلة عاد من قبلها،فبعث الله إليهم رسولاً منهم يذكرهم نعم الله عليهم،ويأخذ بأيديهم إلى طريق الهداية والرشاد،وكانوا أهل خصب ووفرة ونعيم،كما أخبر عنهم المولى جل جلاله في قوله: ﴿**أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ** ﴾ [الشعراء : ١٤٦ - ١٥٠]

فكانوا يعيشون في رخاء اقتصادي، وينعمون بالبساتين الزاهرة،والعيون الجارية،التي وصفها القرآن بالجنات، لجمالها وطيب العيش فيها،وكانوا كذلك يعيشون في تطور عمراني، فكانوا ينحتون الجبال،ويشكلونها قصوراً فارهة، مترامية الأرجاء، فسيحة الأطراف،إضافة إلى القصور التي كانوا ينشئونها في الأراضي السهلية المنبسطة[2] كما قال تعالى:﴿ **تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا** ﴾[الأعراف : ٧٤]

ورغم هذه النعم المحيطة بالقوم،والتي كان يجب عليهم شكر الله تعالى عليها،لم يؤمن لصالح عليه الصلاة والسلام إلا نفر قليل من المستضعفين،وأما الكبراء فقد كذبوا وتكبروا على

---

[1] صحيح البخاري ،كتاب (المغازي)، باب ٧٦ (نزول النبي صلى الله عليه و سلم الحجر)- (٤ / ١٦٠٣) ح(٤١٥٧). والزيادة الأخيرة أخرجها أحمد في مسنده- (١٠ / ١٩١) ح(٥٩٨٤).

[2] النبوة والأنبياء،محمد علي الصابوني،ص٢٤٣.

دعوة التوحيد ،وكانوا يحاورون الضعفاء على وجه السخرية والاستهزاء :**﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ *قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾** [الأعراف : ٧٥ ، ٧٦]

يقول الشيخ محمد رشيد رضا معلقاً على سلوك كلتا الطائفتين، طائفة المستضعفين وطائفة المترفين "مضت سنة الله تعالى بأن يسبق الفقراء المستضعفون من الناس إلى إجابة دعوة الرسل واتباعهم إلى كل دعوة إصلاح ؛ لأنه لا يثقل عليهم أن يكونوا تبعا لغيرهم، وأن يكفر بهم أكابر القوم المتكبرون ، والأغنياء المترفون ؛ لأنه يشق عليهم أن يكونوا مرءوسين ، وأن يخضعوا للأوامر والنواهي التي تحرم عليهم الإسراف الضار ، وتوقف شهواتهم عند حدود الحق والاعتدال ، وعلى هذه السنة جرى الملأ من قوم صالح في قولهم للمؤمنين منهم "[1]

وطلب هؤلاء الملأ المستكبرون من صالح عليه الصلاة والسلام معجزة تشهد بصدقه،فأيده الله تعالى بمعجزة (الناقة)،التي كانت آية عظيمة تدل على قدرة الله تعالى،ومعجزة وبينة واضحة على أن صالح عليه الصلاة والسلام هو رسول من عند الله ،حيث وصفها الله تعالى بأنها آية مبصرة في قوله تعالى :**﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾** [الإسراء : ٥٩] وقد كان لهذه الناقة خاصية عجيبة جعلتها تختلف عن غيرها من النوق،فقد كانت تنتج للقبيلة بأسرها اللبن الذي يكفيهم ليومهم.

وحذرهم نبيهم من التعرض لها بسوء،وإلا عاجلتهم العقوبة،قال تعالى:**﴿ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾** [هود : ٦٤]،لكن القوم قد وقعوا في المحظور،وخالفوا أمر رسولهم في عدم التعرض للناقة،فعقروها ما كان سبباً رئيسياً في إيقاع العقوبة بهم.

ثانياً:أسباب عقوبتهم:

تتلخص أسباب عقوبتهم فيما يلي:

١- الإصرار على الشرك :

حالهم كحال قوم عاد من قبلهم حيث أخبر القرآن عن عنادهم في قوله تعالى:**﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾** [هود : ٦٢]

٢- عقر الناقة:

وهو السبب الرئيس الذي أدى إلى معاجلتهم بالعقوبة،فبعد أن أنذرهم نبيهم من عاقبة المساس بالناقة،وحذرهم عذاب الله إن قتلوها،أبوا إلا المخالفة ،وآثروا التمرد والطغيان،وعصيان الواحد

---

[1] تفسير المنار، محمد رشيد رضا - (٨ / ٤٤٨)

الديان،وتجرؤوا على حرمات الله،وكفروا تلك النعمة التي رزقهم الله إياها،وأقدموا على عقر الناقة بغياً وعدواناً:﴿ **فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾ [الأعراف : ٧٧]

" إنه التبجح الذي يصاحب المعصية ، ويعبر عن عصيانهم بقوله : ﴿عتوا ﴾ لإبراز سمة التبجح فيها ، وليصور الشعور النفسي المصاحب لها ، والذي يعبر عنه كذلك ذلك التحدي باستعجال العذاب والاستهتار بالنذير "[1]

وقد قص القرآن علينا قصتهم مختصرة في سورة الشمس حيث قال :﴿ **كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا *وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا** ﴾ [الشمس :١١– ١٥]

والذي باشر قتل الناقة هو قُدَّار بن سالف –كما ذكر كثير من المفسرين–،وهو الأشقى الذي تحدثت عنه الآيات السابقة، وكان وقومه راضون بما فعل،ولم ينكروا عليه،وتابعوه تبعية عمياء، لذلك نسب العقر إليهم جميعاً، فأطبق العذاب عليهم وأهلكهم اللّه بذنوبهم، وغضب عليهم، فدمرهم وعمهم بالعقاب،وفي هذا دليل أن السكوت على المنكر والرضا به من أسباب العقوبة العامة.[2]

٣– محاولتهم قتل صالح عليه السلام:

وهذه من أسباب عقوبتهم ،فلم يكتفوا بقتل الناقة ،بل خططوا لقتل نبيهم صالح عليه السلام نفسه،وقص لنا القرآن خبرهم قال تعالى:﴿ **وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ**﴾ [النمل : ٤٨ – ٤٩]

تفيد الآيات أن قوم ثمود قد تآمروا على اغتيال نبيهم ليلاً ،ليخمدوا قبس دعوته،ويطفئوا نور الهداية الذي جاء به،وكان المخططون لهذه الجريمة تسعة مفسدين من قوم صالح هم أشر القوم وأشقاهم،وصفهم القرآن بأنهم يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، قد تمحضت نفوسهم للفساد وللإفساد ، ولا مكان فيها للصلاح وللإصلاح ، وقد تعاهد هؤلاء التسعة،وأكدوا على ما تعاهدوا عليه بالأيمان المغلظة ، على أن يباغتوا نبيهم وأهله ليلاً ، فيقتلوهم جميعا ، ثم يقولوا: ما حضرنا هلاك أهله وهلاك صالح معهم ، يريدون بذلك تبرير كذبهم ، أى : أننا قتلناهم فى الظلام ، فلم نشاهد أشخاصهم ، وإنا لصادقون فى ذلك ،وهكذا

---

[1] في ظلال القرآن ، سيد قطب – (٣ / ٢٤٦).

[2] انظر: التفسير الوسيط للزحيلي – (٣ / ٢٨٨٤).

المفسدون فى الأرض ، يرتكبون أبشع الجرائم ،ثم يبررونها بالحيل الذميمة، ثم بعد ذلك يحلفون بأغلظ الأيمان أنهم بريئون من تلك الجرائم . [1]

ومن العجيب أن هؤلاء المجرمين الغادرين يقولون فيما بينهم : **﴿ تَقَاسَمُواْ بالله ﴾** أى : احلفوا بالله ، على أن تنفذوا ما اتفقنا عليه من قتل صالح وأهله ليلا غيلة وغدرا ، فهم يؤكدون إصرارهم على الإجرام بالحلف بالله ، مع أن الله – تعالى – برئى منهم ومن غدرهم.

ولكن هذا المكر السيئ ، والتحايل القبيح قد أبطله الله – تعالى – وجعله يحيق بهم وبأشياعهم ، فقد قال – تعالى –**﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِين * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾** [النمل : ٥٠ – ٥٢]

أى : ودبرنا لصالح – عليه الصلاة السلام – ولمن آمن به ، تدبيرا محمودا محكما **﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾** أى : وهم لا يشعرون بتدبيرنا الحكيم ، حيث أنجينا صالحا ومن معه من المؤمنين ، وأهلكنا أعداءه أجمعين . [2]

ثالثاً:عقوبات الله لهم:

استحق قوم ثمود نزول العقوبات الإلهية عليهم بعد الجرائم السابقة التي ارتكبوها، وانقطاع الأمل في صلاحهم وإيمانهم بعدما جاهروا بالكفر والعصيان، واجترؤوا على قتل الناقة،وحاولوا قتل نبيهم،فكانت النتيجة أن صبَّ الله عليهم سوط عذابه،وسلط عليهم جند انتقامه،وقد توعدهم صالح عليه السلام بنزول العذاب عليهم بعد ثلاثة أيام من قتلهم للناقة كما أخبر الله تعالى: **﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾** [هود : ٦٥]

أي عيشوا فى دنياكم هذه، وتمتعوا بما فيها من نعم وملذات لمدة ثلاثة أيام لا غير، فهى آخر ما تبقى لكم من متاع الدنيا،ومن أعماركم،فمرت عليهم هذه الأيام الثلاث وهم في قلق واضطراب نفسي ،وهو نوع من العقاب النفسي الذي أصابهم،ولكم أن تتخيلوا حالهم وهم يترقبون هلاكاً سيأتيهم في وقت معلوم، لا يعلمون ماهيته ،ولا من أي جهة سيأتيهم!! فهذا حقاً عذاب نفسي سابق للإهلاك العام الذي سيحل عليهم.

هذا وقد ذكر القرآن خلال عرضه لقصة ثمود ثلاث عقوبات نزلت بهم:

---

[1] انظر: التفسير الوسيط،لسيد طنطاوي– (١٠ / ٦٠).

[2] انظر: المصدر السابق– (١٠ / ٦٢).

١- **الرجفة:** وردت في قوله تعالى:﴿ **فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ**﴾ [الأعراف : ٧٨ ، ٧٩]

والرجفة هي المرة من الرجف، وهو الحركة والاضطراب ،والرجفة هى الزلزلة الشديدة أي الارتعاد والحركة الشديدة للأرض ،ومنه :﴿ **يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ** ﴾ [المزمل : ١٤]

والمعنى : فأخذتهم الزلزلة فأصبحوا في دارهم باركين على ركبهم ،أو منكبين على وجوههم ميتين[١]

٢- الصاعقة:

وجاء ذكرها في قوله تعالى:﴿ **وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ * فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ * فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ**﴾ [الذاريات : ٤٣ – ٤٥]

والصاعقة هي شدة الصوت من الرعد يكون معها أحيانا قطعة نار تحرق ما أتت عليه قال الزمخشري:"والصاعقة قصفة رعد تنقض معها شقة من نار، قالوا تنقدح من السحاب إذا اصطكت أجرامه ،وهي نار لطيفة حديدة ،لا تمر بشيء إلا أتت عليه إلا أنها مع حدتها سريعة الخمود يحكى أنها سقطت على نخلة فأحرقت نحو النصف ثم طفئت"[٢]

فالصاعقة إذا أصابت الإنسان فإنها تسبب الموت إما من شدة الصوت أو بالإحراق،وهذا ما أصاب قوم صالح.

٣- الصيحة :

وورد ذكرها في قوله تعالى:﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ**﴾ [القمر : ٣١]

والصيحة هي رفع الصوت وأصلها: تشقيق الصوت، من قولهم: انصاح الخشب، أو الثوب، إذا انشق، فسمع منه صوت، وصيح الثوب إذا انشق.

والهشيم : ما تهشم وتفتت وتكسر من الشجر اليابس ، مأخوذ من الهشم ،بمعنى الكسر للشىء اليابس ،والمحتظر : هو الذى يعمل الحظيرة التى تكون مسكناً للحيوانات .

ومعنى الآية : إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة صاحها بهم جبريل – عليه السلام – فصاروا بعدها كغصون الأشجار اليابسة المكسرة ، يجمعها إنسان ليعمل منها حظيرة، لسكنى حيواناته

---

[١] انظر: معاني القرآن للفراء – (١ / ٣٨٤) ،تفسير المنار ،لمحمد رشيد رضا– (٩ / ١١).

[٢] الكشاف – (١ / ١١٨).

،والمقصود بهذا التشبيه،بيان عظم ما أصابهم من عقاب مبين ، جعلهم ، كالأعواد الجافة حين تتحطم وتتكسر ويجمعها الجامع ليصنع منها حضيرته ، أو لتكون تحت أرجل مواشيه.[١]
وكان تدمير قوم صالح بالصاعقة،وعبر الله تعالى عنها بالرجفة وتارة بالطاغية وتارة بالصيحة وكل صحيح لأن الصاعقة تكون مصحوبة بصوت عظيم وقد تكون مصحوبة برجفة أشبه بالزلزال،وقد تكون في مكان ويطغى تأثيرها حتى يصل إلى مكان آخر[٢]

المطلب الرابع: عقاب قوم لوط بالخسف والإمطار بالحجارة:

أولاً:دعوة لوط لقومه:

لوط عليه الصلاة والسلام هو رسول من الرسل الكرام،ذكره الله تعالى في سبع وعشرين موضع في القرآن الكريم،وذكر الله قصته في عدد من السور منها سورة الأعراف وهود والحجر والشعراء والنمل والعنكبوت وغيرها من سور القرآن،كما جاءت قصته مفصلة في سور ومجملة في سور أخرى.

وقد بعثه الله تعالى في زمن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام،وهو ابن أخيه ،وقد آمن لوط برسالة عمه إبراهيم، وسار على هديه قال تعالى :﴿ **فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾[العنكبوت : ٢٦]

وكان لوط قد نزح عن بلدة عمه إبراهيم الخليل عليه الصلاة السلام بأمره له وإذنه، فنزل بمدينة سدوم وكان سبق له أن أمَّ تلك البلدة ،وكان أهلها من أفجر الناس، وأكفرهم وأسوأهم طوية، وأرداهم سريرة وسيرة ..ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم وهي إتيان الذُّكران من العالمين ،وترْك ما خلق الله لهم من النساء ، فدعاهم لوط عليه السلام إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات،والفواحش المنكرات ،والأفاعيل المستقبحات فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم ،واستمروا على فجورهم وكفرانهم، فأحل الله بهم من البأس الذي لا يرد، ما لم يكن في خلدهم وحسبانهم ،وجعلهم مثلة في العالمين ،وعبرة يتعظ بها الألبَّاء[٣] من العالمين ولهذا ذكر الله تعالى قصتهم في غير ما موضع من كتابه المبين [٤]

وحدثنا القرآن الكريم عن نهي لوط عليه السلام لقومه عن هذه الفاحشة حيث قال تعالى:﴿ **أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ *وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ** ﴾ [الشعراء : ١٦٥ ، ١٦٦]

---

[١] مفردات ألفاظ القرآن ،للراغب الأصفهاني- (١ / ٥٩٧)،التفسير الوسيط،لسيد طنطاوي- (١٤ / ٤١).
[٢] قصص الأنبياء،عبد الوهاب النجار،ص٦٦.
[٣] مفرد لبيب وهو صاحب العقل الراجح.
[٤] انظر:البداية والنهاية ،لابن كثير- (١ / ٢٠٣)

إلا أن هؤلاء القوم كانوا لا يستقبحون قبيحاً،ولا يستترون من منكر، قد فسدت فطرتهم ،وقست قلوبهم،وارتكست نفوسهم،حتى كانوا يجاهرون بالفاحشة جهاراً نهاراً،فبعث الله إليهم لوطاً ليدعوهم إلى الله،ويذكرهم ببطشه وانتقامه، لكنهم لم يرتدعوا،فلما ألح عليهم وكرر الإنكار علي مسامعهم هددوه بالطرد والإخراج من الديار:﴿ **قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ** ﴾ [الشعراء : ١٦٧] وتمالئوا على إخراجه مع من آمن معه بحجة أنهم أطهار!لا يرتكبون الجرائم التي كانوا يرتكبونها!!

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾[الأعراف : ٨٢]

فسبحان الله متى كان اجتناب الرذائل والمنكرات جريمة يستحق الإنسان أن يعاقب عليها بالطرد والإبعاد!! إن هذا حقاً هو السفه والدناءة في التفكير،فالعفة والطهارة والترفع عن القاذورات تعتبر في تفكير أولئك السفهاء جريمة يعاقب عليها الإنسان،لكن لاعجب من هذا إذا عرفنا أن هذا منطق من ارتكست نفوسهم وانقلبت فطرتهم.

ثانياً:أسباب عقوبة قوم لوط:

إن السبب الرئيس في إنزال العقوبات الكثيرة بقوم لوط هو ارتكابهم لجريمة إتيان الذكور،هذه الجريمة التي ابتدعوها لم يسبقهم إليها أحد من العالمين،ولم تأت على بال بشر قبلهم،ولا يمكن لأحد أن يتصور بشاعة هذه الفاحشة التي تبعث على التقزز،فهي أمر يصعب على الإنسان تخيله،كما قال الوليد بن عبد الملك(١): "لولا أن الله عز وجل قص علينا قصة قوم لوط في القرآن،ما ظننت أن ذكراً يعلو ذكراً"(٢)

وهي جريمة عظيمة،تكاد السماء تنفطر لأجلها،وتنشق الأرض،وتخر الجبال هداً ،ولقد وصف العلماء هول هذه الجريمة وعظمتها ،يقول ابن القيم:" ولم يبتل الله تعالى بهذه الكبيرة قبل قوم لوط أحداً من العالمين،وعاقبهم عقوبة لم يعاقب بها أمة غيرهم ،وجمع عليهم أنواعاً من العقوبات من الإهلاك، وقلْب ديارهم عليهم،والخسف بهم،ورجمهم بالحجارة من السماء ،وطمس أعينهم ،وعذبهم وجعل عذابهم مستمراً،فنكل بهم نكالاً لم ينكله بأمة سواهم،وذلك

---

(١) أحد خلفاء بني أمية ،أقام الجهاد في أيامه و فتحت في خلافته فتوحات عظيمة و كان مع ذلك يرعى الأيتام، ويرتب لهم المؤدبين، و يرتب للزمنى من يخدمهم ،و للأضراء من يقودهم، و عمر المسجد النبوي و وسعه ورزق الفقهاء و الضعفاء و الفقراء و حرم عليهم سؤال الناس و فرض لهم ما يكفيهم و ضبط الأمور أتم ضبط و قال ابن أبي علبة : رحم الله الوليد ! و أين مثل الوليد ؟ افتتح الهند و الأندلس و بنى مسجد دمشق و كان يعطيني قطع الفضة أقسمها على قراء مسجد بيت المقدس

قال الذهبي : أقام الجهاد في أيامه و فتحت فيها الفتوحات العظيمة كأيام عمر بن الخطاب .انظر: تاريخ الخلفاء،للسيوطي– ص ١٩٧.

(٢) البداية والنهاية،لابن كثير – (٩ / ١٨٥).

لعظم مفسدة هذه الجريمة التي تكاد الأرض تميد من جوانبها إذا عملت عليها، وتهرب الملائكة إلى أقطار السموات والأرض إذا شهدوها ،خشية نزول العذاب على أهلها فيصيبهم معهم، وتعج الأرض إلى ربها تبارك وتعالى، وتكاد الجبال تزول عن أماكنها"[١]

إنها كبيرة تنفر منها القلوب، وتجزع منها النفوس، وتنبو عنها الأسماع، وتشمئز منها الطباع**!!**

والمشاهد أن الغرب الكافر في عصرنا الحالي ممثلاً بأشخاص وهيئات ومؤسسات رسمية تدعى الفكر المتحضر قد أجازت هذه الفعلة الشنيعة وقننتها واعتبرتها حرية جنسية،وتطالب بتعدد أشكال الأسرة كزواج الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة،وتعتبر أن هذا سلوك سوي وليس حالة مرضية،والأخطر من ذلك هو محاولات الغرب الترويج لهذه الثقافة الملوثة في المجتمعات المسلمة وإسقاط الشباب في هذه الجريمة الشنيعة،حيث تنفق الأموال وتوضع الخطط لأجل هذا الهدف.

❖ علاقة اللواط بالأخلاق:

واللواط لوثة أخلاقية،ومرض نفسي خطير، فتجد جميع من يتصفون به سيئي الخلق فاسدي الطباع،لا يكادون يميزون بين الفضائل والرذائل،ضعيفي الإرادة ليس لهم وجدان يؤنبهم،ولا ضمير يردعهم، لا يتحرج أحدهم من القبيح،ولا يردعه رادع نفسي عن استعمال العنف والشدة لإشباع عاطفته الفاسدة ،والتجرؤ على ارتكاب الجرائم.[٢]

والمؤسف أن يكون من المروجين لها من ينطق بكلمة التوحيد ، ويزعم أنه مسلم لكنه في الحقيقة منتكس القلب، منتن النفس ،منقلب الفطرة التي فطر الله الناس عليها وزين له الشيطان سوء عمله، وسوَّل له ما تستنكف الأنعام عن اقترافه،وما يريد إلا نشر الفساد والرذيلة في صفوف المسلمين،والقضاء على الحياء في قلوبهم،فلا جرم أن أمثال هؤلاء المروجين للفاحشة لا يعيشون إلا على العفن ولا يحيون إلا على النتن قاتلهم الله أنى يؤفكون،لذلك كان لزاماً على الجميع الوقوف عند مسؤولياته،بدءً بأولي الأمر ،ثم بالآباء بالمتابعة والتربية السوية، مروراً بدور المدرسة في التوعية،وكذلك الدعاة إلى الله بالنصح والتوجيه. [٣]

ولنعد للحديث عن أسباب عقوبة قوم لوط فلقد كان السبب الرئيسي في عقوبة قوم لوط كما ذُكر وكما هو معلوم ومشهور هو ارتكابهم لجريمة إتيان الذكور،ومع ذلك فإن هناك جرائم وذنوب أخرى كانت سبباُ في عقابهم تضاف لتلك الجريمة الشنيعة،وقد جمع الله تعالى هذه الجرائم التي ارتكبها القوم في قوله تعالى حكاية عن لوط عليه السلام وهو يعظ قومه

---

[١] الجواب الكافي – (١ / ١١٩).

[٢] انظر:فقه السنة ،سيد سابق– (٢ / ٢٧٤).

[٣] قصص القرآن،حامد البسيوني،ص١٨٩.

:﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[العنكبوت : ٢٩]

"وقطع السبيل : قطع الطريق ، أي التصدي للمارين فيه بأخذ أموالهم،أو قتل أنفسهم،أو إكراههم على الفاحشة ، وكان قوم لوط يقعدون بالطرق، ليأخذوا من المارة من يختارونه ، فقطع السبيل فساد في ذاته .. ، وأما إتيان المنكر في ناديهم فإنهم جعلوا ناديهم للحديث في ذكر هذه الفاحشة ،والاستعداد لها ومقدماتها كالتغازل برمي الحصى اقتراعاً بينهم على من يرومونه ، والتظاهر بتزيين الفاحشة زيادة في فسادها وقبحها ،لأنه معين على نبذ التستر منها ،ومعين على شيوعها في الناس ."[١]

وقد ذكر المفسرون بعضاً من أفعالهم ومعاصيهم التي كانوا يأتونها في ناديهم–وهو مكان حديثهم وسمرهم– فعن ابن عباس: أنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم وعن مجاهد : كانوا يأتون الرجال في مجالسهم، وبعضهم يرى بعضاً وعن مجاهد أيضاً كان من أمرهم لعب الحمام، وتطريف الأصابع ،بالحناء والتصفير، ونبذ الحياء في جميع أمورهم.

فإذن أسباب عقاب قوم لوط كما بينها القرن الكريم:

١– **جريمة إتيان الذكور.**

٢– **قطع السبيل:** بنهب الأموال ، وترويع المارة ، والاعتداء على الرجال بالفاحشة كرهاً.

٣– **المجاهرة بالمنكر**:بإتيان الفواحش المستقبحة علناً دون حياء.

وهذه الجرائم العظيمة تدل على أن القوم قد أوغلوا في دركات الجهل والضلال وانعدام الحياء،حتى صارت الفاحشة غير مستقبحة ولا مذمومة،يفعلونها دون حياء أو خجل،ولا ينكر بعضهم على بعض،ولا عجب مع هذه الصورة القاتمة لحال القوم أن نرى القرآن وصف هؤلاء القوم بأوصاف ذمٍّ كثيرة مقارنة بغيرهم من الأقوام المكذبة

ثالثاً:أوصاف قوم لوط في القرآن الكريم:

١– وصفهم القرآن بالإسراف والتجاوز لحدود الله حيث قال تعالى :﴿ **بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ** ﴾ [الأعراف : ٨١]

٢– وصفهم بأنهم قوم سوء وقُبْح، خارجين عن طاعة الله،بسبب فعل الخبائث :قال تعالى عنهم:﴿ **وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ**﴾ [الأنبياء : ٧٤]

٣– الظلم لأنفسهم ولغيرهم قال تعالى :﴿ **إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ**﴾ [العنكبوت : ٣١]

[١] التحرير والتنوير ، لابن عاشور – (٢٠ / ٢٤١)

٤- الفساد: قال تعالى في دعاء لوط على قومه :﴿ **قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ [العنكبوت : ٣٠]

٥- العدوان وتجاوز الحلال إلى الحرام قال تعالى: ﴿ **بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ** ﴾ [الشعراء : ١٦٦] ومثل هؤلاء المفسدين المعتدين لا ينبغي أن يبقى لهم وجود أو أثر،بعد أن جمعوا كل أوصاف القبح والذم،وبعد أن استنفذ نبيهم كل وسائل النصح والتوجيه،ولم ينتهوا عن الفاحشة.

وفي نهاية المطاف،دعا لوط عليه السلام ربه تعالى أن ينصره عليهم،وقد استجاب الله دعاء نبيه،وأنزل العقوبات عليهم ،ولشناعة الجريمة وقبحها وخطورتها عاقب الله مرتكبيها بأربعة أنواع من العقوبات لم يجمعها على قوم غيرهم وهي أنه طمس أعينهم ،وجعل عاليها سافلها ،وأمطرهم بحجارة من سجيل منضود، وأرسل عليهم الصيحة،ولنقف مع هذه العقوبات الربانية الأربعة

رابعاً:عقوبات قوم لوط:

العقوبة الأولى:طمس الأعين:

كانت هذه العقوبة الربانية مقدمة للإهلاك العام الذي أباد القوم،وكانت بعد أن أرسل الله تعالى الملائكة في صورة بشر لإهلاك قوم لوط،وللملائكة قدرة على التشكل في صورة البشر،فلما وصلوا إلى لوط عليه السلام ،ورآهم في صورة شباب حِسان الوجوه،أصابه الضيق والحرج الشديد ،خوفاً عليهم من قومه المعتدين[1]قال تعالى في وصف حاله عندما رآهم: ﴿ **وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ** ﴾ [هود : ٧٧]

وجاء صريخ الشؤم إلى قوم لوط يخبرهم أن لوطاً قد نزل بداره ضيوف لم يُرَ مثل جمالهم، ولم ينظر إلى مثل حسنهم،فتداعى القوم واجتمعوا في مسيرة شهوانية معلنة،متجهين مسرعين ملهوفين إلى بيت لوط عليه السلام،والتفوا حول بيت لوط يريدون النيل من ضيوف نبيهم!

قال تعالى في ذلك:﴿ **وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ** ﴾

جاءوه يهرعون إليه – والهرع هو الدم الشديد السيلان كأن بعضه يدفع بعض[2]– ،ويحث بعضهم بعضاً على فعل الفاحشة " ورأى لوط ما يشبه الحمى في أجساد قومه المندفعين إلى داره ، يهددونه في ضيفه وكرامته ، فحاول أن يوقظ فيهم الفطرة السليمة ، ويوجههم إلى الجنس الآخر الذي خلقه الله للرجال ، .. ، فهن حاضرات ، حاضرات اللحظة إذا شاء الرجال المحمومون تم الزواج على الفور ، وسكنت الفورة المحمومة والشهوة المجنونة!

---

[1] النبوة والأنبياء،محمد على الصابوني،ص٢٥٠.

[2] انظر :روح المعاني ، للألوسي – (١٢ / ١٠٥).

﴿ هؤلاء بناتي هن أطهر لكم ﴾ . . أطهر بكل معاني الطهر النفسي والحسي ، فهن يلبين الفطرة النظيفة ، ويثرن مشاعر كذلك نظيفة ، نظافة فطرية ،ونظافة أخلاقية ،ودينية ، ثم هن أطهر حسياً ، حيث أعدت القدرة الخالقة للحياة الناشئة مكمناً كذلك طاهراً نظيفاً ."[١]

وبيَّن المفسرون المراد من قول لوط لقومه:**﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾**

– فقال مجاهد: لم يكن بناته، ولكن كن من أَمَّتِهِ، وكل نبي أبو أَمَّتِه.

– وقيل: أمرهم أن يتزوجوا النساء، ولم يعرض عليهم سفاحاً.

–وقال سعيد بن جبير [٢]: "يعني نساءهم، هن بَنَاته، وهو أب لهم ،ويقال في بعض القراءات النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم".[٣]

لكن القوم لم يريدوا سوى الاعوجاج والانتكاس عن الفطرة**﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾** وهنا نفث نبي الله لوط نفثة المكظوم المكروب :**﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾**، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :(**يرحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد**)[٤][٥]

وعندما رأت الملائكة ما يقاسيه نبي الله لوط من الألم ،كشفوا عن حقيقتهم، وعرفوه بأنفسهم،وبالمهمة التي أرسلوا من أجلها **﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾** [هود : ٨١]

وحينما أصر قوم لوط المحمومون على اقتحام بيت لوط عليه السلام ،ولم يراعوا حق الضيف،وقعت العقوبة الأولى عليهم وهي طمس الأعين كما أخبر الله تعالى في سورة القمر: **﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾** [القمر : ٣٧]

---

[١] في ظلال القرآن ، سيد قطب – (٤ / ٢٥٥).

[٢] هو الفقيه المحدث المفسر ،كان أحد علماء التابعين ،أخذ العلم عن عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وجاء عن بعضهم كان أعلم التابعين بالتفسير مجاهد وأجمعهم لذلك سعيد بن جبير، توفي سنة خمس وتسعين. انظر:طبقات المفسرين للأدنروي –(١ / ١٠).

[٣] جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري – (١٥ / ٤١٤).

[٤] صحيح البخاري ، كتاب(الأنبياء)، باب ٢١قول الله تعالى ﴿لقد كان في يوسف ..﴾ –(٣ / ١٢٣٧) ،ح(٣٢٠٧).

[٥] ومعنى الحديث :" لو كانت لي عشيرة لدفعوكم ، ترحم عليه النبي[صلى الله عليه وسلم] لسهوه في الوقت الذي ضاق صدره ، واشتد جزعه بما دهمه من قومه حتى قال : أو آوي إلى ركن شديد ، وقد كان يأوي إلى أشد الأركان من الله تعالى." شرح السنة ، للبغوى (١ / ١١٧).

و الطمس: إزالة الأثر بالمحو، قال تعالى: ﴿**ربنا اطمس على أموالهم**﴾ [يونس:٨٨]، أي: أزل صورتها، ﴿ **وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ** ﴾ [يس:٦٦]، أي: "أزلنا ضوءها وصورتها كما يطمس الأثر"[١]

ومعنى الآية الكريمة :" طلبوا الفجور بهم وهذا من إسناد ما للبعض للجميع لرضاهم به ﴿ **فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ** ﴾ أي أزلنا أثرها وذلك بمسحها وتسويتها كسائر الوجه .. وروى أن جبريل عليه السلام استأذن ربه سبحانه في عقوبتهم ليلة جاءوا وعالجوا الباب ليدخلوا عليهم فصفقهم بجناحه فتركهم عمياناً يترددون لا يهتدون إلى طريق خروجهم حتى أخرجهم لوط عليه السلام "[٢]

فمحيت هذه الأعين التي كانت ترى المنكرات،ويستعان بها على الموبقات،لتحل بالقوم بعد ذلك العقوبة الشاملة التي أهلكتهم عن آخرهم وهي قلب الديار.

العقوبة الثانية: قلْب الديار:

وهذه العقوبة الربانية الثانية التي عاقب الله بها القوم،وكانت في صبيحة اليوم الذي سبق طمس الأعين، حيث قال تعالى بعد آية طمس الأعين :﴿ **وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ**﴾ [القمر : ٣٨]،وكان هذا العذاب الذي صبحهم عذاباً شديداً مؤلماً ،لم يسبق أن عذب الله به أحداً قبلهم من الأمم المكذبة التي جاء ذكرها في القرآن الكريم،حيث أمر الله تعالى الملائكة فاقتلعت قراهم من جذورها ورفعتها نحو السماء ،ثم قلبت هذه الديار رأساً على عقب،قال تعالى في وصف هذا العذاب الشديد:﴿ **فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا** ﴾ [هود : ٨٢]

"وهي صورة للتدمير الكامل الذي يقلب كل شيء ،ويغير المعالم ويمحوها ، وهذا القلب وجعل عاليها سافلها أشبه شيء بتلك الفطرة المقلوبة الهابطة المرتكسة من قمة الإنسان إلى درك الحيوان،بل أحط من الحيوان،فالحيوان واقف ملتزم عند حدود فطرة الحيوان . ."[٣]

وقد روي المفسرون أخباراً من الإسرائيليات وهي أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط ..فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها حتى سمع أهل السماء نهيق حمرهم وصياح ديكتهم ولم تنكفيء لهم جرة ،ولم ينكسر لهم إناء ثم نكسوا على رؤوسهم وأتبعهم الله بالحجارة[٤]

---

[١] مفردات ألفاظ القرآن ،للراغب الأصفهاني- (٢ / ٣٢).

[٢] روح المعاني ، للألوسي – (٢٧ / ٩٠).

[٣] في ظلال القرآن ،سيد قطب- (٤ / ٢٥٦).

[٤] انظر:الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي – (٩ / ٧١) ،لكن هذه الرواية التي ذكرت في كثير من كتب المفسرين تتناقض مع ما أثبته العلم الحديث أن الحياة تستحيل في الطبقات العليا من الجو،ولذلك نجد الطيارين مثلاً يستعينون بأجهزة التنفس للبقاء على قيد الحياة.

وهذه العقوبة آية من آيات الله تعالى،ودلالة على قدرته سبحانه وتعالى،يقول الإمام الرازي: " اعلم أن هذا العمل كان معجزة قاهرة من وجهين: أحدهما أن قلْع الأرض وإصْعادها إلى قريب من السماء فعل خارق للعادات ،والثاني أن ضربها من ذلك البعد البعيد على الأرض بحيث لم تتحرك سائر القرى المحيطة بها ألبتة ولم تصل الآفة إلى لوط عليه السلام وأهله مع قرب مكانهم من ذلك الموضع معجزة قاهرة أيضاً"[1]

ولم يتوقف العذاب عند هذا الحد –وإن كان لكافٍ لإهلاكهم– فقد أتبعهم الله بعذاب آخر وهو الإمطار بالحجارة.

العقوبة الثالثة:الرجم بالحجارة:

قال تعالى في ذكر العقوبة الثالثة التي نزلت بالقوم ،وهي الرجم بالحجارة: **﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ* مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾** [هود : ٨٢ ، ٨٣]

وهذا الرجم إما أن يكون قبل قلب ديارهم،وإما أن يكون في أثناء ذلك والله أعلم ،وتشتمل الآية على أوصاف عديدة للحجارة التي رجم بها القوم،وتبين مشهد العذاب الذي نزل بالقوم:

١– قوله **﴿أمطرنا عليهم﴾**:يدل على غزارة الحجارة التي رجموا بها حيث شبه القرآن غزارتها بغزارة المطر.

٢– وجاءت الآية بلفظ "أمطرنا" وهو يستعمل للعذاب كما قال علماء اللغة[2]

٣– السجيل:وهو الطين المتحجر ،لقوله تعالى في الآية الأخرى : **﴿ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾** [الذاريات : ٣٣] والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، ويتعين إرجاع بعضه لبعض في قصة واحدة ،وقيل هو الشديد الصلب من الحجارة ، وقيل:المشوية، وقيل السجيل : الشديد الكبير.[3]

ويرى الباحث أنه لا مانع من الجمع بين هذه الأقوال فلا تعارض بينها فيكون المراد بالسجيل حجارة الطين الصلبة الملتهبة الكبيرة والله أعلم.

٤– والمنضود: اختلف في معناه

أ–قيل :"أنه نضد بعضه فوق بعض"[4] ،ويرى الباحث أن هذا بعيد لأنه يتعارض مع هيئة الإمطار التي ذكرتها الآية.

---

[1] مفاتيح الغيب – (١٨ / ٣١).

[2] انظر: التحرير والتنوير ، لابن عاشور – (٨ / ٢٣٧).

[3] انظر: روح المعاني ، للألوسي – (١٢ / ١١٣) ، تفسير فتح القدير – (٢ / ٥١٥)، تفسير القرآن العظيم،لابن كثير – (٤ / ٣٤٠).

[4] فتح القدير ، للشوكاني – (٢ / ٥١٥).

ب–وقيل:" بعضه في أثر بعض"[1] يقال نضدت المتاع إذا جعلت بعضه على بعض فهو منضود ونضيد وهذا هو المعنى الأرجح.

٥– مسومة: وفي معناها أقوال:

أ– قيل :كان عليها سيماً وعلامات يعلم بها أنها ليست من حجارة الأرض .

ب– وقيل : معلمة ببياض وحمرة ، وروي ذلك عن ابن عباس ، وجاء في رواية أخرى عنه : كان بعضها أسود فيه نقطة بيضاء، وبعضها أبيض فيه نقطة سوداء .

ج–وقيل : كانت معلمة باسم من يرمي بها .[2]

العقوبة الرابعة:الصيحة :

قال تعالى في شأن هذه العقوبة **﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾** [الحجر : ٧٣]

والمراد بالصيحة :"هي ما جاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس، وهو طلوعها"[3]

وتعريف الصيحة للدلالة على أنها صيحة هائلة ، وقيل : صيحة جبريل عليه السلام فالتعريف للعهد [4]

❖ عبرة لا تنتهي:

وبعد هذا الاستعراض للعقوبات التي نزلت بقوم لوط عليه السلام،بقيت قراهم عبرة وعظة حيث قال تعالى:**﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ *وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ *إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾**[5][الحجر:٧٤– ٧٧]

---

[1] فتح القدير ، للشوكاني – (٢ / ٥١٥).

[2] المصدر السابق (٥١٦/٢).

[3] تفسير القرآن العظيم،لابن كثير – (٤ / ٥٤٣).

[4] روح المعاني ، للألوسي – (١٤ / ٧٤).

[5] ومن إعجاز القرآن هنا ما نجده فى اختلاف النظم بين فاصلتى الآيتين فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ وفى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

ومن أسرار هذا الاختلاف :

أولا : أن المتوسّمين وهم أصحاب البصر الحديد والبصيرة النافذة ،تتكشف لهم من ظواهر الأشياء أمور لا تتكشف لغيرهم من سائر الناس ، فهم يرون آيات ، على حين يرى غيرهم آية ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾.

وثانيا : أن المؤمنين ، أو من فى كيانهم استعداد للإيمان . هؤلاء ، لا يحتاجون إلى كثير من الأدلة والبراهين ، حتى يذعنوا للحق ، ويهتدوا إلى الإيمان ، وإنما تكفيهم الإشارة الدالّة ، أو اللمحة البارقة ، حتى يكونوا على طريق الإيمان .. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

وثالثا : أن الإيمان أمره هيّن ، ومراده قريب .. وأن القاصد إليه ، الباحث عنه ، لا يحتاج إلى معاناة نظر ، أو كدّ ذهن ، وكل ما يحتاج إليه فى تلك الحال ، هو أن يخلى نفسه من التشبث ، والعناد ، والمكابرة ، وأن يلقى وجه الإيمان بقلب سليم ، ورأى مستقيم .. عندئذ يرى أن الإيمان أقرب شىء إليه ، وآلف حقيقة عنده =

"أي إن فيما فعلناه بقوم لوط من الهلاك والدمار وإنجاءنا لوطاً وأهله، لدلالة جلية للمؤمنين المصدقين بالله ورسله ، إذ هم يعرفون أن ذلك إنما كان انتقاماً من الله لأنبيائه من أولئك الجهال الذين عصوا أمر ربهم ، وكفروا برسله ولم يرعوا عن غيهم وضلالهم بعد إنذارهم ونصحهم،أما الذين لا يؤمنون بالله فيجعلون ذلك حوادث كونية ، لأسباب فلكية ، وشؤون أرضية ، جعلت الأرض تنهار لحدوث فراغ فى بعض أجزائها، كما يشاهد اليوم فى البلاد ذات البراكين من اختفاء بلاد فى باطن الأرض وابتلاع الأرض لها"[١]

فبقي مكان هلاكهم –وهو البحر الميت–آية من آيات الله تعالى وعبرة للعالمين ليروا العذاب الذي حل بهؤلاء الشذاذ،وكان تجار العرب على عهد النبي صلى الله عليه وسلم يمرون على تلك المنطقة خلال رحلة الصيف إلى الشام،ومازالت حتى وقتنا هذا عبرة لمن أراد أن يعتبر،وما زال الله تعالى يبعث على من فعل فِعْل قوم لوط العذاب الشديد كما في مرض نقص المناعة أو يسمى مرض الإيدز هو طاعون العصر[٢]،وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال في الحديث الذي يرويه بن عمر رضي الله عنهما :(.. **لم تظهر الفاحشة في قوم قط ، حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا...)**[٣]

خامساً: حد اللواط في الإسلام :

اختلف الفقهاء في حد اللواط على ثلاثة مذاهب:

أولاً : مذهب القائلين بالقتل مطلقاً .

ثانياً : مذهب القائلين بأن حده كحد الزنى .

ثالثاً : مذهب القائلين بالتعزير .

المذهب الأول :

أما المذهب الأول فهو مذهب (مالك وأحمد) وقول (للشافعي) وقد ذهبوا إلى أنّ حد اللواط هو القتل ، سواء كان بكراً أم ثيباً ، فاعلاً أو مفعولاً به ، وهذا القول مروي عن أبي بكر وعمر وابن عباس رضوان الله عليهم أجمعين ، ونقل بعض الحنابلة إجماع الصحابة على أن الحد في اللواط القتل .

واستدل أصحاب هذا الرأي بما يأتي :

=إذ كان جاريا مع الفطرة الإنسانية ، متجاوبا مع أشواقها وتطلعاتها. انظر:التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب– (٧ / ٢٥٤).

[١] تفسير المراغى – (١٤ / ٣٩).

[٢] انظر:موقع (الصحة) http://www.sehha.com مقال بعنوان :الرجال ومرض الإيدز .

[٣] سنن ابن ماجه ،كتاب (الفتن)،باب(٢٢) العقوبات – (٢ / ١٣٣٢)ح (٤٠١٩) قال الألباني :حسن.

أ- حديث (**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به**)[1] .

ب- ما روي عن علي رضي الله عنه أنه رجم من عمل هذا العمل - أي ارتكب اللواطة - قال الشافعي : وبهذا نأخذ برجم من يعمل هذا العمل محصناً كان أو غير محصن .

كيفية القتل :

ثم إن القائلين بالقتل قد اختلفوا في كيفية القتل على أقوال :

أحدها : تحزّ رقبته كالمرتد ، وهو مروي عن (أبي بكر وعلي) .

ثانيها : يرجم بالحجارة ، وهو مروي عن ابن عباس وبه قال (مالك وأحمد) .

ثالثها : يلقى من أعلى شاهق ، وهو مشهور مذهب مالك .

رابعها : يهدم عليه جدار ، وهو مروي عن أبي بكر الصديق ؛ وإنما ذكروا هذه الوجوه لأن الله تعالى عذَّب قوم لوط بكل ذلك فقال تعالى : ﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [هود : ٨٢] وذلك العقاب إنما استحقوه بسبب عظم الجريمة .

المذهب الثاني :

وذهب (الشافعية) إلى أن اللواط حده كحد الزنى ، يجلد البكر ، ويرجم المحصن ، وهذا المذهب مروي عن بعض التابعين كسعيد بن المسيب وعطاء وغيرهم .

وقد استدلوا على مذهبهم بحديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (**إذا أتى الرجلُ الرجلَ فهما زانيان**)[2]، فقد دل الحديث على أن حكمه كحكم الزنى .

المذهب الثالث :

وذهب الأحناف إلى أن (اللواط) جريمة عظيمة وشنيعة، ولكنه ليس كالزنا ، فلا يكون حدُّه حدّ الزنا ، وإنما فيه التعزير ، واستدلوا بأدلة منها :

أ- قالوا : الزنا غير اللواط من حيث اللغة فإن الزنا اسم لوطء الرجل المرأة في القبل ، واللواطُ : اسم لوطء الرجل الرجل ، ألا ترى أن القرآن فرَّق بينهما حيث قال عن قوم لوط **﴿أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال شَهْوَةً مِّن دُونِ النسآء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾**[النمل : ٥٥]

ب-وقالوا أيضاً - كيف يكون (اللواط) زنى وقد اختلف الصحابة في حكمه ؟وهم أعلم باللغة وموارد اللسان ،ولو كان زنى لأغناهم نص الكتاب عن الاختلاف والاجتهاد .

ت-واستدلوا بما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من قوله (**لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله إلا بإحدى ثلاث رجل زنى بعد إحصان فإنه يرجم**

---

[1] سنن أبي داود،كتاب (الحدود)، - باب ٢٩(فيمن عمل عمل قوم لوط)، (٤ / ٢٢٢)،ح (٤٤٦٤) قال الألباني: حسن صحيح.

[2] السنن الكبرى للبيهقي، كتاب (الحدود)، باب ٢٥ (مَا جَاءَ فِى حَدِّ اللُّوطِىِّ) - (٨ / ٢٣٣) ح(١٧٤٩٠).

ورجل خرج محاربا لله ورسوله فإنه يقتل أو يصلب أو ينفى من الأرض أو يقتل نفسا فيقتل بها)[١] وقالوا : لقد حظر صلى الله عليه وسلم قتل المسلم إلا بإحدى هذه الثلاث ،وفاعل ذلك خارج عنها لأنه لا يسمى زنى، ثم لو كان بمنزلة الزنا لفرّق عليه الصلاة والسلام في حكمه بين المحصن ، وغير المحصن : عندما قال : **(فاقتلوا الفاعل والمفعول به)** فلما لم يفرّق دلّ على أنه لم يوجبه على وجه (الحد) وإنما أوجبه على وجه (التعزير) وللحاكم في باب التعزير سعة في الأمر .

ورجَّح العلامة الشوكاني المذهب الأول القاضي بالقتل ،وضعّف ما سواه من مذهب الشافعية والأحناف ولعله في صواب فيما رجح ، فإن عظم هذه الجريمة (جريمة اللواط) تستدعي عقاباً شديداً صارماً يستأصل الجريمة من جذورها،ويكسر شهوة الفسقة المتمردين ،ويقضي على الفساد والمفسدين ، وليس هناك من طريق أجدى ولا أنفع من تنفيذ الإعدام حرقاً أو هدماً أو رجماً أو إلقاء من شاهق جبل ليكون عبرة للمعتبرين وفي.[٢]

المطلب الخامس:أخذ قوم شعيب بالرجفة:

أولاً: دعوة شعيب لقومه:

ورد ذكر شعيب عليه الصلاة والسلام في القرآن الكريم عشر مرات،في سورة الأعراف وهود والشعراء والعنكبوت وسما القرآن قومه أصحاب الأيكة حيث يقول تعالى:**﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾** [الشعراء : ١٧٦] ويرى بعض المفسرين أن أصحاب الأيكة قوم غير قوم مدين فعن عِكْرِمة قال:" ما بعث الله نبيًا مرتين إلا شعيبًا، مرة إلى مدين فأخذهم الله بالصيحة، ومرة إلى أصحاب الأيكة فأخذهم الله بعذاب يوم الظُّلَّةِ"[٣].

والصحيح أن أهل مدين هم ذاتهم أصحاب الأيكة،لأن سورة الشعراء التي سمتهم (أصحاب الأيكة) ذكرت أنهم كانوا يخسرون الميزان والمكيال،وهذه معصية أهل مدين ذكرت في سائر المواضع التي وردت فيها القصة،وإلى هذا ذهب كثير من المحققين ومنهم ابن كثير حيث يقول :" والصحيح أنهم أمة واحدة، وصفوا في كل مقام بشيء؛ ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان، كما في قصة مدين سواء بسواء ، فدل ذلك على أنهم أمة واحدة "[٤]

---

[١] سنن أبى داود، كتاب (الحدود) ، باب١ (الحكم فيمن ارتد) - (٤ / ٢٢٣)، ح(٤٣٥٥)
قال الألباني: صحيح

[٢] انظر:تفسير آيات الأحكام،على الصابوني - (٢ / ٤١) الفقه الإسلامي وأدلته ،لوهبة الزحيلي- (٧ / ٢٩٠) سبل السلام ، محمد بن إسماعيل الصنعاني - (٤ / ١٣)، فقه السنة،سيد سابق - (٢ / ٤٣٢)

[٣] تفسير القرآن العظيم،لابن كثير - (٦ / ١٥٩).

[٤] المصدر السابق،نفس الصفحة .

وسموا بأصحاب الأيكة لأن الأيكة هي الشجر الملتفّ، وهي واحدة الأيك، وكل شجر ملتفّ فهو عند العرب أيكة[1] وقد كانوا يعيشون في رغد، وطيب عيش بين البساتين والخيرات الكثيرة ،وقد أرسل الله إليهم نبيهم شعيباً يدعوهم إلى توحيد الله تعالى،ومعالجة بعض المنكرات التي استشرت بينهم،غير أنهم كذبوا وأعرضوا.

ثانياً:أسباب عقوبة قوم شعيب:

١- الإصرار على الشرك:

أصر قوم شعيب على الكفر بالله تعالى كالذين من قبلهم من الأمم المكذبة، بعد أن

دعاهم نبيهم لتوحيد الله تعالى ،حيث يقول المولى جل وعلا ﴿ **وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ** ﴾ [العنكبوت : ٣٦ ، ٣٧]

٢- تطفيف الميزان:

وهي من المنكرات التي فشت بين أهل مدين،حيث كانوا يطففون الميزان،ويبخسون الناس أشياءهم،قال تعالى:﴿ **وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ**﴾ [هود : ٨٤ ، ٨٥] نهاهم شعيب عليه الصلاة والسلام في الآية السابقة عن منكرين من المنكرات وهما:

الأول:نقص الكيل والميزان:

وهما آلتا الوزن والكيل والنقص فيهما يكون من وجهين :

أ- أن يكون الاستنقاص من جهتهم إذا باعوا لغيرهم .

ب- أن يكون الاستنقاص من جهة غيرهم إذا اشتروا منه ، بأن يأخذوا منه أكثر من حقهم.

فكأنه عليه السلام يقول لهم : لا تنقصوا المكيال والميزان لا عند الأخذ ولا عند الإعطاء ، فلا تعطوا غيركم أقل من حقه إذا بعتم ، ولا تأخذوا منه أكثر من حقكم إذا اشتريتم ،وإلى هذين الأمرين أشار قوله تعالى ﴿ **وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ**﴾ [المطففين : ١ - ٤] [2]

الثاني:بخس الأشياء:

والبخس هو النقص ،وهو يكون في السلعة بالتعييب والتزهيد فيها ،أو المخادعة عن القيمة ،وكل ذلك من أكل المال بالباطل،وذلك منهي عنه في الأمم المتقدمة والسالفة على ألسنة

---

[1] جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري - (١٩ / ٣٩٠) .

[2] انظر: التفسير الوسيط،لسيد طنطاوي- (٧/ ١٤١).

الرسل صلوات الله وسلامه على جميعهم[1]

ولم تكن هذه الظاهرة محصورة في عدد قليل من أهل مدين،وإلا لما شمل العذاب الجميع لأن ظلم الانسان لنفسه بفساده العقيدي، والعملي،والأخلاقي ليس مدعاة للهلاك ،وسبباً للدمار والسقوط ما دام قاصراً على الأفراد،والأمة محتفظة بكيان استمراريتها، وصلاحية ديمومتها وبقائها،ولكن إذا تجاوز الظلم والفساد مستوى الأفراد الذين لا يشكلون القاعدة أو الظاهرة العامة ،إلى مستوى دائرة الأمة أخذت تلك الأمة في الهبوط من علياء الكرامة والعز إلى درك الذل والهوان، حتى تحين ساعة الدمار والسقوط [2]

***الغرض من تكرار النهي عن نقص المكيال والميزان:**

ويطرح هنا سؤال مهم وهو لماذا وقع التكرار في الآية السابقة، لأنه قال **﴿ولا تنقصوا المكيال والميزان﴾** ، ثم قال : **﴿أوفوا المكيال والميزان﴾** وهذا عين الأول :

يقول الإمام الخازن إجابة عن هذا التساؤل: "إن القوم لما كانوا مصرين على ذلك العمل القبيح وهو تطفيف الكيل والوزن ،ومنع الناس حقوقهم، احتيج في المنع إلى المبالغة في التأكيد ،والتكرير يفيد شدة الاهتمام والعناية بالتأكيد ،فلهذا كرر ذلك ليقوي الزجر والمنع من ذلك الفعل لأن قوله **﴿ولا تنقصوا المكيال والميزان﴾** نهى عن التنقيص ،وقوله:**﴿ أوفوا المكيال والميزان﴾** أمر بإيفاء العدل وهذا غير الأول ومغاير له"[3]

٣- الصد عن سبيل الله:

وهو من أسباب عقوبتهم، فإنهم لم يكتفوا بالإعراض عن دعوة شعيب ؛بل كانوا يحرضون غيرهم على الكفر به،ويصدونهم عن سبيل الهداية والرشاد،ويهددونهم بالقتل، ويتوعدونهم بأنواع الأذى،قال تعالى حكاية عن شعيب عليه الصلاة والسلام: **﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾** [الأعراف : ٨٦]

"قيل كانوا يقعدون في الطرقات المفضية إلى شعيب فيتوعدون من أراد المجيء إليه ويقولون إنه كذاب فلا تذهب إليه كما كانت قريش تفعله مع النبي صلى الله عليه وسلم قاله ابن عباس ...، وقيل المراد القعود على طرق الدين ومنع من أراد سلوكها وليس المراد به القعود على الطرق حقيقة .."[4]

---

[1] انظر:الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي – (٧ / ٢٢١).

[2] انظر:نحن والحضارة الغربية، أبو الأعلى المودودي ، ص٢٢٢.

[3] لباب التأويل في معاني التنزيل،للخازن – (٣ / ٢٤٨).

[4] فتح القدير ، للشوكاني – (٢ / ٢٢٤).

٤- تهديدهم لنبيهم شعيب:

لما ألح عليهم شعيب عليه الصلاة والسلام في الدعوة والموعظة،وأبطل كل حججهم ، إذ كان قوي الحجة والبرهان،[١] جاهروه بالعداء،وادعوا أنهم لا يفهمون ما يقوله،وتوعدوه بأنه لولا أن له عشيرة تحميه لقتلوه :﴿ **قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ**﴾ [هود : ٩١]

وهنا نجد شعيباً عليه الصلاة السلام يوبخهم على قولهم هذا ،وينكر عليهم:﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** ﴾

أي :"أتتركوني لأجل قومي، ولا تتركوني إعظاماً لجناب الله أن تنالوا نبيه بمساءة، وقد اتخذتم جانب الله ﴿ **وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا** ﴾ أي: نبذتموه خلفكم، لا تطيعونه ولا تعظمونه"[٢]

ولما علم شعيب إصرار قومه على التكذيب والمعاندة، دعا ربه أن يحكم بينه وبين قومه بالحق:﴿...**رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ**﴾ [الأعراف : ٨٩]

ثم توعدهم بعذاب الله ،وارتقاب عذابه﴿**وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ**﴾ [هود : ٩٣]

أي:" اعملوا كل ما فى إمكانكم عمله معى ، وابذلوا فى تهديدى ووعيدى ما شئتم ، فإن ذلك لن يضيرنى ، وكيف يضيرنى وأنا المتوكل على الله المعتمد على عونه ورعايته؟ اعملوا ما تريدون ،وأنا سأعمل ما شئت ،فإنكم بعد ذلك سوف تعلمون من منا الذى سينزل به عذاب يخزيه ويفضحه ويهينه ، ومن منا الذى هو كاذب فى قوله وعمله "[٣]

ثالثاً:عقوبات الله لقوم شعيب:

ورد في عقوبة الله لقوم شعيب ثلاث آيات:

الآية الأولى:تبين أن عقوبتهم كانت الرجفة :﴿**فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ** [الأعراف : ٩١]

الآية الثانية :أفادت أن العقاب كان عبارة عن صيحة :﴿**وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ *كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُود** ﴾[هود : ٩٤ ، ٩٥]

---

[١] قال الثوري: "وكان يقال له: خطيب الأنبياء"، لحسن مراجعته قومه ومناظرته لهم انظر :تفسير القرآن العظيم،لابن كثير – (٤ / ٣٤٦).

[٢] تفسير القرآن العظيم،لابن كثير – (٤ / ٣٤٧).

[٣] التفسير الوسيط،لسيد طنطاوي– (٧ / ٧٨).

الآية الثالثة :وهي في سورة الشعراء ذكرت أنهم أخذوا بعذاب يوم الظلة :**﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾**[الشعراء : ١٨٩]

فما هو المراد بهذه العقوبات الثلاث؟وما وجه التناسب في ذكرها في هذه السور الكريمة في مواضعها؟

١- **المراد بالرجفة** : وهي المرة من الرجف ،وهو الحركة والاضطراب ،والرجفة هي الزلزلة الشديدة أي الارتعاد والحركة الشديدة للأرض ،ومنه : **﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾** [المزمل : ١٤] والمعنى : فأخذتهم الزلزلة فأصبحوا في دارهم باركين على ركبهم أو منكبين على وجوههم ميتين[١]

٢- **أما "الصيحة"** :فقد سبق بيان معناها في الحديث عن عقوبة قوم لوط وخلاصة القول أنها الصوت القاصف الشديد

٣- **عذاب يوم الظلة:** عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :"بعث الله عليهم سحابة، فأظلتهم من الشمس، فوجدوا لها برداً ولذة، فنادى بعضهم بعضاً، حتى إذا اجتمعوا تحتها، أرسلها الله عليهم ناراً،قال عبد الله بن عباس: فذلك عذاب يوم الظلة"[٢]

وهذه العقوبات الثلاث قد اجتمعت على أهل مدين في آن واحد،فكانت عذاباً محيطاً ،كما وصفه لهم نبيهم **﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾** [هود : ٨٤] أحاط بالقوم من تحتهم بالرجفة ومن فوقهم بالسحاب الملتهب، ومن حولهم بالصوت الصاعق

قال ابن كثير رحمه الله :"وقد اجتمع عليهم ذلك كله: أصابهم عذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولَهَب ،ووهَج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس وخمدت الأجساد"[٣]

رابعاً:وجه التناسب في ذكر كل عقوبة في موضعها من السور الثلاثة:

نجد أن هناك تناسب واضح بين كل عقوبة والسياق الذي ذكرت فيه من السورة،حيث وضعت كل عقوبة متناسبة مع معاني الآيات وموضوعاتها وسياقاتها التي وردت فيها،ففي سورة الأعراف تحدثت الآيات أن قوم شعيب أرجفوا نبيهم، وهددوه وأصحابَه بالإخراج من الديار أو الدخول في ملة الكفر حيث قال تعالى عنهم:**﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾** [الأعراف : ٨٨]

---

[١] انظر: معاني القرآن للفراء – (١ / ٣٨٤) تفسير المنار ،لمحمد رشيد رضا– (٩ / ١١).

[٢] جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري – (١٩ / ٣٩٤).

[٣] تفسير القرآن العظيم،لابن كثير – (٣ / ٤٤٩).

فقال تعالى في مبيناً عقابهم:﴿ **فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ**﴾فقابل الإرجاف بالرجفة،والإخافة بالإخافة.
وفي سورة هود ذكر أن عقوبتهم كانت بالصيحة ،وذلك لأنهم قالوا لنبيهم على سبيل التهكم والاستهزاء والتندر﴿ **أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ** ﴾[هود : ٨٧] فكان من المناسب أن يذكر الصيحة التي أسكتتهم ومنعتهم من تعاطي هذا الكلام القبيح بحق نبي الله شعيب عليه الصلاة والسلام

وأما في سورة الشعراء فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظلة،وكانت هذه العقوبة استجابة لما طلبوه حيث قالوا:﴿ **فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ [الشعراء : ١٨٧] أي: قطع من العذاب تستأصلنا[١]،وهو كقول إخوانهم من كفار قريش: ﴿ **وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ [الأنفال : ٣٢]،فاستجاب الله طلب قوم شعيب،حيث أصابهم حر شديد،فأظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها كي يستظلوا بظلها فلما تكامل عددهم فإذا بالسحابة تنفث شرراً ولهباً وناراً أحرقتهم ،ثم رجفت بهم الأرض وجاءت صيحة عظيمة من السماء فأزهقت أرواحهم وقضت عليهم
ثم ذكر الله تعالى ما قاله شعيب بعد نجاته ومن معه من المؤمنين من العذاب الأليم،حيث قال موبخاً لهم ومقرعاً :﴿ **فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ**﴾ [الأعراف : ٩٣]

---

[١] انظر :تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان،للسعدي ، ص ٥٩٧.

المبحث الثاني
نماذج لعقوبات إهلاك الأفراد

وفيه ثلاثة نماذج

النموذج الأول: ابن نوحٍ عليه الصلاة والسلام.

النموذج الثاني: قارون.

النموذج الثالث: السامري.

المبحث الثاني
نماذج لعقوبات الأفراد

النموذج الأول: ابن نوحٍ عليه الصلاة والسلام

أولاً:قصة ابن نوح وعقوبته:

هذا نموذج من النماذج القرآنية لعقوبات الأفراد،ذكره القرآن في سياق قصة نوح عليه الصلاة والسلام مع قومه،وقد سبق الكلام عن عقوبة قوم نوح التي تمثلت بالطوفان الذي أغرق القوم ،ولم يستثن أحداًً من الكفار، ويذكر القرآن هذه الحلقة من حلقات القصة وهي موقف نوح من ابنه قبل غرقه ليؤكد على أحد خصائص السنة الإلهية في عقاب الأمم وهي سنة العموم والمراد بها أن هذه السنة إذا وقعت فإنها تجري على كل من وقع في أسبابها دون النظر إلى عرقه أو نسبه وقرابته، فهي سنة لا تحابي أحداً ،كما قال تعالى**﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾** [فاطر : ٤٣] .

ولنقف الآن مع الآيات الكريمة التي قصت علينا خبر نوح مع ولده العاق ،وما ترتب على ذلك من توجيهات إلهية:

قال تعالى عن سفينة النجاة :

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾[هود : ٤٢- ٤٣]

تصور لنا هذه الآيات لحظة رهيبة حاسمة، يبصر فيها نوح عليه الصلاة والسلام مِنْ على متن سفينة النجاة ابنه وفلذة كبده، وهو في معزل عن الكفار،تكاد الأمواج الهائلة أن تغرقه، فاستيقظت في كيانه معاني الأبوة الملهوفة،وراح يهتف بالولد الشارد : **﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾**[هود : ٤٢]

ولكن كيف يقع مثل هذا الكلام من نوح – عليه السلام – وقد وعده الله تعالى بنجاة المؤمنين من أهله فقط دون الكافرين الذين كان ولده وزوجته منهم ، ولا يعقل أن يخفى عليه أمر كفرهما؟

"يحتمل أن يكون حين رأى ابنه بمعزل عن الكفار وبعيداً عنهم ، ظن أنه قد بدا له كفرهم فكرههم وجنح للإيمان،وأراد الانضمام لفريق المؤمنين، ويحتمل أن يكون قد فهم أنه غير داخل في عموم قوله تعالى له : **﴿ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾** [هود : ٣٦]؛ لأنه – تعالى – جعل الناجين قسمين : أهله إلا من استثنى ، ومن آمن من قومه ،

فجاز في فهمه أن يؤمن من أهله من كان كافراً لأنهم قسيم لقومه منهم ، ووافق هذا الفهم وقواه رحمة الأبوة"[1]

وقال الشيخ القاسمى :" وإنما قال نوح ذلك – أى : رب إن أبنى من أهلى . . ألخ – لفهمه – من الأهل ذوى القرابة الصورية ، والرحمة النسبية ، وغفل – لفرط التأسف على ابنه – عن استثنائه تعالى بقوله : **﴿ إلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ القول ﴾** ولم يتحقق أن ابنه هو الذى سبق عليه القول ، فاستعطف ربه بالاسترحام ، وعرض بقوله ﴿ وَأَنتَ أَحْكَمُ الحاكمين ﴾ إلى أن العالم العادل الحكيم لا يخلف وعده ."[2]

ولكن الابن العاق لم يستجب لدعوة أبيه، وغرَّته قوته وفتوته ،وظن أنه سينجو من الغرق فقال :**﴿ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾**

اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ رءوس الجبال، وأنه لو تعلق في رأس جبل لنجّاه ذلك من الغرق، فقال له أبوه نوح، المدرك لحقيقة الهول وحقيقة الأمر مرسلاً له النداء الأخير : : **﴿ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلا مَنْ رَحِمَ ﴾** أي: ليس شيء يعصم اليوم من أمر الله لا جبال ولا مخابئ إلا من رحم الله .

وفي لحظة تتغير الأحوال وتتبدل صفحة المشهد ، وتقع سنة العقاب على ذلك الكافر العاق ويبتلعه الموج الغامر **﴿ وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾** .

وبعد هدوء العاصفة،وانتهاء الطوفان،واستواء السفينة على بر الأمان،تستيقظ في نوح عليه السلام لهفة الوالد المفجوع على ابنه لينادي:

﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾

قالها مستنجزاً ربه الوعد الذي وعده إياه في نجاة أهله ، ولم يصرح بمراده وهو نجاة ولده ،واكتفى بالتعريض والإيماء،من باب الأدب مع الله تعالى،ولعلمه أن الله تعالى مطلع على ما يريد فهو يعلم السر وأخفى ،وهذا أدب رفيع ،سلكه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى مخاطبتهم لربهم عز وجل

لكن الرد الإلهي جاء حازماً ومذكراً بحقيقة القرابة التي تربط الولد بابنه،وهي قرابة العقيدة والدين ،وليست قرابة الدم والنسب لذلك جاءه الرد في قوة وتوكيد؛ وفيما يشبه التقريع والتأنيب :**﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾**

---

[1] تفسير المنار ،محمد رشيد رضا– (١٢ / ٧٠).

[2] محاسن التأويل المشهور بتفسير القاسمي، محمد جمال الدين القاسمي- (٣٤٤٨/٩).

فهو ليس من أهلك الذين أمرتك أن تسلكهم في السفينة لإنجائهم ، وعلل هذا النفي ووجهه بقوله – تعالى – : **﴿إنه عمل غير صالح﴾**

قال الإمام الرازي:"هذه الآية تدل على أن العبرة بقرابة الدين لا بقرابة النسب ، فإن في هذه الصورة كانت قرابة النسب حاصلة من أقوى الوجوه ، ولكن لما انتفت قرابة الدين ، لا جرم نفاه الله تعالى بأبلغ الألفاظ وهو قوله : **﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾**."[1]

وحين تبين لنوح أن سؤاله لم يكن في موضعه، وخشي أن يكون قد أخطأ في حق ربه عز وجل، استغفر ربه وطلب منه الرحمة،واستعاذ به من الجهل،ويرتجف نوح ارتجافة العبد المؤمن يخشى أن يكون قد زلَّ في حق ربه ، فيلجأ إليه ، يعوذ به ، ويطلب غفرانه ورحمته : **﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾**

ثانياً:فوائد مهمة من القصة:

أولاً: إن الرابطة الكبرى التي تربط بين المسلمين هي رابطة الدين،وهي تربط بين الفرد والفرد ما لا يربطه النسب والقرابة،وابن نوح عليه السلام كان كافراً،مخالفاً لأبيه في دينه ومذهبه، فهلك مع من هلك، و نجا مع أبيه الأجانب في النسب، لما كانوا موافقين في الدين والمذهب.

ثانياً:إن سنة الله تعالى في العقاب لا تحابي أحداً ولو كان ابناً لنبي من أولى العزم من الرسل،وهذا ما يقتضيه عدل الله تعالى في المساواة بين العباد في الثواب والعقاب،وقد وجهنا الله تعالى إلى العدل والمساواة في توجيه الأحكام،ولو كان الحُكم لا ينسجم مع رغباتنا كما قال تعالى :**﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾** [النساء : ١٣٥] فالذي يستحق العقاب ويثبت عليه الجرم لابد أن يعاقب ولو كان أقرب الأقربين للإنسان.

ثالثاً: قال الشيخ محمد رشيد رضا:"إن الله تعالى يجزي الناس في الدنيا والآخرة بإيمانهم وأعمالهم لا بأنسابهم ، ولا يحابي أحداً منهم لأجل آبائه وأجداده الصالحين وإن كانوا من الأنبياء المرسلين ، وأن من سأله من هؤلاء الآباء ما يخالف سننه في شرعه وحكمته في نظام خلقه ، كان مذنباً يستحق التأديب ، حتى يتوب وينيب ."[2]

رابعاً:ضرورة المسارعة إلى التوبة والاستغفار،وعدم تسويف ذلك فها هو نوح عليه الصلاة السلام حينما شعر بالتقصير في حق الله تعالى سارع بالتوبة والإنابة،فنحن أحوج منه إلى ذلك.

---

[1] مفاتيح الغيب،للرازي – (١٨ / ٣).

[2] تفسير المنار، محمد رشيد رضا – (١٢ / ٧٣)

النموذج الثاني: قارون:

أولاً:قصة قارون وسبب عقوبته:

أ.قصة قارون في القرآن الكريم:

وهذا نموذج ثانٍ من النماذج التي ذكرها الله تعالى لعقاب الأفراد،ولنسرد هنا قصته كاملة كما عرضها القرآن الكريم في موضع واحد وهو في سورة القصص،قال تعالى:

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ *وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ * تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ *مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[القصص : ٧٦ ، ٨٤]

هذا النموذج عرضه القرآن الكريم ليبين الخطر الذي يمثله المال على النفس البشرية،وللمال سلطانه على الإنسان الذي يحرص عليه ويحبه ،ويوالي و يعادي من أجله ،ويبذل في سبيله روحه ووقته،ويجعله الهدف الذي يسعى لتحقيقه،وإذا وصل الإنسان لهذه الدرجة من عبادة المال فإنه سينسى المنعم الذي وهبه هذا المال،وسيمنع حق الغير فيه،وينسب الفضل في تحصيله إلى نفسه المتكبرة لا إلى الله تعالى،كما يعدُّ المال وبالاًعلى صاحبه إذا ما أغراه للاعتداء على غيره بالظلم والبطش.

وقارون رجل من بني إسرائيل، رزقه اللّه مالاً كثيراً وفيراً، حيث كان من أثرى أثريائهم ،حتى إن مفاتيح خزائنه كان يصعب حملها على مجموعة من الرجال،وهذا يدل على كثرة ماله.

ب.أسباب عقوبة قارون:

يمكن تلخيص سبب عقوبة قارون بسببين:

السبب الأول:البغي والعدوان نتيجة الثراء:

كان قارون من ذلك النوع الذي يفتن بالمال،ويتخدع بالزينة، فبغى على قومه وتطاول عليهم ، وتجاوز الحدود فى ظلمهم ،والاعتداء عليهم بالأقوال والأفعال .

واستبد به الكبر والخيلاء حتى أنه كان يخرج في موكب مهيب،وزينة فاخرة باهرة، بقصد التعالي على الناس، وإظهار العظمة والمكانة فما كان من الذين يريدون الحياة الدنيا وزخارفها من قومه،إلا أن قالوا على سبيل التمنى والانبهار:يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون من مال وزينة ، إنه لذو حظ عظيم ، ونصيب ضخم ، من متاع الدنيا وزينتها .

هكذا قال الذين يريدون الحياة الدنيا ،وهم الفريق الأول من قوم قارون ، أما الفريق الثانى المتمثل فى أصحاب الإيمان القوى ، والعلم النافع ، فقد قابلوا أصحاب هذا القول بالزجر والتعنيف ، وقد حكى القرآن ذلك عنهم فقال : **﴿وَقَالَ الذين أُوتُواْ العلم وَيْلَكُمْ ثَوَابُ الله خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلاَ يُلَقَّاهَآ إِلاَّ الصابرون ﴾** .

أي: انزجروا وارتدعوا عن هذه التمنيات والأقوال، فإن جزاء اللّه ومثوبته لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترون وما تتمنون، ولكن لا يتلقى الجنة أو المثوبة ولا يوفق لها إلا الصابرون على الطاعات وعن المعاصي، الراغبون في الدار الآخرة، الراضون بقضاء اللّه في كل ما قسم من المنافع والمضار، المترفعون عن محبة الدنيا، وذلك كما جاء في الحديث الصحيح: **(يقول اللّه تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)**[1]، واقرؤوا إن شئتم: **﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ، جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ ﴾**[السجدة : ١٧]. [2]

لكن أي أمة لا تخلو من الناصحين والعقلاء فنصحه أهل الوعظ والإرشاد من قومه بمواعظ خمس قائلين[3]:

١- **﴿ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾** أي قال له جماعة من بني إسرائيل من النصحاء، حينما أظهر التفاخر: لا تبطر ولا تفرح بما أنت فيه من المال، فإن اللّه لا يحب الأشرين البطرين الذين لا يشكرون اللّه على ما أعطاهم، ولا يستعدون للآخرة، أي يبغضهم ويعاقبهم، كقوله تعالى: **﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ، وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ، وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ﴾**[الحديد ٢٣].

---

[1] صحيح البخاري كتاب(بدء الخلق) ، باب ٨ (ما جاء في صفة الجنة ..) – (٣ / ١١٨٥)،ح(٣٠٧٢) .

[2] انظر: التفسير المنير للزحيلي – (٢٠ / ١٦٦).

[3] انظر: المصدر السابق– (٢٠ / ١٦١).

٢- ﴿وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ :أي استعمل ما وهبك اللّه من هذا المال الجزيل، في طاعة ربك، والتقرب إليه بأنواع القربات التي يحصل لك بها الثواب في الدنيا والآخرة، فإن الدنيا مزرعة الآخرة.

٣- ﴿وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا﴾: أي لا تترك حظك من لذات الدنيا التي أباحها اللّه من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والزواج، فإن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه، وهذه هي وسطية الإسلام في الحياة

عَنْ عَائِشَةَ : **أَنَّ النَّبِىَّ -صلى الله عليه وسلم- بَعَثَ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ فَجَاءَهُ فَقَالَ : (يَا عُثْمَانُ أَرَغِبْتَ عَنْ سُنَّتِى). قَالَ : لاَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلَكِنْ سُنَّتَكَ أَطْلُبُ. قَالَ : (فَإِنِّى أَنَامُ وَأُصَلِّى وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأَنْكِحُ النِّسَاءَ فَاتَّقِ اللَّهَ يَا عُثْمَانُ فَإِنَّ لأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ لِضَيْفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا فَصُمْ وَأَفْطِرْ وَصَلِّ وَنَمْ)**[١].

٤- ﴿ وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ :أي وأحسن إلى خلقه كما أحسن إليك، وهذا أمر بالإحسان مطلقاً بعد الأمر بالإحسان بالمال، ويدخل فيه الإعانة بالمال والجاه، وطلاقة الوجه، وحسن اللقاء، وحسن السمعة، أي أنه جمع بين الإحسان المادي، والإحسان الأدبي أو الخلقي.

٥- ﴿ وَلا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ :أي ولا تقصد الإفساد في الأرض بالظلم والبغي والإساءة إلى الناس، فإن اللّه يعاقب المفسدين، ويمنعهم رحمته وعونه وودّه.

إلا أن قارون أبى النصح وقال:﴿ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ يريد أن هذا المال الكثير الذى تحت يده، إنما أوتيه بسبب علمه وجده واجتهاده ،فكيف يُطلب منه التصرف بمقتضى نصائحهم؟ ولسان حاله يقول لن أتبع تلك النصائح التى وجهتموها إلى ، فإن هذا المال مالى ولا شأن لكم بتصرفى فيه ، كما أنه لا شأن لكم بتصرفاتى الخاصة ، ولا بسلوكى فى حياتى التى أملكها ، وهذا القول يدل على أن قارون ، كان قد بلغ الذروة فى الغرور والطغيان وجحود النعمة .

والظاهر أنه جمع هذا المال بما لديه من ذكاء وخبرة في شؤون التجارة، ولكنه غفل عن كون هذا المال هبة من الله تعالى ،ونسي بطش اللّه بالمتجبرين و المتكبرين من أمثاله في الأمم الغابرة الذين كانوا أشد منه قوة وأكثر جمعاً للمال.

السبب الثاني:الولاء للأعداء:

---

[١] سنن أبى داود،كتاب(التطوع) ،باب ٢٨(ما يؤمر به من القصد فى الصلاة)- (١ / ٥١٩) ،ح(١٣٧١) قال الألباني : صحيح .

أخبر الله تعالى أنه أرسل موسى عليه الصلاة والسلام إلى فرعون وهامان وقارون،يدعوهم إلى الإيمان بالله وتحرير الشعب المستعبد من الظلم والجور الواقع عليهم من فرعون وسائر رجال القصر الفرعوني وحاشيته قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ *إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ** ﴾ [غافر : ٢٣ – ٢٥]

وبالتأمل للآية السابقة نجد أن الله تعالى قد ذكر هامان وقارون بجوار فرعون ، وقد خصهما باسميهما من دون ملأ فرعون،وهذه الخصوصية ترجع لكونهما أعمدة الحكم، وأسس النظام الفرعوني مع أن قارون ليس من قوم فرعون،وإنما من قوم موسى،وقوم موسى وقارون يقاسون من ظلم فرعون وطغيانه ،أما أن قارون من قوم موسى فقد أخبر القرآن بذلك في الآيات السابقة في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى**﴾

وإن مما يفت النظر أن قارون كان غنياً، وحرصه على المال دفعه ليرتمي في أحضان فرعون الطاغية،والتخلى عن قومه بسبب مصلحته الشخصية المتوهمة عند فرعون ،بل ويشارك أعمدة الحكم آنذاك وهما فرعون وهامان في قرارهم بقتل أبناء المؤمنين لموسى،واستحياء نسائهم وكأنهم ليسوا بقومه ولا أهله،وهكذا يستغل الطواغيت عبيد الدنيا استغلالاً بشعاً،استغلالاً يتنازلون فيه عن كل شيء عن آبائهم ،وعن أقاربهم، وعن كرامتهم،ويتنازلون عن حقوقهم مقابل منافع شخصية ،ويربطون مصيرهم بمصير أعدائهم.

و هذا الأسلوب لم يكن في عهد فرعون فحسب بل إنه أسلوب قديم حديث متجدد في كل زمان ومكان أسلوب شراء الرجال بشئ من المال أو الجاه أو المراكز!![١]

ثانياً:عقوبة قارون:

ثم جاءت الآيات تتحدث عن عقوبة قارون التي عاقبه الله بها بسبب توجيهه للمال في غير موضعه الصحيح،ليكون عبرة وعظة لكل من استعمل ماله في ظلم الناس ،أو البغي عليهم بغير حق ،حيث نزلت عليه العقوبة الربانية التي تمثلت بالخسف به وبداره، "ولا داعي لبيان أسباب الخسف المروية في التفاسير، فإنها كما ذكر الرازي في أكثر الأمر متعارضة مضطربة، والأولى طرحها، والاكتفاء بما دل عليه نص القرآن، وتفويض سائر التفاصيل إلى عالم الغيب" [٢]

وعقوبة قارون كانت الخسف به وبداره كما حكى سبحانه – فى قوله : ﴿ **فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض** ﴾ .

---

[١] انظر: إن فرعون علا في الأرض،ص٣٥.

[٢] مفاتيح الغيب،للرازي – (٢٥ / ١٧).

والخسف وهو الغوْر فى الأرض ، يقال : خُسف بالمكان خسفاً إذا غار فى الأرض ، ويقال : خُسِفَ بالرَّجُل وبالقوم ،إذا أَخَذَتْه الأرضُ فدخل فيها وخسف القمر ، إذا ذهب ضؤوه.[١]

قال ابن كثير رحمه الله :" لما ذكر تعالى اختيال قارون في زينته، وفخره على قومه وبغيه عليهم، عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض، كما ثبت في الصحيح -عند البخاري من حديث الزهري، عن سالم -أن أباه حدثه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به ، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة"[٢] .

يشير ابن كثير أن جزاء قارون كان من جنس عمله،أي أنه لما كان متكبراً على الناس،وينظر إليهم من برج عاجي،ظاناً نفسه أعلى منهم مكانة وأغنى منهم مالاً،جازاه الله تعالى من جنس عمله،وخسف به الأرض إلى أسفل سافلين،ليكون هو تحت الأرض خاسئاً ذليلاً،ومن تكبر عليهم وازدراهم يعلونه فوق الأرض

عبرة وعظة:

وبعد هذه العقوبة الرهيبة التي هزت جموع بني إسرائيل ظهرت العبرة للمعتبر، وتبين للمغرورين بمال قارون حقيقة الأمر :**﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ﴾**

أي صار الذين رأوه في زينته وتمنوا في الماضي القريب أن يكونوا مثله يقولون: ألم تر أن اللّه يمدّ الرزق لمن يشاء من خلقه ،ويضيقه على من يشاء، وليس المال بدالٍ على رضا اللّه عن صاحبه، فإن اللّه يعطي ويمنع، ويضيق ويوسّع، ويخفض ويرفع، وله الحكمة التامة والحجة البالغة، ولولا أن الله تعالى قد منّ علينا ، بفضله وكرمه لخسف بنا الأرض كما خسفها بقارون وبداره .[٣]

النموذج الثالث: السامري

أولاً:قصة السامري وسبب عقوبته:

السامري رجل من بني إسرائيل، وقد حيكت حول شخصيته أخبار وأقاصيص مختلفة متناقضة مصدرها الإسرائيليات،فقيل موسى السامري رباه جبريل عليه السلام،فكان يعرفه،وقيل كان منافقاً يظهر الإسلام وكان من قوم يعبدون البقر ،وكان حب عبادة البقر في نفسه من غير بني إسرائيل لكنه رُبي فيهم ،وقيل غير ذلك[٤] ،لكن المؤكد أن السامري كان أحد

---

[١] انظر:تهذيب اللغة ،للأزهري – (٧ / ٨٥)، لسان العرب ، لابن منظور – (٩ / ٦٧).

[٢] تفسير القرآن العظيم،لابن كثير – (٦ / ٢٥٦).

[٣] التفسير المنير، للزحيلي – (٢٠ / ١٦٧).

[٤] انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري – (٢ / ٦٦).

الدجالين الكذابين من بني إسرائيل،ولعله احترف السحر الذي كان حرفة شائعة الصيت في ذلك العصر،جعله الله تعالى فتنة لبني إسرائيل،ليبلو إيمانهم،فحرك فتنة عبادة العجل،وكان العقل المدبر لهذه الطامة الكبرى،حيث استغل غياب موسى عن قومه،وذهابه لميقات ربه،ولما زاد الميقات عشر ليالي فوق الثلاثين ولم يعد موسى من رحلته،برز السامري محاولاً الظهور كشخصية من الشخصيات المؤثرة في بني إسرائيل إلا أنها كانت ممتلئة كفراً ونفاقاً،فقال لبني إسرائيل إن موسى قد احتبس عنكم وليس براجع إليكم فاتخذوا إلهاً تعبدونه،ولعل السامري قد سمع طلب بني إسرائيل من موسى أن يجعل لهم صنماً يعبدونه بعدما نجاهم الله من فرعون،وعلم أن بذرة الشرك مازالت مغروسة في قلوبهم،فرأى أن الفرصة في غياب موسى عليه الصلاة والسلام باتت سانحة لتنفيذ الخطة،لأن غياب القائد يسهل المهمة،وفي غياب الراعي يسهل افتراس الأغنام، لاسيما أن بني إسرائيل يسهل خداعهم فهم كالأغنام تساق للذبح وهي تبتسم. وساقهم السامري إلى ما يريد ،وأخذ يروج لفكرته في بني إسرائيل،وينشر الأخبار الكاذبة عن اليأس من عودة موسى عليه الصلاة والسلام،فلاقت فكرته قبولاً عند بني إسرائيل،ورضاً كاملاً بها،فأخرجوا حلياً قيل أن نساءهم كنَّ قد استعرنها من المصريات في عيد لهم قبل الخروج من مصر[1] وسلموها للسامري –الذي يظهر أنه كان صائغاً ماهراً– فأخذها وصنع لهم عجلاً يخور كما يخور العجل الحقيقي:﴿ **فأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ * أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا** ﴾ [طه : ٨٨ ، ٨٩]

أي: "فقال السامري والمفتونون به لبني إسرائيل: هذا هو إلهكم وإله موسى، فاعبدوه، فموسى نسي أن يخبركم أن هذا إلهكم، أفلا يعتبرون ويتفكرون في أن هذا العجل لا يجيبهم إذا سألوه!؟، ولا يكلمهم إذا كلموه، ولا يقدر أن يدفع عنهم ضرراً، أو يجلب لهم نفعاً، فكيف يتوهم أنه إله؟!"[2]

وفي الآيات " إنكار وتقبيح من جهته تعالى للضالين والمضلين جميعاً ،وتسفيه لهم فيما أقدموا عليه من المنكر الذي لا يشتبه بطلانه واستحالته على أحد، وهو اتخاذ ذلك العجل إلهاً ، ولعمري لو لم يكونوا في البلادة كالبقر لما عبدوه"[3]

ولما رآهم هارون عليه السلام مقدمين على عبادة العجل قال لهم ناصحاً:﴿ **..يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي** ﴾ [طه : ٩٠] لكنهم ردوا عليه بجهل وعناد:﴿ **قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى**﴾ [طه : ٩١]

---

[1] انظر:روح المعاني ، للألوسي – (١٦ / ٢٤٧).

[2] التفسير الوسيط للزحيلي – (٢ / ١٥٤٣).

[3] روح المعاني ، للألوسي – (١٦ / ٢٤٨).

ولما رجع موسى عليه الصلاة والسلام إلى قومه غضبان أسفاً،وكان عنده الخبر اليقين الذي جاءه من عند الله أن القوم قد فتننوا،لكنه لا يعلم قدر الفتنة التي وقعوا فيها،فلما رآهم يعبدون العجل ويمجدونه ويقدسونه من دون الله ،غضب غضباً شديداً وصاح بهم قائلاً:

﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف : ١٥٠]

وألقى ألواح التوراة من شدة غضبه،ومن هول ما رآه من فعل قومه،وجذب أخاه هارون من رأسه من شدة الغضب وقال له :﴿ .. **يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾** [طه : ٩٣ ، ٩٤]

فأجابه هارون بهدوء وصبر،ليبرأ ساحته ﴿ **قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾** [طه : ٩٤]

" فإنك أمرتني أن أخلفك فيهم فلو تبعتك لتركت ما أمرتني بلزومه و **﴿أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾**حيث تركتهم وليس عندهم من يرعاهم ، فإن هذا يفرقهم ويشتت شملهم فلا تجعلني مع القوم الظالمين ولا تشمت فينا الأعداء."[١]

فندم موسى عليه الصلاة والسلام على ما صنع بأخيه وهو غير مستحق لذلك قال

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٥١]

ثم توجه موسى بعد ذلك إلى رأس الفتنة، ومدبر المكيدة ،فقال له مستجوباً:**﴿ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾** [طه : ٩٥] أي: ما شأنك ، وما الأمر العظيم الذى جعلك تفعل ما فعلت؟ فرد عليه السامري:﴿ **بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾** [طه : ٩٦]

ثانياً:الاختلاف في تفسير الآية السابقة:

واختلف المفسرون بالمراد بـ"الرسول" والمراد بـ"أثره" في الآية الكريمة على قولين:

القول الأول: ذهب أكثر المفسرين،أن المراد بالرسول : جبريل عليه السلام ،ويكون المراد بأثره : التراب الذى أخذه من موضع حافر فرسه .

واستدلوا بما رُوى أن السامرى رأى جبريل عليه السلام، ولم يره أحد غير السامرى من قوم موسى ، ورأى الفرس كلما وضعت حافرها على شيء اخضرت ، فعلم أن للتراب الذى تضع عليه الفرس حافرها شأناً ، فأخذ منه حفنة وألقاها فى الحلي المذاب،فصار عجلاً له خوار .[٢]

---

[١] تيسير الكريم الرحمن،للسعدي ، ص ٥١٢.

[٢] انظر:جامع البيان في تأويل القرآن للطبري-(١٨ / ٣٦١)،تفسير القرآن العظيم،لابن كثير-(٥ / ٣١٣)،الجامع لأحكام القرآن للقرطبي - (١١ / ٢١٤).

القول الثاني: ذهب الإمام أبى مسلم الأصفهانى[1]،وتبعه الإمام الرازي أن المراد بالرسول : موسى عليه الصلاة السلام ،ويكون المراد بأثره : دينه وسنته.

حيث نقل الإمام الرازي عن أبى مسلم الأصفهانى قوله:" المراد بالرسول موسى عليه السلام وبأثره سنته ورسمه الذي أمر به، فقد يقول الرجل فلان يقفو أثر فلان ،ويقبض أثره إذا كان يمتثل رسمه،والتقدير أن موسى عليه السلام لما أقبل على السامري باللوم والمسألة عن الأمر الذي دعاه إلى إضلال القوم في باب العجل فقال بصرت بما لم يبصروا به أي عرفت أن الذي أنتم عليه ليس بحق وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول أي شيئاً من سنتك ودينك فقذفته أي طرحته" [2]

ويكون معنى الآية : أن السامرى قال لموسى عليه الصلاة السلام كنت قد أخذت جانباً من دينك وعلمك ، ثم تبين لى أنك على ضلال،فنبذت ما أخذته عنك،وسولت لي نفسي أن أصنع للناس عجلاً لكى يعبدوه ،لأن عبادته أراها هى الحق .

مناقشة الرأيين السابقين:

رجح الإمام الرازى فى تفسيره ما ذهب إليه أبو مسلم، ورد القول الأول بعدة أدلة:

١ – أن جبريل ليس مشهوراً باسم الرسول ، ولم يجر له فيما تقدم ذكر حتى تجعل لام التعريف إشارة إليه .

٢ – أنه لا بد فيه من الإضمار ، وهو قبضته من أثر حافر فرس الرسول ، والإضمار خلاف الأصل .

٣ – أنه لا بد من التعسف فى بيان أن السامرى كيف اختص من بين جميع الناس برؤية جبريل ومعرفته؟ ثم كيف عرف أن لتراب حافر فرسه هذا الأثر؟ والذى ذكروه أن جبريل هو الذى رباه بعيد .[3]

رد الإمام الآلوسى على الإمام الفخر الرازى – رحمهما الله – فقال:

١ – عهد فى القرآن الكريم إطلاق الرسول على جبريل ، كما فى قوله – تعالى – : ﴿ **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ** ﴾ وعدم جريان ذكره فيما تقدم لا يمنع أن يكون معهودا ، ويجوز أن يكون إطلاق الرسول عليه كان شائعا فى بنى إسرائيل .

---

[1] هو محمد بن بحر الأصفهاني الكاتب أبو مسلم كان نحوياً كاتباً بليغاً ، مترسلاً جدلاً ، متكلماً معتزلياً ، عالماً بالتفسير وغيره من صنوف العلم ، وصار عالم أصبهان وفارس ، له جامع التأويل لمحكم التنزيل ، أربعة عشرة مجلداً ، على مذهب المعتزلة ، والناسخ والمنسوخ ، وكتاب في النحو وجامع رسائله . مولده سنة أربع وخمسين ومائتين ، ومات سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة انظر: بغية الوعاة ،للسيوطي – (١ / ٥٩).

[2] مفاتيح الغيب – (٢٢ / ٩٦)

[3] انظر : مفاتيح الغيب،للرازي – (٢٢ / ٩٦).

٢ – تقدير المضاف فى الكلام أكثر من أن يحصى ، وقد عهد ذلك فى كتاب الله غير مرة
٣ – رؤية السامرى دون غيره لجبريل ، كان ابتلاء من الله – تعالى – ليقضى الله أمرا كان مفعولاً .
٤– ومعرفته تأثير ذلك الأثر دون غيره كانت بسبب ما ألقى فى روعه من أنه لا يلقيه على شيء فيقول له كن كذا إلا كان – كما فى خبر ابن عباس – أو كانت لما شاهد من خروج النبات بالوطء – كما فى بعض الآثار – يحتمل أن يكون سمع ذلك من موسى عليه السلام.[١]

الترجيح:

يرى الباحث: أن القول الأول هو الأرجح لعدة أمور:

١– لأن الآية تتحدث عن أمور مشاهدة وملموسة يدل على ذلك بعض المفردات في الآية الكريمة مثل(بصرت–قبضت قبضة–أثر– نبذتها) فقوله "بصرت" أي شاهدت ورأيت بعيني، وهذا هو الأصل بالإبصار،والقبض هو الإمساك باليد،والنبذ إلقاء الشيء وطرحه،فهذه الأفعال تدل على حركة ،وفعل ملموس قد وقع،ولا تدل على أمور معنوية،

٢– الأصل في الألفاظ أن تؤخذ على ظاهرها ولا ينتقل للمجاز إلا لقرينة،ثم لو سلمنا بوقوع المجاز في الآية فهل وقع في أربع ألفاظ؟

فتكرار المجاز –على رأيهم– يوحي بعدم وجوده في هذه الآية الكريمة.

٣– إن السامري كان يخاطب موسى عليه السلام خطاباً مباشراً أي وجهاً لوجه ،فلو قلنا بالرأي الثاني أن المراد بالرسول هو "موسى"لاقتضى ذلك الإتيان بالضمير أي "فقبضت قبضة من أثرك" وهذا أبلغ،لكن لما قال "الرسول" أراد رسولاً غير موسى عليه السلام وهو جبريل عليه السلام وهو رسول السماء والله تعالى أعلم.

ثالثا:عقوبة السامري:

بعد أن استمع موسى لحجة السامري الواهية، أخبره بالعقوبة التي سينزلها الله تعالى عليه جزاء جرمه وتضليله للناس واستخفافه بهم،فقال له موسى موبخاً ومعنفاً:﴿ **قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا** ﴾

وقوله " فَاذْهَبْ " الأظهر أنه أمر له بالانصراف والخروج من وسط الأمّة،والانعزال عن بني إسرائيل، ويجوز أن يكون كلمة زجر ، كقوله تعالى : ﴿ **اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ**﴾ [الإسراء : ٦٣][٢]

---

[١] انظر:روح المعاني ، للألوسي – (١٦ / ٢٥٤).
[٢] انظر:المصدر السابق ، نفس الصفحة.

والآية " إخبار بما عاقبه الله به في الدنيا والآخرة ، فجعل حَظه في حياته أن يقول لا مِساس ، أي سلبه الله الأُنس الذي في طبع الإنسان فعوضه به هوساً ووسواساً وتوحشاً ، فأصبح متباعداً عن مخالطة الناس ، عائشاً وحده لا يترك أحداً يقترب منه ، فإذا لقيه إنسان قال له : لا مساس ، يخشى أن يمسه ، أي لا تمسني ولا أمسك ، أو أراد لا اقتراب مني ، فإن المسَّ يطلق على الاقتراب كقوله**﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾** [هود : ٦٤] ، وهذا أنسب بصيغة المفاعلة ، أي مقاربة بيننا ، فكان يقول ذلك ، وهذه حالة فظيعة أصبح بها سخرية ."[١]

قال الطبري" قال موسى للسامريّ فاذهب فإن لك في أيام حياتك أن تقول لا مساس أي لا أَمِسُّ، ولا أُمسُّ.. وذُكر أن موسى أمر بني إسرائيل أن لا يؤاكلوه، ولا يخالطوه، ولا يبايعوه، فلذلك قال له: إن لك في الحياة أن تقول لا مساس، فبقي ذلك فيما ذكر في قبيلته."[٢]

وهذه العقوبة في الواقع عقوبة شديدة تحطم النفس،إذ يعيش المَهجور وحيداً لا يجد من يسامره ولا من يحادثه،وتتقطع العلاقات الأسرية فيفقد صلته بزوجته وأولاده،ويصبح منعزلاً في مجتمعه منبوذاً بينهم.

قال صاحب الكشاف : "عوقب في الدنيا بعقوبة لا شيء أطمَّ منها وأوحش ، وذلك أنه منع من مخالطة الناس منعاً كلياً ، وحرم عليهم ملاقاته، ومكالمته، ومبايعته، ومواجهته ،وكل ما يعايش به الناس بعضهم بعضاً."[٣]

وقيل أنه أصيب بداء معدٍ اشتهر به فلم يمس أحد أو يمسه أحداً كائناً من كان إلا حُمَّ من ساعته حمى شديدة فتحامى الناس وتحاموه وكان يصيح باقصى صوته لا مساس[٤]

قال القرطبي:" هذه الآية أصل في نفي أهل البدع والمعاصي وهجرانهم وألا يخالطوا ، وقد فعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بكعب بن مالك والثلاثة الذين خلفوا"[٥]

وأما السر والحكمة في كون عقوبته هجران الناس له:

فقد قال الآلوسى: " والسر في عقوبته على جنايته بما ذكر على ما قيل : إنه ضد ما قصده من إظهار ذلك،ليجتمع عليه الناس ويعززوه فكان سبباً لبعدهم عنه وتحقيره ،وصار لديهم أبغض من الطلياء وأهون من معبأة[٦] "[١]

---

[١] التحرير والتنوير ، لابن عاشور – (١٦ / ٢٩٧).

[٢] جامع البيان في تأويل القرآن – (١٨ / ٣٦٣).

[٣] الكشاف،للزمخشري– (٣ / ٨٥).

[٤] انظر: روح المعاني ، للألوسي– (١٦ / ٢٥٥).

[٥] الجامع لأحكام القرآن – (١١ / ٢٤١).

[٦] هذا المثل يفسَّر على وجهين يقال : الطَّلْياء الناقة الْجَرْباء المَطْلِيَّة بالهِنَاء–أي القطران أو القار– ويروى هذا المثل بلفظ آخر فيقال " أبْغَضُ إلي من الجَرْبَاء ذات الهِنَاء "وذلك أنه ليس شيء أبغض إلى العرب من=

الخاتمة

أحمد الله تعالى أن منَّ عليَّ وتفضل بإتمام هذا البحث،أحمده حمداً كثيراً عظيماً كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه،فلولا توفيقه ومعونته ومعيته ما رأى هذا البحث النور،فله الحمد أولاً وله الحمد آخراً.

أولاً:أهم النتائج

لقد توصلت في نهاية كتابتي لهذا البحث إلى الكثير من النتائج ،وأوجز أهمها فيما يلي:

١) إن سنة الله تعالى في عقاب الأمم المكذبة ثابتة ومستمرة إلى قيام الساعة لا تتغير ولا تتبدل على الإطلاق،وما جرى لها خرق أبداً في ماضٍ ولا حاضر.

٢) سنة الله تعالى في عقاب الأمم المكذبة عامة شاملة، تجري على كل من وقع في أسبابها دون اعتبار للعرق، أو للدين ،أو للون ،أو للسان.

٣) سنة الله تعالى في إمضاء هذه السنة مبنية على العدل المطلق ، بعد تحقق أسبابها،ووجود دواعيها،فإن أفعال الله تعالى وسننه وأقداره مبنية على العدل المطلق الذي لا يشوبه ذرة من ظلم أو جور

٤) إن الله تعالى قد جازى كل أمة مكذبة بما تستحق ،وجعل عقابها من جنس معصيتها، بحيث تكون العقوبة مناسبة للذنوب المقترفة.

٥) إن الإصرار على الشرك والكفر يعدُّ أعظم أسباب إهلاك الأمم،وهو السبب المشترك بين الأمم التي لحقها عذاب الاستئصال.

٦) إن التعدي على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ،وعلى ورثتهم من المصلحين، و والدعاة بأنواع الأذى المختلفة، هو سبب تعجيل إنزال العقوبات بالمعتدين

٧) يعدُّ الظلم والتعدي على حقوق الآخرين،وانتهاك حرماتهم،من الأسباب التي أهلكت الأمم السابقة،وأبادت الحضارات الغابرة.

٨) إن عذاب الاستئصال العام الذي حل بالأقوام السابقة لبعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم،قد رفع عن أمته ، وذلك رأفة بهذه الأمة، ورحمة بها ،وكرامة لنبيها،ولأن الخير فيها إلى يوم القيامة.

=الْجَرَبِ لأنه يُعْدِي والوجه الآخر أنه يعني بالطلياء خِرْقَة العارك –أي الحائض– ،وأما معنى " أَقْذَرُ من مِعْبَأَة " أو " أهْوَنُ من مِعْبَأة " وهي خِرْقَة الحائض والجمع مَعَابئ انظر:مجمع الأمثال لأبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري – (١ / ١١٦).

(١) روح المعاني ، للألوسي – (١٦ / ٢٥٦).

٩) يتسم منهج الأنبياء في الإنذار بالعقوبة بالتدرج،حيث يبدأ بالإنذار البياني الوعظي،ثم يتصاعد إلى الإنذار والتحذير من إنزال العقوبة،ثم الدعاء وطلب إنزال العقوبة.

١٠) إن اليهود هم أكثر الأمم المكذبة الذين لحقتهم العقوبات الإنذارية بنوعيها الحسية والمعنوية،وذلك لكثرة المخالفات التي وقعوا فيها.

١١) إن النفسية اليهودية حسب المنظور القرآني هي نفسية مهزوزة جبانة،لاتثبت في معركة،ولا تنهض للصعاب.

١٢) استحق اليهود عقوبة تحريم أرض فلسطين عليهم بسبب قعودهم عن الجهاد وهذا التحريم يبطل دعوى اليهود بحقهم الديني بأرض فلسطين.

١٣) إن التحايل علي شرع الله هو أحد صفات اليهود،ويعتبر جريمة شنعاء عُوقبوا عليها بالمسخ قردة مسخاً حسيّاً حقيقياً.

١٤) إن الدولة الصهيونية القائمة في الوقت الراهن ،هي أمر عارض مؤقت زائل بإذن اللّه لأن الله تعالى عاقبهم بتسليط جند الله عليهم إلى يوم القيامة،ووصمهم بالذلة والمهانة على الدوام.

١٥) حرم الله على اليهود كثير من الطيبات التي أحلها لهم بسبب ظلمهم واعتدائهم،وصدِّهم الناس عن دين الله.

١٦) إن استمرار الكيانات المستبدة في نهج التعسف،والعدوان، والطغيان تجاه الشعوب المستضعفة يعرضها إلى عقوبات الله تعالى كما عوقب فرعون وجنوده بمختلف العقوبات الإنذارية التي انتهت بغرقهم.

١٧) تعدُّ المجاعات ونقص موارد الغذاء، من العقوبات الإلهية التي سلطها الله تعالى على بعض الأقوام بسبب كفرانهم لنعم الله تعالى،وجحودهم لفضل المنعم سبحانه وتعالى،وهي عقوبة مستمرة تجري على كل من وقع في أسبابها.

١٨) إن سمة الذلة والمسكنة مطبوعة في النفسية اليهودية،وإن حاولوا إخفاءها وراء قوتهم العسكرية والاقتصادية،لأنها عقوبة إلهية لهم باقية ما بقوا على غيهم وضلالهم.

١٩) الرعب عقوبة إلهية يقذفه الله تعالى في قلوب المشركين،وهو سلاح بيد الأمة الإسلامية يؤيد الله به المؤمنين الصادقين تثبيتاً لهم، ونصراً لهم في معاركهم مع عدوهم .

٢٠) إن إلقاء العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع يعد عقوبة ربانية ،عوقب بها اليهود والنصارى،ويعاقب الله بها الأمة إذا اتبعت الأهواء الباطلة،والآراء المنحرفة،ولم تتوحد حول منهج الإسلام

٢١) إن جمود القلب وعدم تأثره بالعظات،هو عقوبة لاستمراء الذنوب والموبقات والاعتياد عليها وعدم انكارها.

٢٢) عاقب الله تعالى الأمم السابقة بعذاب الاستئصال، وهو العذاب الحاسم الذي يودي بجميع الأمة فلا يبقي فيها ولا يذر.

٢٣) نصر الله تعالى للدعاة الصادقين أمر لازم،وإن تأخر وطال أمده ، فنبي الله نوح عليه الصلاة والسلام جاءه نصر الله تعالى بعد دعوة قاربت الألف عام، استعمل خلالها كل الوسائل الدعوية التي استطاعها،ليرقق قلوبهم،ويهديهم الصراط،فهو قدوة للدعاة في صبره على قومه واحتمال أذاهم .

٢٤) إن الاغترار بالقوة المادية،والتباهي بها، مدعاة لعقوبة الله تعالى،فكيف إذا استخدمت في غير وجهتها السليمة.

٢٥) لم تقتصر دعوة الأنبياء السابقين على الدعوة إلى التوحيد، بل تعدت ذلك إلى معالجة الانحراف في السلوك والأخلاق.

٢٦) عقوبة قوم لوط كانت من أشد العقوبات الإلهية التي وقعت بالأمم لوقوعهم في تلك الفاحشة الشنيعة ،التي لم يسبقم بها أحد من العالمين.

٢٧) الرابطة الكبرى التي تربط بين المسلمين هي رابطة الدين، وابن نوح عليه السلام كان كافراً ، مخالفًا لأبيه في دينه ومذهبه، فهلك مع من هلك، و نجا مع أبيه الأجانب في النسب، لمَّا كانوا موافقين في الدين والمذهب.

٢٨) إن التواضع لله تعالى بنسبة الفضل إليه،والتواضع للناس بخفض الجناح لهم وعدم الاستعلاء عليهم،من أسباب دوام النعمة،أما التكبر بالمال والمنصب ونسيان المنعم مدعاة لعقوبة الله تعالى وسلب للنعمة كما جرى مع قارون.

ثانياً:أهم التوصيات:

وفي الختام فإني أوصي إخواني من طلبة العلم والباحثين بما يلي:

١) الاهتمام بالكتابات التي تعنى بتبصير المسلمين بأسباب العقوبات الحسية والمعنوية التي أصابتهم وذلك وفق المنظور القرآني.

٢) التركيز على دراسة الشخصية اليهودية وصفاتها وملامحها في ضوء القرآن مع ضرورة مقارنتها بالواقع المعاصر لليهود.

٣) الاهتمام بدراسة القضايا التي تعالج قضايا الأمة ،دراسة وافية مستوعبة.

٤) الاهتمام بالكتابة في التفسير الموضوعي بما يخدم قضايا المسلمين،مع التركيز على الموضوعات التي تهتم بمعالجة مشكلات الحاضر الاسلامي.

٥) العودة للقرآن الكريم واستلهام الدروس والعبر البليغة من معينه الذي لا ينضب، فهو أصل الأصول، ومنبع العلوم، وبحر المعاني، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء و لا يشبع منه العلماء.

الفهارس العامة

فهرس الآيات القرآنية

سورة البقرة

الآية	رقمها	الصفحة
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ... ﴾	٢١ - ٢٢	١١٧-٢٥
﴿ وَمِنْ أَهْلِ الكتاب مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ... ﴾	٧٥	٨١
﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا... ﴾	١٠٥	١٣٦
﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ ... ﴾	١١٢	١١٧ - ٢٤
﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ... ﴾	١٥١	١٢٠
﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ .. ﴾	١٨٤	٢٣
﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ... ﴾	١٨٧	١٤٦-٢١
سورة النساء		
﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ...﴾	٤٧	١٢٥
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ... ﴾	٤٨	١٧
﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا... ﴾	١٠١	٧١
﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ... ﴾	١٣٥	١٩٣
﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ... ﴾	١٦١-١٦٠	٨٢
﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ... ﴾	١٦٥	١٦
﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا... ﴾	١٧٣	١٥٧
﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ... ﴾	١٧٦	١٥٢
سورة المائدة		
﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ... ﴾	٢	٥
﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ...﴾	١٢	١٤٦
﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾	١٣	١٤٣-٢٢
﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ... ﴾	١٤	١٣٤
﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ... ﴾	١٨	١٠
﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ... ﴾	٢٠	٥٠
﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ... ﴾	٢١	٤٩-٤١
﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا... ﴾	٢٢	١٣٨ - ٤٣
﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا... ﴾	٢٣	٤٤
﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا... ﴾	٢٤ - ٢٦	٤١
﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ... ﴾	٦٤	١٣٢
﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ... ﴾	٧٩-٧٨	١٢٧

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ... ﴾	٨٧	٨٣
﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ... ﴾	٩١	١٢٨
سورة الأنعام		
﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾	١٠	١٥٣
﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ... ﴾	٤٨	٣١
﴿...إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ...﴾	٥٧	٩٨
﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ ...﴾	٦٥	٣٦
﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾	٨٢	١١٨
﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ ... ﴾	١٢٤	١١٢
﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً... ﴾	١٤٥	٨٤
﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ...﴾	١٤٦	٨٤
﴿ ...وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى... ﴾	١٦٤	٨
سورة الأعراف		
﴿ ...ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾	١٧	١٠٣
﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ ... ﴾	٤٤ـ ٤٥	١٢٧
﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ... ﴾	٥٩	١٨ ـ١٥٥
﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾	٦٠	٢٨
﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	٦١	١٥٧
﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ...﴾	٦٦	١٦٣
﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ ... ﴾	٦٩	١٦٤
﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ...﴾	٧٠	١٨ـ١٦٤
﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ...﴾	٧١	١٦٤
﴿..هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ...﴾	٧٣	٣٥ـ١٦٩
﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾	٧٤	١٦٤ـ١٦٨
﴿ ...أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ... ﴾	٧٥	١٦٩
﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾	٧٦	١٦٩
﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ... ﴾	٧٧	١٧٠

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾	٧٨_٧٩	١٧٢
﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ ... ﴾	٨٠_٨١	١٣
﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ ...﴾	٨٢	١٧٤
﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ... ﴾	٨٦	١٧٦
﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ...﴾	٨٨	١٨٨
﴿..رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾	٨٩	١٨٧
﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾	٩١	١٨٧
﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي... ﴾	٩٣	١٨٩
﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ ...﴾	١٢٧	٨٨
﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا... ﴾	١٢٩	١٣٨
﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ ... ﴾	١٣٠	٨٩_٩١
﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ...﴾	١٣١ _١٣٦	٨٩_٩١
﴿ ...وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ.. ﴾	١٣٧	٩٧_١٥٣
﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ... ﴾	١٣٨_١٤٠	٣٩_١٣٨
﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ﴾	١٤٨	١٨
﴿ ...بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ...﴾	١٥٠_١٥١	٢٠٠
﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا ... ﴾	١٥٥	٥٦
﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا... ﴾	١٦١ _١٦٢	٥٩
﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ... ﴾	١٦٣ _١٦٧	٦٦
﴿وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ...﴾	١٧١	٩٠
﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ...﴾	١٧٩	٢٨
﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ ... ﴾	١٩٧	١١٩
﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا... ﴾	١٩٨	١١٩
سورة الأنفال		
﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾	١٢	١٢٢
﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ... ﴾	٢٦	١١٨
﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا.. ﴾	٣٢	٢٠٣
﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ...﴾	٥٢	٥

﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ... ﴾	٥٣	١٠٨
﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ... ﴾	٦٢-٦٣	١٣١
سورة التوبة		
﴿ ...نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ...﴾	٦٧	١٤٣
﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ...﴾	٧٠	١٢
﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ... ﴾	١٢٤-١٢٥	١٤٠
سورة يونس		
﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ ... ﴾	٢	٣٢
﴿...ربنا اطمس على أموالهم...﴾	٨٨	١٧٩
سورة هود		
﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ...﴾	١٨	١٩
﴿..أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾	٢٦	٣٤
﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا... ﴾	٢٩	١٥٨
﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾	٣٠	١٥٨
﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا... ﴾	٣٢	١٥٧
﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ... ﴾	٣٦	٣٢-١٥٨
﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ... ﴾	٣٨	١٥٧
﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ...﴾	٤٠	١٥٩
﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ... ﴾	٤٢	١٩١
﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ... ﴾	٤٣	١٩١
﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ... ﴾	٤٨	١٦٢
﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ... ﴾	٥٨	٣٥
﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ... ﴾	٥٩-٦٠	١٢٦
﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ ...﴾	٦٢	٢٣-١٦٩
﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ... ﴾	٦٤	١٦٩
﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ...﴾	٦٥	١٧١
﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ...﴾	٧٧	١٧٧
﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ... ﴾	٨١	١٧٨

﴿ ..فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا... ﴾	٨٢	١٧٩
﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ...﴾	٨٤	٣٥ـ ١٨٥
﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ... ﴾	٨٥	١٨٥
﴿ ..أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ... ﴾	٨٧	١٨٩
﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ.. ﴾	٨٩	٨
﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ ... ﴾	٩١	١٨٧
﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ... ﴾	٩٣ـ ٩٤	١٨٧
﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُود ﴾	٩٥	١٨٧
﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾	٩٨-٩٩	١٢٦
﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾	١٠٢	١٥٣
﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ... ﴾	١١٠	٣٦
﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ..﴾	١١٨-١١٩	١٣٦
﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ...﴾	١٢٠	٦٤
سورة يوسف		
﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ... ﴾	٧٥	٥
﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ...﴾	١١١	٦٤
سورة الرعد		
﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾	٧	٧٧
﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ...﴾	٩	١٦
﴿...إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ...﴾	١١	١٠٨
﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا ...﴾	١٣	٢٦
﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ... ﴾	٢٨	١١٩
﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ... ﴾	٣١	٩
سورة الحجر		
﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾	٦٦	٣٤
﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾	٧٣	١٨١
﴿...جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾	٧٤	١٤
﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾	٧٥ـ ٧٧	١٨١
﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾	٨٠-٨١	١٦٨

سورة النحل		
﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾	٣٤	١٥٣
﴿وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً ...﴾	٧٨	١٠٦
﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا ... ﴾	٨٨	١٢٧
﴿وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ ءامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً ...﴾	١١٢	١٠٨
﴿..وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾	١١٤	١١٢
﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّهِ حَنِيفاً ... ﴾	١٢٠-١٢١	١٠٦
﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ... ﴾	١٢٦	١٢
سورة الإسراء		
﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا... ﴾	١٦	١٥٣
﴿..كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾	٥٠	٧٥
﴿ ...وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ...﴾	٥٩	١٦٩
﴿اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ﴾	٦٣	٢٠٢
﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ... ﴾	٧٦	٢٦
سورة الكهف		
﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ ...﴾	٦	٦٩
﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ... ﴾	٢٨	١٥٠
﴿ ...هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾	٤٤	٤
سورة مريم		
﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ...﴾	٧٥	١٤٠
﴿ ...وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا...﴾	٤	١٦١
سورة مريم		
﴿...فكذلك ألقى السامري﴾	٨٧	١٢٤
﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ... ﴾	٨٨-٨٩	١٣٨
﴿ ...يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي... ﴾	٩٠-٩١	١٩٩
﴿ .. يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا...﴾	٩٣-٩٦	٢٠٠
سورة الأنبياء		
﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾	١١	١٥٣

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ ...﴾	٢٥	١٦
﴿...وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ ... ﴾	٧٤	١٧٦
﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾	١٠٥	٢٥_٥٠
سورة الحج		
﴿...وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ...﴾	١٨	١١٣
سورة المؤمنون		
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ... ﴾	٢٣_ ٢٤	١٨
﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾	٦٤	١٥٣
سورة النور		
﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ... ﴾	٥٥	٥٠
﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ...﴾	٤٣_ ٤٤	٦٥
﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾	٣٩	١٥٣
سورة الشعراء		
﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ...﴾	١٦_١٨	٨٧
﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ... ﴾	١٩_٢٩	٨٧
﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ... ﴾	٣٨_٤٩	٨٧
﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾	١١٦	٢٤_ ١٥٧
﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ...﴾	١٢٣_ ١٢٤	١٦٢
﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾	١٢٨_١٣٤	١٣_ ٢٨_ ١٦٢
﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ...﴾	١٤٦_١٥٠	١٨١
﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾	١٦٥_ ١٦٦	١٦٨
﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ..﴾	١٦٦_١٦٧	١٧٣
﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾	١٧٦	١٨٤
﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾	١٨٧	١٨٩
﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾	١٨٩	١٨٨
سورة النمل		
﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ ... ﴾	١٢	٨٩

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ...﴾	٤٨_٥٢	١٧٠
﴿أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال شَهْوَةً مِّن دُونِ النسآء ... ﴾	٥٥	١٨٣
﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ..﴾	٥٦	٢٦
سورة القصص		
﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ ... ﴾	٥_ ٦	١١٤
﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ... ﴾	٣٨_٣٩	٩٨
﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى...﴾	٤٣	٣٦
﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ... ﴾	٧٦_٨٤	١٩٤
﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ ... ﴾	٨٣	٤_١٩٤
﴿...كلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ...﴾	٨٨	١٥٢
سورة العنكبوت		
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا.. ﴾	١٤	١٦٠
﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي... ﴾	٢٦	١٧٣
﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ...﴾	٢٩	١٧٦
﴿ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾	٣٠	١٧٧
﴿ ...إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾	٣١	١٧٦
﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ ... ﴾	٣٤	١٥٣
﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ... ﴾	٣٦_٣٧	١٨٥
﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ...﴾	٤٠	١٤_١٥٣
﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾	٦٧	١٢٤
﴿ ..وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾	١١٢	١٠٦
سورة الروم		
﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا ...﴾	٩	١١
﴿...ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى...﴾	١٠	٤
﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ...﴾	٢١	١٨
سورة السجدة		
﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾	١٧	١٩٥
سورة الأحزاب		

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ...﴾	٩	١٦٧
﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا... ﴾	٢٥	١٢٣
﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ... ﴾	٢٧-٢٦	٨٠- ١٢٣
﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾	٦٤	١٢٦
﴿ ...وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾	٧٢	١٣٦
سورة سبأ		
﴿...وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾	١٣	١٠٣
﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ... ﴾	١٥- ٢١	١٠١
﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً ... ﴾	١٩-١٨	١٠٥-١٠١
سورة فاطر		
﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ...﴾	١٠	١١٢
﴿...فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾	٤٣	٨-٢٠٥
سورة يس		
﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ ... ﴾	١٨	٢٥
﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ... ﴾	٦٦	١٧٩
﴿ ...قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾	٧٨	١٦٦
سورة (ص)		
﴿ ...مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴾	٥٠	١٦١
سورة الزمر		
﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ... ﴾	٢٢	١٤٤
﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ ...﴾	٢٣	١٤٩-١٤٨
﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾	٣٤	٥
سورة غافر		
﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا ... ﴾	٢١- ٢٢	٣
﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ... ﴾	٢٣- ٢٥	١٩٧
﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ... ﴾	٢٦	٢٤
﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾	٤٥	١٥٣
سورة فصلت		

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ ...فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾	١١	١٦٠
﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾	١٣	٣٢
﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ...﴾	١٥	١٦٣ ـ١٣
﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ ... ﴾	١٦	١٦٣ـ١٦٥
سورة الشورى		
﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ... ﴾	٤٠	١٢
سورة الزخرف		
﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ... ﴾	٢٣	٢٨
﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ... ﴾	٤٨ـ٥٠	٩٧
سورة الأحقاف		
﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ... ﴾	٢١	٣٢ـ١٦٣
﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا.. ﴾	٢٤ ـ٢٥	١٦٤
سورة محمد		
﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا ... ﴾	١٠	٩
﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ ...﴾	١٦ـ١٧	١٤١
سورة الفتح		
﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... ﴾	٤	٩٣
سورة الحجرات		
﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ...﴾	١٠	١٣١
سورة الذاريات		
﴿ ...حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾	٣٣	١٨٠
﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ..﴾	٤١ ـ٤٢	١٦٦
﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ...﴾	٤٣ ـ٤٥	١٧٢
﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ ...﴾	٥٢ ـ٥٣	٢٧
سورة القمر		
﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴾	٢٣	٣١
﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ... ﴾	٤٣ ـ٤٥	١٠

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾	٩	١٦٠-١٥٧
﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾	١٠	١٥٨
﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ... ﴾	١١ - ١٦	١٦٠
﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾	٣١	١٧٢
﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾	٣٨-٣٧	١٧٨
سورة الحديد		
﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ...﴾	١٧-١٦	١٤٧
﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ...﴾	٢٣	١٩٥
سورة الحشر		
﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ... ﴾	٢	١٢٢-٨٠
﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ... ﴾	١٤-١٣	١٢٤
﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ...﴾	١٧	٤
سورة الممتحنة		
﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ... ﴾	٤	١٢٨
سورة الصف		
﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي ...﴾	٥	١٣٧
﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ ...﴾	٨	١٤٠
سورة المنافقون		
﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ...﴾	٢-٣	١٤١
سورة التحريم		
﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ... ﴾	١	٨٣
سورة القلم		
﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾	١٩	٩٢
سورة الحاقة		
﴿ ..بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾	٦	١٣
سورة نوح		
﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ... ﴾	٥	١٥٦
﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي ... ﴾	٢١	١٥٧

﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا ...﴾	٢٣ـ ٢٥	١٨ـ١٥٧
﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا... ﴾	٢٦ـ٢٧	١٥٨
سورة المزمل		
﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾	١٤	١٧٢
سورة القيامة		
﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ...﴾	٢٦ـ٣٠	١٥٠
سورة النبأ		
﴿ ...وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾	٤٠	٥٨
سورة المطففين		
﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾	٣٢	٢٨
﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ... ﴾	١ ـ ٤	١٨٥
سورة الفجر		
﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ... ﴾	٦ـ٨	١٦٣
سورة الشمس		
﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾	٩ـ١٠	١١٣
﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انْبَعَثَ..﴾	١١ـ١٥	١٧٠

فهرس الأحاديث النبوية

م	الحديث	الدرجة	الصفحة
٢٣.	ليكونن في أمتي أقوام يستحلون الحِرَ والحرير والخمر والمعازف...	صحيح	٧٥
٢٤.	ما أهلك الله قوماً ولا قرناً ولا أمة ولا أهل قرية منذ أنزل التوراة...	صحيح	٣٧
٢٥.	ما من وال إلا وله بطانتان بطانة تأمره بالمعروف ...	صحيح	٨٨
٢٦.	من أصبح منكم آمنا في سربه ، معافى في جسده...	حسن	١١٨
٢٧.	من سئل عن علم فكتمه جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار	صحيح	٢٢
٢٨.	من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به.	صحيح	١٨٣
٢٩.	نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور	صحيح	١٦٧
٣٠.	هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ...	صحيح	١٧
٣١.	وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة...	صحيح	٣٧
٣٢.	ونصرت بالرعب مسيرة شهر	صحيح	١٢١
٣٣.	يا أبا عبيدة،قتلت بنو إسرائيل ثلاثاً وأَربعين نبياً،من أوَّل النهارِ...	لم أقف على درجته	٢٥
٣٤.	يَا عُثْمَانُ أَرَغِبْتَ عَنْ سُنَّتِى قَالَ : لاَ...	صحيح	١٩٦
٣٥.	يرحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد	صحيح	١٧٨
٣٦.	يقول اللّه تعالى:أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت...	صحيح	١٩٥
٣٧.	يكون في آخر هذه الأمة خسف ومسخ وقذف...	صحيح	٧٥
٣٨.	يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها...	صحيح	١١٤

فهرس الأعلام	
العلم	الصفحة
إبراهيم بن محمد الزجاج	١٠٤
أيوب بن موسى الكفوي	١٠٧
جبير بن نفير	١١٤
حذيفة بن قتادة المرعشى	١٤٣
الحسن بن يسار البصري	١١٢
رفيع بن مهران	٥١
عبد الرحمن بن زيد بن أسلم	٤٢
عبد الرحمن بن غنم	٢٦
الفضيل بن عياض	١١٣
قتادة بن دعامة السدوسي	٢٦
مالك بن دينار	١٤٣
مجاهد بن جبر	٢٦
محمد بن بحر الأصفهاني	٢٠١
مقاتل بن سليمان	١٣٩

المصادر والمراجع

أولاً: الكتب:

١. **إبطال الحيل** – أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد العُكْبَري المعروف بابن بَطَّة العكبري–تحقيق: زهير الشاويش – ط٣ – المكتب الإسلامي.

٢. **إتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربعة عشر** – أحمد بن محمد الدمياطي – دار الكتب العلمية – ط١ – ١٩٩٨م .

٣. **الاختلاف أسبابه وأحكامه**– إبراهيم البريكان – المكتبة العلمية – ط١ .

٤. **أسباب النزول للواحدي**– أبو الحسن على بن أحمد الواحدي النيسابوري – حققه عصام بن عبد المحسن الحميدان – دار الإصلاح – طبعة جديدة ومنقحة.

٥. **أسباب هلاك الأمم وسنة الله في المنحرفين والمجرمين** – عبدالله التليدي – دار البشائر– ط١ – ١٩٨٦ م.

٦. **إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة** – أبكار السقاف – دار الفكر– ط٢ – لبنان.

٧. **أصول الدعوة** – عبد الكريم زيدان – مؤسسة الرسالة – ط١ .

٨. **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن** – محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي – دار الفكر – ط١ –١٩٩٥ م – لبنان.

٩. **الأعلام** – خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي – دار العلم للملايين – ط١٥ –٢٠٠٢م .

١٠. **إعلام الموقعين عن رب العالمين** – أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي المعروف بابن القيم الجوزية – دار الجيل – ١٩٧٣م .

١١. **إغاثة اللهفان** – ابن القيم الجوزية – حققه محمد حامد الفقي– دار المعرفة–ط٢– ١٩٧٥ م

١٢. **إن فرعون علا في الأرض** – محمد أبو فارس – دار الفرقان – ط١ – ١٩٩٨ م.

١٣. **الفقه الإسلامي وأدلته** – وهبة الزحيلي – دار الفكر– ط٤ – لبنان.

١٤. **روائع البيان تفسير آيات الأحكام من القرآن** – محمد علي الصابوني – مكتبة الغزالي – ط٣

١٥. **بحر العلوم** – أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي – دار الفكر – ط١.

١٦. **بدائع الفوائد** –ابن القيم الجوزية – مكتبة نزار مصطفى الباز – ط١ –١٩٩٦م .

١٧. **البداية والنهاية** – إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي – دار إحياء التراث العربي – ط١ – ١٤٠٨هـ .

١٨. **البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة** – عبد الفتاح القاضي – ط١ – ٢٠٠٢م .
١٩. **بغية الوعاة** – جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي – حققه محمد أبو الفضل إبراهيم – المكتبة العصرية – ط٢ .
٢٠. **تاج العروس من جواهر القاموس** – محمّد بن محمّد الحسيني المشهور بالزبيدي – دار الهداية – ط٢.
٢١. **تاريخ الخلفاء** – جلال الدين السيوطي – مطبعة السعادة – ط١ .
٢٢. **التبيان تفسير غريب القرآن** – أحمد بن محمد المصري– دار الصحابة للتراث – حققه فتحي الدابولي– ط١– ١٩٩٢م .
٢٣. **التحرير والتنوير**– محمد الطاهر بن عاشور– دار سحنون–١٩٩٧ م.
٢٤. **تذكرة الحفاظ** – محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى –حققه زكريا عميرات – دار الكتب العلمية – ط١ – ١٩٩٨م .
٢٥. **التعبير القرآني** – فاضل صالح السامرائي – دار عمار– ط٤ – ٢٠٠٦م .
٢٦. **التعريفات** – علي بن محمد بن علي الجرجاني–حققه إبراهيم الأبياري – دار الكتاب العربي – ط١– ١٤٠٥هـ.
٢٧. **تفسير ابن أبى حاتم المسمى "تفسيرالقرآن العظيم"** – أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي – حققه أسعد محمد الطيب – المكتبة العصرية –بلا رقم طبعة .
٢٨. **تفسير ابن كثير المسمى "تفسير القرآن العظيم"** – ابن كثير الدمشقي – دار طيبة – ط٢ –١٩٩٩م.
٢٩. **تفسير أبي السعود المسمى "إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم"** – محمد بن محمد العمادي أبو السعود – دار إحياء التراث العربي – ط١ – لبنان.
٣٠. **التفسير الاسلامي للتاريخ** – عماد الدين خليل – دار العلم للملايين – ط٣ – ١٩٨١ م .
٣١. **تفسير البحر المحيط** –محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي – دار الكتب العلمية – ط١– ٢٠٠١ م.
٣٢. **تفسير البغوي المسمى "معالم التنزيل"** – أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي – دار طيبة للنشر والتوزيع – ط٤ – ١٩٩٧م.
٣٣. **تفسير السعدي المسمى "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"** – عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي – تحقيق – عبد الرحمن بن معلا اللويحق –مؤسسة الرسالة – ط١ – ٢٠٠٠م .
٣٤. **تفسير الشعراوي** – محمد متولي الشعراوي – دار أخبار اليوم –بلا رقم طبعة .

٣٥. **تفسير الطبري المسمى "جامع البيان في تأويل القرآن"**- أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الآملي الطبري – حققه أحمد شاكر – مؤسسة الرسالة – ط١ – ٢٠٠٠م .
٣٦. **تفسير القاسمي المسمى "محاسن التأويل "** – محمد جمال الدين القاسمي – دار إحياء الكتب العربية – ط١.
٣٧. **التفسير القرآني للقرآن** – عبد الكريم الخطيب – دار الفكر العربي – بلا رقم طبعة.
٣٨. **تفسير المراغى** – أحمد مصطفى المراغى – مطبعة الحلبي – بلا رقم طبعة –مصر
٣٩. **تفسير المنار المسمى "تفسير القرآن الحكيم"** – محمد رشيد بن علي رضا –الهيئة المصرية العامة للكتاب–١٩٩٠ م – مصر.
٤٠. **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج** – وهبة الزحيلي – دار الفكر المعاصر – ط٢ –١٤١٨هـ – سوريا .
٤١. **تفسير النيسابوري "المسمى غرائب القرآن ورغائب الفرقان"** – نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري – دار الكتب العلمية – ط١ – ١٩٩٦ م
٤٢. **التفسير الوسيط** – وهبة بن مصطفى الزحيلي – دار الفكر– ط١ – ١٤٢٢هـ – سوريا
٤٣. **التفسير الوسيط للقرآن الكريم** – محمد سيد طنطاوى – الرسالة – بلا رقم طبعة – ١٩٨٦م
٤٤. **تفسير روح البيان** ،إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي – دار إحياء التراث العربى – بلا رقم طبعة.
٤٥. **تفسير فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير** – محمد بن علي الشوكاني – دار الفكر –بلا رقم طبعة – لبنان.
٤٦. **تفسير مقاتل بن سليمان** – أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير البلخي– دار الكتب العلمية – ط١ – ٢٠٠٣م .
٤٧. **تهذيب اللغة** – أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري – دار إحياء التراث العربي – ط١ –٢٠٠١م
٤٨. **التوقيف على مهمات التعاريف** – محمد عبد الرؤوف المناوي – دار الفكر المعاصر– ط١– ١٤١٠هـ.
٤٩. **الثقات** – محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي – دار الفكر – ط١ .
٥٠. **الجامع لأحكام القرآن** – محمد بن أحمد القرطبي – دار عالم الكتب – حققه هشام سمير البخاري ٢٠٠٣ م – السعودية.

٥١. **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي** – ابن القيم الجوزية – دار الكتب العلمية – بلا رقم طبعة.
٥٢. **حجة القراءات** – عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة – مؤسسة الرسالة – ط٢ – ١٩٨٢م .
٥٣. **حلية الاولياء** – أبو نعيم الأصبهاني – دار الكتاب العربي – ط ٤ – ١٤٠٥ هـ – لبنان.
٥٤. **دراسات في الأديان** – عماد الدين الشنطي – مكتبة ومطبعة دار المنارة – ط٢ – ٢٠٠٨م.
٥٥. **دروس في علم الإجرام وعلم العقاب** – محمود نجيب حسني – دار النهضة العربية – ١٩٨٨م .
٥٦. **رسالة التوحيد** – إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي – وزارة الشؤون الإسلامية السعودية – ط١ – ١٤١٧هـ.
٥٧. **الروح** – ابن القيم الجوزية – دار الكتب العلمية – ط١ .
٥٨. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني** – شهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي دار إحياء التراث العربي – بلا رقم طبعة – لبنان.
٥٩. **روضة المحبين ونزهة المشتاقين** –ابن القيم الجوزية – دار الكتب العلمية – ١٩٩٢ م.
٦٠. **زاد المسير في علم التفسير**– عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي – المكتب الإسلامي – ط٣ .
٦١. **الزهد** – أبوعبدالله أحمد بن حنبل الشيباني – دار النهضة العربية – ١٩٨١م .
٦٢. **سبل السلام** – محمد بن إسماعيل الأمير الكحلاني الصنعاني – مكتبة الحلبي – ط٤ .
٦٣. **سنن ابن ماجه** – محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني– حققه محمد فؤاد عبد الباقي – دار الفكر – بلا رقم طبعة.
٦٤. **سنن أبي داود** – سليمان بن الأشعث السجستاني – دار الكتاب العربي – ط١
٦٥. **سنن الترمذي** – محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي –حققه أحمد محمد شاكر وآخرون – دار إحياء التراث
٦٦. **سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها** – محمد هيشور – المعهد العالمي للفكر الإسلامي – ط١– ١٩٩٦م
٦٧. **سير أعلام النبلاء** – شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي – مؤسسة الرسالة – ط٩ –١٩٩٣م
٦٨. **السيرة النبوية** – عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري – حققه طه عبد الرءوف سعد – دار الجيل – ١٤١١هـ .

٦٩. **السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث** ، علي محمد الصلابي – دار الفجر – ط١ – ٢٠٠٣م .
٧٠. **الشخصية اليهودية من خلال القرآن** – صلاح عبد الفتاح الخالدي – دار القلم – ط١ – ١٩٩٨ .
٧١. **شرح السنة** – الحسين بن مسعود البغوي – المكتب الإسلامي – ط٢ – ١٩٨٣م
٧٢. **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل** – لابن القيم الجوزية – دار الفكر – ط١ .
٧٣. **صحيح البخاري المسمى " الجامع الصحيح المختصر "** – أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي – دار ابن كثير – ط٣ .
٧٤. **صحيح مسلم** – أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسبوري – دار المغني – حققه محمد فؤاد عبد الباقي
٧٥. **صفة الصفوة** – ابن الجوزي – دار المعرفة – ط٢ .
٧٦. **صيد الخاطر**–ابن الجوزي – دار الكتب العلمية – ط١ – ١٩٩٢م .
٧٧. **طبقات المفسرين** – أحمد بن محمد الأدنروي – مكتبة العلوم والحكم – ط١–١٩٩٧م
٧٨. **عقيدة اليهود في الوعد بفلسطين** – محمد بن علي آل عمر– مكتبة الملك فهد الوطنية – ط١ – ٢٠٠٣م .
٧٩. **عقيدة اليهود في تملك فلسطين**،عابد توفيق الهاشمي – دار الفكر– ط٤ .
٨٠. **غريب القرآن** – أبو بكر محمد بن عزيز السجستاني – تحقيق محمد أديب جمران – دار قتيبة – ١٩٩٥م.
٨١. **الفائق في غريب الحديث و الأثر** – محمود بن عمر الزمخشري – دار المعرفة – ط٢ .
٨٢. **فتح الباري شرح صحيح البخاري** – ابن حجر العسقلاني – دار المعرفة – ١٣٧٩ هـ.
٨٣. **الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية لسليمان الجمل** – المطبعة العامرية – ط١ –١٣٠٣هـ.
٨٤. **فقه الدولة في الإسلام** – يوسف القرضاوي – دار الشروق – ط٣ –١٩٩٩م .
٨٥. **فقه السنة** – سيد سابق – دار الفتح – ط١ – ٢٠٠٩م .
٨٦. **في ظلال القرآن** – سيد قطب – دار الشروق – بلا رقم طبعة – مصر.
٨٧. **القدس قضية كل مسلم** – يوسف القرضاوي –المكتب الإسلامي – ط٢– ٢٠٠٢م.
٨٨. **قصص الأنبياء** – عبد الوهاب النجار – دار إحياء التراث العربي – ط٣ – لبنان.
٨٩. **القصص القرآني** – حامد أحمد البسيوني – دار الحديث – ٢٠٠٥م .

٩٠. **كتاب الكليات** – أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي – مؤسسة الرسالة – ١٩٩٨م.

٩١. **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**– أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري – حققه عبد الرزاق المهدي– دار إحياء التراث العربي– ط١– ١٩٩٨م.

٩٢. **لباب التأويل في معاني التنزيل المشهور تفسير الخازن** –علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن – دار الفكر– ١٩٧٩م – لبنان.

٩٣. **اللباب في علوم الكتاب** – أبو حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي – دار الكتب العلمية – ط١ – ١٩٩٨ م .

٩٤. **لسان العرب** – محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري – دار صادر – ط١ .

٩٥. **لطائف المعارف** – أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي – دار ابن كثير – ط١ –١٩٩٩م

٩٦. **مجمع الأمثال** – أبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري – دار المعرفة – حققه محمد عبد الحميد – ط١.

٩٧. **مجموع الفتاوى**– تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية الحراني – دار الوفاء – ط٣ – ٢٠٠٥م .

٩٨. **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**– أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي– حققه عبد السلام عبد الشافي محمد – دار الكتب العلمية – ط١ – ١٩٩٣م – لبنان.

٩٩. **مدارج السالكين** –لابن القيم الجوزية – دار الكتاب العربي – ط٢ – ١٩٧٣م .

١٠٠. **المستدرك على الصحيحين** – أبو عبدالله محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري – دار الكتب العلمية – ط١ – ١٩٩٠م .

١٠١. **مسند الإمام أحمد بن حنبل**– أحمد بن حنبل – حققه شعيب الأرنؤوط – مؤسسة قرطبة –ط١.

١٠٢. **مشارق الأنوار على صحاح الآثار**– أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي – دار التراث– ط١ .

١٠٣. **مشاهير علماء الأمصار** – ابن حبان– دار الوفاء– ط١ – ١٩٩١م.

١٠٤. **المصباح المنير للفيومي في غريب الشرح الكبير** – أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي – المكتبة العلمية – بلا رقم طبعة .

١٠٥. **معاني القرآن** – أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس – الناشر :جامعة أم القرى – ط١ –١٤٠٩هـ

١٠٦. **معاني القرآن** – أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء – دارالمصرية للتأليف والترجمة – ط١ .

١٠٧. **معجم أسماء الأشياء** – أحمد بن مصطفى الدمشقي – دار الفضيلة – ط١ .

١٠٨. **معجم الأدباء** – ياقوت الحموي –حققه إحسان عباس – دار الغرب الإسلامي – ط١ –١٩٩٣م

١٠٩. **المعجم الأوسط** – أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني – حققه طارق محمد وعبد المحسن الحسيني – دار الحرمين – ١٤١٥هـ .

١١٠. **المعجم الكبير** – الطبراني – مكتبة العلوم والحكم – ط٢ – ١٩٨٣م .

١١١. **معجم المؤلفين** – عمر كحالة – دار إحياء التراث العربي – ط١ – لبنان.

١١٢. **المعجم الوسيط إبراهيم مصطفى وآخرين**– دار الدعوة – تحقيق مجمع اللغة العربية – ط١ .

١١٣. **معجم قبائل العرب القديمة والحديثة** – عمر رضا كحاله – دار العلم للملايين – ط٢ – ١٩٦٨ م .

١١٤. **مفاتيح الغيب** – فخر الدين محمد بن عمر الرازي – دار الكتب العلمية – ط١ – ٢٠٠٠م .

١١٥. **مفردات غريب القرآن** – الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني – دار القلم – بلا رقم طبعة .

١١٦. **مقدمة ابن خلدون**

١١٧. **المنهج القرآني في مجادلة أهل الكتاب** – سيد أحمد سلام – مكتبة الإيمان – ط١ –٢٠٠٧م .

١١٨. **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة** – إشراف :مانع حماد الجهني – دار الندوة العالمية ط٤ –١٤٢٠هـ

١١٩. **نحن والحضارة الغربية** – أبو الأعلى المودودي –دار الفكر الحديث – بدون رقم طبعة .

١٢٠. **نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر** – لابن الجوزي – مؤسسة الرسالة – ط١ – ١٩٨٤ م .

١٢١. **نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور** – برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي – دار الكتب العلمية – ١٩٩٥م .

١٢٢. **الوابل الصيب** – لابن القيم الجوزية – دار الكتاب العربي – ط١ –١٩٨٥م .

١٢٣.   **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** – أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان– حققه إحسان عباس – دار صادر –ط١ .

ثانياً :المواقع الكترونية:

١. **الموسوعة العالمية للشعر العربي:**www.adab.com

٢. **أنصار السنة:**www.ansarsunna.com

٣. **صيد الفوائد:** www.saaid.net

٤. **مجلة العصر على الانترنت:**www.alasr.ws

٥. **موقع (الصحة) :** www.sehha.com

فهرس الموضوعات

ملخص الرسالة

تناولت الدراسة أحد القضايا المهمة التي عرضها القرآن الكريم وهي قضية عقاب الأمم السابقة ،وهذه القضية تمثل أحد السنن الإلهية الجارية إلى يوم القيامة،تجري على كل أمة وقعت في أسبابها،ومن هنا تأتي أهمية هذه الدراسة فهي تنذر المسلمين من عاقبة الأمم السابقة لهم ، وتبصرهم بأسباب الإهلاك والاستبدال،حتى لا يقاربوها .

وهذه الدراسة تقدم الرؤية القرآنية الشاملة، والتفسير القرآني لما مر بالبشرية وما زال يمر بها من كوارث ومصائب متزايدة ، كالأعاصير والأوبئة والزلازل وغير ذلك .

وقد اشتملت الرسالة على ثلاثة فصول،أما الفصل الأول فقد تناول فيه الباحث السنة الإلهية في عقاب الأمم من حيث خصائصها في ضوء القرآن الكريم ،والأسباب المختلفة لإنزالها على الأمم.

أما الفصل الثاني فقد تناول فيه الباحث أنواع العقوبات الإلهية حيث تنقسم إلى عقوبات استئصالية وعقوبات إنذارية ،أما العقوبات الإنذارية فتنقسم إلى عقوبات حسية ملموسة وأخرى معنوية.

أما الفصل الثالث فقد تناول فيه الباحث النوع الثاني من العقوبات وهي العقوبات الاستئصالية التي نزلت على الأقوام الغابرة كقوم عاد وثمود،وأودت بهم ،واختُتم البحث بذكر بعض النماذج التي عرضها القرآن الكريم لعقوبات الأفراد.

Laying Nations sanctions in the world

Study examined one of the important issues presented by the Quran that the issue of impunity of former nations, and this case represents a divine current to the Day of Resurrection, takes place on every nation took place in the causes, hence the importance of this study are warning Muslims of the consequences of the previous nations, and blindness the reasons for the depreciation and replacement, so do not close from it.

This study provides a comprehensive Qur'anic vision, and interpretation of the Quran over humanity and still going through disasters and misfortunes of a growing, such as hurricanes, earthquakes and epidemics and so on.

The letter included three chapters, The first chapter dealt with the researcher in a divine punishment Nations in terms of their appropriateness in light of the Quran, and the various causes to bring it to the nations.

The second chapter dealt with the researcher types of sanctions where the divine is divided into excisional sanctions and penalties Inmarip, The Sentinel is divided into penal sanctions sensory concrete and other spirits.

The third chapter dealt with the researcher the second type of penal sanctions, a genocide that descended on the ancient clans Kkom returned and Thamood, and claimed them, and concluded by mentioning some of the research models presented by the Quran sanctions for individuals.